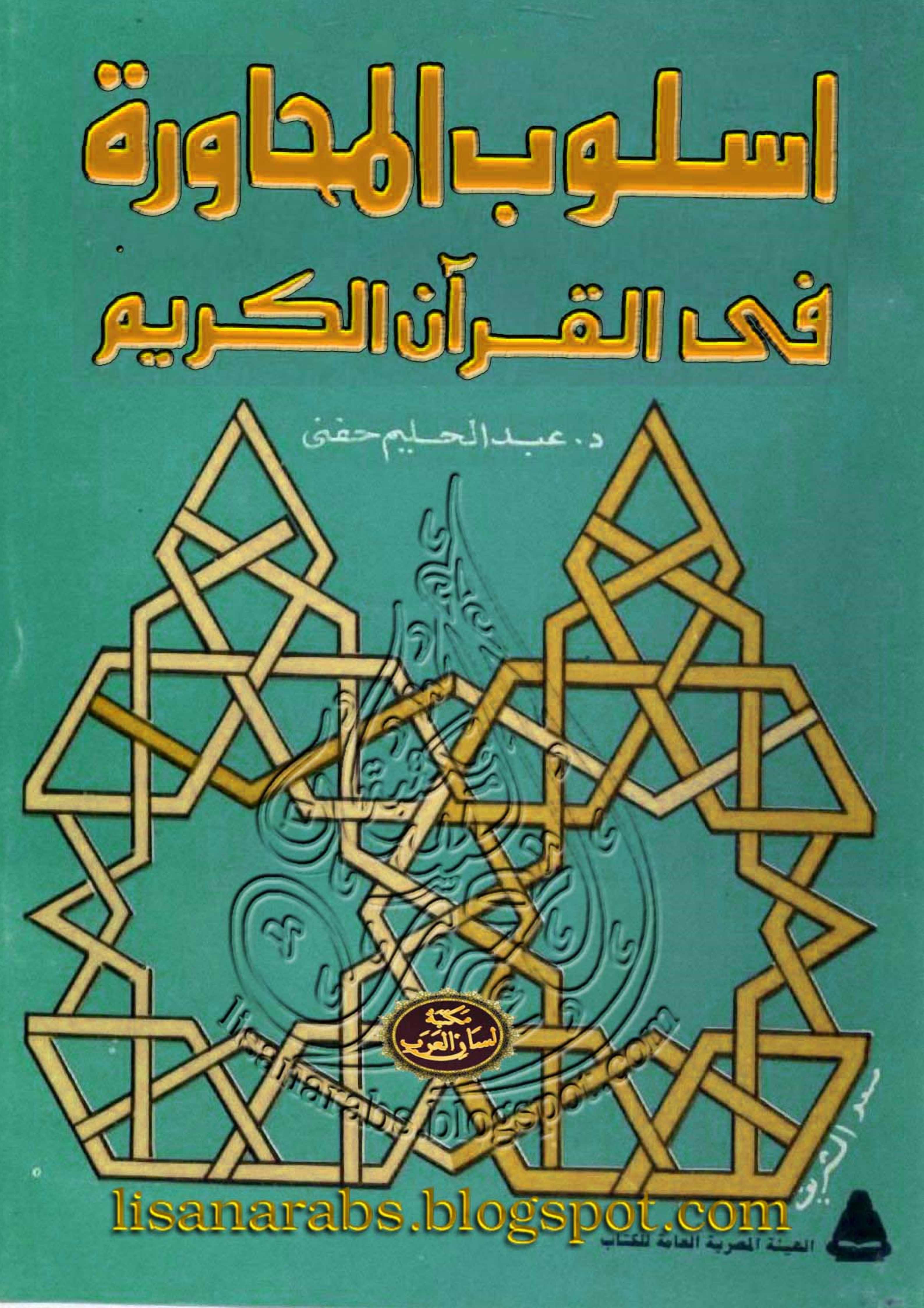

اسلوب المحاورة
فى القرآن الكريم
د. عبد الحليم حفنى
lisanarabs.blogspot.com
الهيئة المصرية العامة للكتاب

أسلوب المحاورة في القرآن الكريم

دكتور عبد الحليم حفني

الطبعة الثالثة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٥



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

ليس من الشر في شيء أن يختلف الناس ، ولكن الشر كل الشر أن يضلوا الطريق الصحيح إلى معالجة الخلاف ، أما أن اختلافهم ليس من الشر ، فذلك لأن كل ما في داخل نفوس الناس ، وكل ما يحيط بهم من ظروف الحياة يدعو إلى اختلافهم ، فاختلافهم إذن ليس غريبا ، ولكنه يتبع من طبيعة تكوينهم ومن أحوال معيشتهم معا . وأما أن الشر في ضلالهم الطريق الصحيح إلى تسوية الخلاف ، فلأن الطريق الصحيح هو الاحتكام إلى الحق ، وهو دائما واضح نير إذا صدقت النفوس في الاتجاه إليه ، وأقرب طريق يوصل إليه هو الحوار العقلي المجرد عن اتباع الهوى ، ولكن البديل القريب لهذا الطريق هو البحث عن القوة ، باعتبارها وسيلة سريعة وشائقة في تسوية الخلاف ، وحينئذ يكون هذا اللاجيء إلى القوة قد ضل الطريق ، وفي هذا الضلال كل الشر ، وكل ماعاناته

وما تعانيه البشرية من ويلات الحروب ، ومن أنواع الصراع .
وما تخلفه من طواحين الجوع والفسر ، التى تطحن الملايين الذين ليس لهم فى هذه الحروب من ناقة ولاجمل فى أغلب الأحيان ، والذين قد لايشعرون بأن بينهم وبين محاربيهم شيئا قط من عداوة أو خصومة أو اختلاف وإنما الخصومة والخلاف بين القادة والرؤساء ، وقد ينحصر الخلاف كله بين اثنين ممن أتيح لهم احتلال قمم الشعوب ، بالحكم أو السيادة فيتخذون من هذه القمم طواحين لإبادة بعض هذه الشعوب بالحرب ، وتعذيب الباقى بالجوع والعرى والمرض وسائر ماتثمره الحروب ، ولو احتكموا إلى الحق ، لوجدوه واضحا بينا ، وأقصى مايحتاجون إليه حينئذ ، هو الحوار بالمنطق والحجة ، ليكون الحوار طريقهم إلى الحق ، فالأمر حينئذ لايكاد يعدو حالتين ، إما أن يستجيب الطرفان للحق ، فيستريحان وتستريح معهما الشعوب ، وإما أن يتمرد أحدهما على الحق بعد ظهوره وحينئذ سيكون ظهور الحق مقصرا لأجل الخصومة ، ومقللا من عدد الضحايا إن تحولت الخصومة إلى رحى ، لأن ظهور الحق فى جانب سيجعل منه فى أغلب الأحيان قوة قوية ، ولا سلاح أقوى من الحق .
ويجعل فى الجانب الذى ظهر بطلانه ضعفا فى ذات المسك بالباطل وتخاذلا فى أتباعه ، فلا شيء أوهن من جبهة الباطل ولاشيء أسرع من تهالك بنيانه ، وانفضاض جمعه ، وعلام يحرص هذا الجمع ، وبم يستمسك وهو موقن بأنه لاحق له ؟ وزيادة على ذلك ، حين يوقن بأن خصمه هو صاحب الحق . . .

والقرآن الكريم يهدى الناس فيما يهديهم إلى أن يحتكموا إلى الحق ، وإلى أن يسلكوا الطريق الصحيح إليه ، وهو طريق المحاورة

حتى لايضلوا فيسلكوا بادىء ذى بدء طريق القوة دون منطق . فيكونون حينئذ قد سلكوا ذات الطريق التى يسلكها سائر الحيوان الأعجم حين يختلف ، وهو طريق القوة البدنية دون منطق .

فيجعل القرآن كل قضاياه سبيلها الحوار ، ويجعل كل خلافه مع أعدائه ومخالفيه قائما على الحوار ، ولا يجعل من القوة سبيلا قط إلى التعامل مع المخالفين ، وإنما يجعلها عقوبة للمصرين على الباطل بعد سطوع الحق ، لتكون أيضا وسيلة إلى إعادتهم إلى الحق ، وآية ذلك أن الله جلت قدرته يتخذ من ذاته مثلا فى المحاورة فلايفرض قوته وقدرته مع أنه غير مراجع فيهما ، وإنما يبسط حواره قبل القوة ، ويضرب لنا سبحانه أمثلة كثيرة ، كحواره مع الملائكة حين يتقبل منهم فى منطق الحوار ، مايشبه أن يكون إنكارا أو اعتراضا عليه فى ظاهر اللفظ ، كقولهم له سبحانه (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟) بعد أن قال لهم عن خلق آدم (إنى جاعل فى الأرض خليفة) وكحواره مع بعض البشر ، مثل حواره مع إبراهيم الذى بدا وكأنه غير موقن بالبعث كل اليقين ، فيسأل ربه (رب أرنى كيف تحيي الموتى؟) ولكن ربه لاينكر عليه ذلك وإنما يحاوره ، كما ينقل القرآن الكريم (قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) وكحواره سبحانه مع نوح الذى بدا وكأنه يتغابى أويتجاهل على الله لينجى فلذة كبده من الغرق ، ولكن الله يحاوره ليبين له الحق واضحا جليا فى غير لبس ، قبل أن ينذره أو يحذره (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ، قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم

إنى أعظك أن تكون من الجاهلين : قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك
ماليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) وكحواره
سبحانه مع موسى حين ألح على ربه فى أن يسمح له برؤية ذاته سبحانه
ليزداد يقينا كما أراد إبراهيم أن يزداد يقينا بالبعث ، ولينقل لقومه
ماكثر إلحاحهم فيه من قولهم (أرنا الله جهرة) ولكن الله لا ينكر
على موسى مطلبه ، وإنما يحاوره ليملأ نفسه يقينا كما ملأ نفس
إبراهيم (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك
قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى
فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك
تبت إليك وأنا أول المؤمنين (وكذلك حواره سبحانه مع إبليس .
على الرغم من تحدى إبليس ومخالفته وعصيانه الصريح (... ثم قلنا
للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين :
قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار
وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج
إنك من الصاغرين قال أنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين ،
قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . . . . .) :

وهكذا نرى الله سبحانه يحاور الملائكة والناس وحتى الشيطان ، مع
وضوح قوته وقدرته على أن يجعل كل شىء يمضى كما يريد .
ولكنه يريد أن يعلم الناس – فيما يعلمهم – أن يلجأوا إلى المحاورة
قبل لجوئهم إلى القوة ، مهما ملكوا من وسائل القوة ، ومهما كان
خلاف مخالفيهم ، وكأنه سبحانه يقول : هل تملكون من القوة أكبر
مما أملك ؟ ومع ذلك فإنى أتخذ المحاورة والحجة سبيلا إلى تبيان الحق

وإقراره ، وهل تبلغ مخالفة مخالفيكم مابلغه خلاف إبليس إياى ؟ ومع ذلك اتخذت الحوار معه سبيلا .

فمن هذا ونحوه تدرك أهمية الحوار فى حياة الناس ، وندرك مدى عظم هذه الأهمية ، أمنية أن تصبح المحاورة سبيل الناس فى وصولهم إلى الحق ، ووصول حقهم إليهم .

وقد كان هذا الجانب ونحوه من الدوافع إلى اختيارى المحاورة لتكون موضوعا لهذا الكتاب .

ومن الدوافع أيضا جانب موضوعى ، يدور حول إعجاز القرآن الكريم وموجزه أنه مهما تعددت البحوث والأفكار فى فهم إعجاز القرآن وتحديده ، فليس من المتوقع ولامن المظنون التوصل منه إلى كل شىء ، بل سيبقى سر إعجاز القرآن محاطا بما يشبه الهالة القوية الكثيفة التى إن كشفت عن كل الحجم ، فلن تكشف عن كل الجوهر والحقيقة ، ويبقى هذا السؤال قائما : ثم ماذا ؟ وذلك من باب قولهم (إذا عرف السبب ، بطل العجب) ولو استنزفنا كل مافى إعجاز القرآن من أسرار ، لذهب أهم مايحمله أسلوب القرآن من بهاء وجلال .

وإذن فسيبقى إعجاز القرآن منهلا لايغيض ، لكل باحث فيه وكل مغترف منه ، وماكتاب أسلوب المحاورة فى القرآن إلا محاولة استكشاف جانب من جوانب الإعجاز ، نأمل ألا يعود القارىء منها صفر اليدين .

ولئن قيل فما وجه الاختلاف بين المحاورة والقصة ، مع كونهما

جميعا من أخبار السالفين ؟ والجواب أنه وإن جمعهما طابع الخبر فإنهما من حيث الأسلوب وطبيعة المنهج يختلفان اختلافا كبيرا ومن تقريب هذا الاختلاف إلى الأذهان ، أنه يمكن أن يقال إن الفارق بين القصة والمحاورة فى القرآن ، كالفارق بين القصة والمسرحية فى الواقع الأدبى ، من حيث إن القصة تعتمد على الأحداث فى تتابعها وتولد بعضها من بعض ، أما المسرحية فتعتمد على الأشخاص فى حوارهم ، وإبراز مواقفهم بالحجة والمنطق . فالقصة تعتمد على الأحداث أما المسرحية أو المحاورة ، فإنها تعتمد على حوار الأشخاص ، سواء أكان الشخص حقيقيا معينا بذاته ، أم اعتباريا بوصفه رمزاً لمعنى معين ، كما يرمز فى المسرحية عن الوطنية بشخصية لايهمنا من هي وإنما يهمنا أنها رمز للوطن ، وكما يرمز فى محاورات القرآن لمعنى معين ، فيساق على ألسنة أشخاص ، ليس المهم تحديد ذواتهم ونسبتهم ، ولكن المهم توضيح المعنى الذى جعلوا رمزا له ، كالمحاورات التى تدور فى جهنم ، وفى الآخرة عامة ، بين الضعفاء والمستكبرين ، وبين المرء وقرينه ، فليس المهم حينئذ ، معرفة أشخاص الطرفين ، وإنما المهم وضوح المعنى الذى يرمز له كل منهما .

وكما أنه لايستساغ الخلط بين القصة والمسرحية فى الدراسات الأدبية ، مع اتفاقهما فى بعض الجوانب ، فكذلك لاينبغى الخلط بين القصه والمحاورة في القرآن الكريم ، من حيث الدراسة البيانية لأسلوب كل منهما ومنهجه .

وليس من أهداف هذا البحث استقصاء محاورات القرآن

ولااستقصاء الأهداف الدينية لما يتعرض له من المحاورات ، وإنما يهدف أساسا إلى أمرين :

أحدهما محاولة بيان أهم خصائص أسلوب المحاورة ، ومنهجها الذى تتميز به عن غيرها من الأساليب ، ومن الألوان البيانية ، أومايسمونه الأجناس الأدبية التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، دون استهداف الموازنة بين المحاورة وغيرها من هذه الأجناس البيانية ، بمعنى أن البحث يحاول بيان أهم خصائص أسلوب المحاورة ، لأنه موضوع الكتاب ، دون التركيز على الموازنة بين أسلوب المحاورة والأساليب الأخرى ، كأسلوب السخرية ،أو أسلوب القصة ، أوغيرهما فهذا وضوع مستقل ، لم يستهدفه الكتاب .

والأمر الآخر محاولة توضيح مدى إسهام أسلوب بالمحاورة ، فى تحقيق الهدف العام للقرآن الكريم ،فليس من البعيد عن الأفهام أن القرآن هدفه العام إصلاح الحياة ، سواء أكان إصلاحا فى الدين أم فى السلوك ، أم فى أى جانب ، وأنه يسلك إلى تحقيق هذا الهدف أساليب متنوعة متعددة ، منها أسلوب المحاورة ، فينبغى أن يكون من أهداف الكتاب إبراز مدى إسهام أسلوب المحاورة فى تحقيق هذا الهدف سواء تمثلت هذه المحاولة فى حديث محدد أوجاءت فى ثنايا بسط المحاورة ، وتوضيح جوانبها وخصائصها .

فإن وفقت إلى شىء مما أريد.فهذا من فضل ربى ،عليه توكلت وإليه أنيب .

د . عبد الحليم حفنى



المحاورة والمجادلة

يصر علماء اللغة على أن يفرقوا بين المحاورة والمجادلة فى المدلول فأما المحاورة فهى عندهم مراجعة الكلام . يقال حاورته أى راجعته الكلام ، وتحاور القوم أو الجماعة راجعوا الكلام بينهم . فمادة المحاورة تدور حول الرجوع .

وأما المجادلة فهى كما يفسرها اللغويون اللدد فى الخصومة ، وما يكون فى نحو من ذلك ، ولكنها فى كل صورها تدور حول التخاصم بالكلام .

ويمكن أن نخرج من حديث اللغويين بفارق واضح بعض الوضوح فى مدلول اللفظين ، فالجدال والمجادلة والجدل (بتحريك الدال) كل ذلك ينحو منحى الخصومة ، بمعنى أن استعمال هذه المادة يكاد يلزم الخصومة فى أى صورة من صورها ، ولو بمعنى التمسك بالرأى والتعصب له .

وأما المحاورة فهى مجرد مراجعة الكلام بين المتكلمين ، ولاتلزم فيه صورة الخصومة ، وإنما تغلب عليها صورة الكلام المتبادل بين طرفين ، فى أسلوب لاتقصد به الخصومة . أو لايراد به بالضرورة الاتجاه إلى الخصومة .

وهذه التفرقة بين المدلولين إنما استقاها اللغويون بطبيعة الحال من تتبع الاستعمال العربى . وإذا ذهبنا إلى القرآن الكريم فى استعماله

للفظين نجد فيه هذه التفرقة ، حيث يغلب استعمال القرآن الكريم للجدال فى الموضع غير المرضى عنه ، أو غير المجدى ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ[2] ﴾ ، وكذلك استعمالها فيما ينبئ عن عدم الرضا أوعدم الجدوى حتى فى الحديث عن الأنبياء ، كقوله تعالى ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾[3] وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾[4] ولذلك نهى القرآن عن الجدال فى الحج[5] وقد وردت مادة الجدال فى نحو تسعة وعشرين موضعاً فى القرآن الكريم ، يغلب عليها جميعاً أن تكون إما سياق عدم الرضا عن الجدال ، وإما عدم جدواه ، وكذلك علماء اللغة يفسرونه بما يدخل فى هذا المحيط ، نتيجة تتبعهم لاستعماله سواء فى القرآن ، أو فى التعبير العرفى عامة .

وأما المحاورة فقد وردت مادتها فى القرآن الكريم فى ثلاثة مواضع ، اثنان منهما فى موضع يبدو فى ظاهره التخاصم الشديد ، فى قصة الأخوين صاحبي الجنتين ، حيث كان أحدهما مؤمناً سخياً ، والآخر كافرا شحيحاً ، فكان من قول الكافر ماروواه القرآن الكريم ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ وينقل القرآن عن الآخر

---

(١) الآية ٥ سورة غافر .
(٢) الآية ٨ سورة الحج والآية ٢٠ سورة لقمان .
(٣) الآية ١٠٧ سورة النساء ومعنى (يختانون أنفسهم) يخونونها بالمعصية .
(٤) الآية ٧٤ سورة هود .
(٥) من الآية ١٩٧ سورة البقرة .

(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلا)[1] ومع أنها خصومة جوهرية بينهما إلا أنها من الناحية الاجتماعية ، أعنى فى الظاهر الواضح أمام الناس لا تمثل خصومة وإنما تمثل اختلافاً بين الأخوين فى الدين والمنهج ، ولعل هذا مما جعل تعبير القرآن الكريم عن موقفهما يأتى بلفظ التحاور المنبئ عن مجرد المراجعة فى الكلام ، ولايأتى بلفظ الجدال الذى يرتبط بالخصومة ، أو اللدد فى الخصومة كما يقول اللغويون .

والموضع الثالث الذى ورد فيه التحاور فى القرآن الكريم ، يتضمن سياقه التفرقة بين المجادلة والمحاورة فى مدلوليهما اللذين نتحدث عنهما ، وذلك فى قوله تعالى ، فى قصة المرأة التى جاءت تخاصم زوجها وتشتكيه (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا[2]) فحديث المرأة عن زوجها كان خصومة ، ولذلك كان التعبير حينئذ بالمجادلة ، ولكن حديثها مع النبى صلى الله عليه وسلم كان مراجعة فى الكلام ، ولذلك كان تعبيره بالمحاورة .

ومن هنا كان إيثار لفظ المحاورة ، واختياره فى عنوان الكتاب بدل لفظ المجادلة ، لأننا لا نعنى حديث الخصومة ، ولا اللدد فيه ، ولانعنى الخصومة لذاتها ، وإنما نعنى المراجعة فى الكلام ، وأسلوب طرق هذه المراجعة ، من وجهة القرآن الكريم ، وتفنن أسلوبه فى ملاءمة كل

---

(١) الآيتان ٣٤ ، ٣٧ سورة الكهف .
(٢) أول سورة المجادلة .

تعبير لشخصية صاحبه ، ولظروف الموقف . ولكن هناك ملاحظة ينبغى أن تكون واضحة ، وهى أن موضوع الكتاب ليس مقصوراً على مراجعة الكلام المجردة من الخصومة ، بل سنرى فيه أنواعاً ، بعضها خلو من التخاصم كتحاور العلماء ، وبعضها لايخلومن خصومة ، ومن لدد أحياناً فى الخصومة كمحاورة الذين يحاجون فى الدين ، فيمكن أن يقال حينئذ : لماذا لم يختر لفظ المجادلة ،مادام الموضوع يتضمن جدالا ، أو كيف تختار المحاورة لموضوع الجدال ؟ ، والجواب عن ذلك أننا آثرنا لفظ المحاورة على لفظ المجادلة لسببين ، أحدهما أن تعبير المجادلة محصور لغة واستعمالا فى محيط الخصومة ، أو للدلالة على غير المرغوب فيه ، وليس من الميسور التوسع فى مدلوله واستعماله ، أما لفظ التحاور فمع دلالته على المراجعة يمكن التوسع فيه للدلالة على موقف الخصومة وموقف غير الخصومة ، مادام كلا الطرفين يراجع الآخر بكلام ومنطق .

والسبب الثانى أن هذا الموضوع لاتعنيه الخصومة ، ولاأطراف الخصومة لذواتهم ، وإنما تعنيه المراجعة الكلامية التى يتداولونها ، وهذه المراجعة الكلامية بين الخصمين يمكن أن ننظر إليها حين تجردها عن الخصومة على أنها محاورة .

وإذن فمراجعة الكلام التى نسميها محاورة ، موجودة فى كل أنواع الحديث الذى يتبادله طرفان ، سواء صاحبته خصومة أولم تصاحبه وحينئذ يكون لفظ المحاورة أشمل لجوانب الموضوع وهذا ماعناه الاختيار .

ولكن هذا الحديث اللغوى ، يجرنا إلى التنبيه إلى لفظ يشيع

الخطأ فى استخدامه ، وهو لفظ (المناقشة) حيث يشيع استخدامه فى معنى المحاورة ، واللغة لاتعرف هذا الاستعمال ، بل لاتكاد تعرف استعماله من حيث الواقع إلا من طرف واحد ، وليس تباد لابين طرفين ، فالمناقشة عند علماء اللغة استقصاء الحساب ، أى استيفاء الحساب ، والحساب يكون بين طرفين عادة ولكن استيفاءه يكون فى العادة لمصلحة أحد الطرفين فحسب ، فمناقشة أحد الطرفين للآخر فى اللغة معناها أن يستقصى محصيا ومستوعبا كل ماله على الآخر ، ويستشهد صاحب أساس البلاغة لهذا بقول عائشة رضى الله عنها (من نوقش الحساب عذب) أى من أحصيت واستقصيت أعماله ليحاسب عليها حسابا عاديا ، دون أن يتداركه عفو الله وغفرانه ، فلابد أن يصيبه العذاب ولكن كثيرا من المثقفين والكتاب يستعملونها مرادفة للمحاورة ، وهذا الخطأ نشأ من شيوعها فى التخاطب بين الناس بهذا المعنى ، وما أكثر ما تجنى العامية على الفصحى فى هذا النحو وغيره من الألفاظ والأساليب .

الدعاة واللسان

المحاورة فى دلالتها الواقعية ، هى محاولة كل من طرفى الحديث أو أحدهما أن يقنع الآخر بمنطقه ووجهة رأيه ، وإذن فالمحاورة فى أغلب صورها مباراة أو منافسة أداتها اللسان ، وهى فى كل أحوالها تمثل موقف المحاور ورأيه وحجته ، وفوق ذلك فإنها تمثل شخصيته ومقدار عقله وتفكيره فأما شخصيته فتبدو من خلال طريقته فى المحاورة ، ومدى حرصه على بلوغ هدفه ، ومدى مقدرته على محاصرة منافسه أو خصمه ، وأما عقله وتفكيره فيبدو من خلال حجته التى يسوقها ومن خلال ترتيب أفكاره ، وتسلسل المقدمات والنتائج فى حديثه

ومن الواضح أن القرآن الكريم جعل الاهتمام باللسان والمنطق فى المكان البارز المرموق ، وإذا ذهبنا نتلمس مصادر هذه الأهمية يمكن أن نشير إلى أبرز جوانبها فيما يلى .

١ ــ أهمية اللسان :

لانزاع فى أن مهمة رسل الله أن يبلغوا للناس الدين الصحيح ، فينتزعوهم من الضلال والجهل إلى المعرفة الصحيحة لله أولا ، ثم يبينوا لهم الأسلوب الأمثل لتطبيق شريعة الله ، سواء منها مايتعلق بالعبادة لله ، أو الصلة بين الناس أو نحو ذلك ، كل رسول حسب ماتضمنه رسالته من تفاصيل ، وفى كل ذلك يكون الرسول صاحب رسالة أو دعوة كل همه أن يقنع الناس بها ليقتنعوا بها ويطبقوها وهذا بطبيعة الحال يستلزم الحوار الدائم والمتواصل بينه وبين المرسل

إليهم ، هو يريد أن يقنعهم بدعوته ، وهم يجادلونه للتمسك بتقاليدهم وكيانهم الاجتماعى الذى صاغوه من هذه التقاليد . وحينئذ تبدو أهمية اللسان من حيث إنه السلاح الأساسى فى هذه الحرب الإعلامية أو النفسية ، وإذا كانت سائر الأسلحة العسكرية والنفسية تمكن لشيء منها أن يؤدى بعض الغرض الذى يؤديه السلاح الآخر ، فإن اللسان هو السلاح الوحيد الذى لايستغنى عنه الداعى ، ولايجد شيئا قط يحل محله ، أو يغنى عنه أى غناء ، ولعلنا نجد شيئا من هذا المعنى فى قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ[1]) فإنه وإن كان المعنى الأساسى منصبا على أنه لابد أن تكون لغة الرسول والمرسل إليهم واحدة ، إلا أن دور اللسان فى الآية وكونه الأداة الوحيدة للبيان والبلاغ ، وكونه ملازما لكل رسول ملازمة أساسية أمر واضح شديد الوضوح .

ولذلك جعل موسى عليه السلام اللسان مطلبا أوليا يدعو ربه أن يحققه له (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي) بل نلحظ أنه حينما تحدث عن اللسان ربط به جوهر رسالته كلها فى فهم الناس عنه (يَفْقَهُوا قَوْلِي) لأنهم إذا لم يفقهوا قوله فقد انفصمت الرابطة بينه وبينهم ، لانعدام وسيلة الاتصال والتفاهم .

ويصر موسى على أن يكتمل لديه هذا السلاح الذى لابديل له عند الداعية ، وهو البيان ممثلا فى اللسان ، وحينما كلفه ربه إعلان رسالته ، وتبليغها إلى أعتى طغاة عصره فرعون ، لم يطلب موسى

---

(١) الآية ٤ سورة ابراهيم .

قوة ولاسلاحا قط فى هذا الصراع الرهيب المقدم عليه سوى لسان كامل البيان ، ولم يكن لسانه هو كامل البيان والطلاقة ، فطلب الاستعانة بأخيه الفصيح الطلق اللسان ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ معى رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾[1] وحين يكتمل مالدى موسى من شخصية قوية ، وعلم واسع ، وحجة دامغة ، بما لدى هارون من طلاقة لسان فى حسن العرض والصياغة البليغة ، فهذا كل ماهو فى حاجة إليه ، وهو أيضاً كل أو خير مايحتاج إليه أى داعية ولم يكن ماينقص موسى – كما يفهم من أغلب الروايات – شيئا يتعلق بالعجز عن النطق أو عن وضوح الألفاظ نفسها ، وإنما يتعلق بطلاقة السان فى استرساله ومقدرته السريعة المتلاحقة ليس على توضيح الكلمات ونطقها وإنما على تنسيقها وعرضها بالصياغة والإلقاء الجذاب المؤثر ، والزمخشرى يبرز هذه الملحوظة فى تعبيز طريف عميق حيث يقول إن الفصاحة لايحتاج إليها لمجرد إلقاء المعنى ليصل السامع إلى فهمه فيقول للمتكلم صدقت أو كذبت ، فهذا القدر يستوى فيه من يضرب به المثل فى البلاغة وهو سحبان ، ومن يضرب به المثل فى العى وهو باقل ، وإنما يحتاج إلى الفصاحة لشىء فوق فهم المعنى ، وهو إلتأثير فى السامع ، وكسب مشاعره ، وهذا جانب وإن كان يبدو دقيقاً فى التعبير عنه وفى تحديده ، إلا أنه واضح ملموس فى واقع الحياة ، فمن المعروف مثلا عن أمير شعراء عصره أحمد شوقى أنه كان يستعين بشخص آخر ليلقى شعره فى المحافل نيابة عنه مع وجوده ، فهذا الشخص لم يصنع شيئاً أكثر من أن

---

(١) الآية ٣٤ سورة القصص .

صوته وإلقاءه يضفى على الكلام شيئاً يزيد من جماله ، ويجعل النفوس أشد تأثراً به ، ولم يكن أحمد شوقى يختار شخصا معيناً ذا موهبة معينة ، وإنما يختار شخصاً لمجرد أن إلقاءه خير من إنشاد الشاعر نفسه . ولعلنا نستشف من هذا المثال حين ننظر من خلاله إلى استعانة موسى بأخيه هارون أن موسى لم يكن لديه عجز أوعيب فيا يتعلق بوصفه رسولا ونبياً ، كما أن شوقى لم يكن لديه عجز فيا يتعلق بوصفه شاعراً ، وكما أن استعانة شوقى بمنشد شعره بدلا منه لم تقلل من قيمته باعتباره شاعراً ، ولم تكن عيباً ولا مطعنا فيه فكذلك استعانة موسى بأخيه هارون لا تحمل قط دليلا على عجز فيه باعتباره نبيا رسولا ، وإنما تحمل دليلا على ميزة من مزاياه ، وهى حرصه الشديد على أن يهيئ لرسالته أقصى مايستطيع من وسائل النجاح .

اللسان والسيف :

كلاهما سلاح فى الخصومة ولكن إذا كان السيف أشد رهبة ، وأصلب جسدا ، فإن اللسان أنفذ طعنا ، وأبعد أثرا ، هذا عند الخصومة ، وكذلك عند الغاية والنتيجة حين يحقق كل منهما هدفه فإن اللسان حينئذ أشد سلطانا على أتباعه ، وهم أشد طواعية له من طاعتهم للسيف .

وإذاأردنا شيئا من إيضاح ، نقول إن اللسان والسيف كلاهما سلاح تخاصم وتنافس ، وكلاهما كان كذلك منذ خلقه الله ، وإذا أردنا الموازنة بينهما فى التأثير ، نجد النتيجة لاتخلو من غرابة فى

ظاهر الأمر ، وتطبيق ذلك أن نضرب مثلا بأحد الملوك أو صاحب قوة يريد أن يفرض وضعا معينا على شعب أو جماعة من الناس لا ترغب فى هذا الوضع ، ونبى صاحب رسالة ، أو مصلح صاحب مذهب ، يريد أن ينشر هذا الدين أو هذا المذهب فى جماعة من الناس وهم بطبيعة الحال غير راغبين فيه ، لمخالفته ومناقضته لواقعهم ، فإن الأديان ومذاهب الاصلاح الحقة بطبيعتها تكون دائما مخالفة لواقع المجتمع ، لأنها لو كانت موافقة لم تكن هناك حاجة إليها ، وعندئذ تجد الوسيلة المألوفة لهذا الملك فى تحقيق غرضه السيف ، وأما الوسيلة المألوفة للنبي أو صاحب المذهب فاللسان ، وقد يكون الملك أسرع فى تحقيق غرضه ، وفرض إرادته ولكننا على المدى البعيد ، نجد الأمر مختلفا من عدة وجوه .

أولهـا :

إن خضوع الذين خضعوا لهذا الملك ، إنما يستمر طالما كان سيفه مشهورا وليس فيهم سيف يكافئه ، فإذا انخفض سيفه ، أوقام سيف أقوى منه أسرع هؤلاء الخاضعون إلى التحلل من خضوعهم ، أما انقياد الأتباع للنبي أوصاحب المذهب فإنه يستمر حتى بعد موته . بل وبعد موت الأتباع أنفسهم ، حيث يحرصون على أن يورثوا هذا الانقياد لأجيالهم التالية . لأن انقيادهم فى حقيقته ليس انقيادًا لشخص ، وإنما للعقيدة أو المذهب الذى أقنعهم به هذا الشخص .

وثانيهـا :

إن السيف فى انتصاره إنما يكسب الأعداء ، أما اللسان فانتصاره كسب الأصدقاء وذلك أن انتصار سيف الملك أو صاحب القوة إنما يمثل هزيمة لآخرين ، وهؤلاء المهزومون ، قد يخضعون للقوة خضوعا ظاهريا ، أمافيا بينهم وبين نفوسهم فهم أعداء لصاحب هذا السيف ، لأن الهزيمة لم تكن يوما محببة إلى أحد . أما صاحب اللسان فإنه حين ينتصر فى حواره يكون قد اكتسب حب هؤلاء المقتنعين أو إعجابهم وحينئذ يكون الوضع الطبيعى أن يتحولوا إلى أصدقاء ولا يتعارض هذا مع وضعهم فى التبعية والانقياد

وثالثهـا :

ان السيف لايؤثر غالبا فى السلوك ، ولايغير من الطابع العام للفرد أو الجماعة ، إلا بمقدار الضرورة التى يضطر فيها الفرد اضطرارا إلى تغيير شىء من عاداته أو رغباته ، ثم يكون هذا التغيير مؤقتا بوقت زوال كابوس السيف ورهبته ، فإذا تنسم الفرد حريته عاد إلى ماكان عليه ولكنه فى غالب الأمر ينفذ مطالب صاحب القوة فى الظاهر ، ثم يتمرد ماوجد إلى التمرد سبيلا ، أما صاحب الدين أو المذهب ، فإنه عادة عند اقتناعه واعتناقه مااقتنع به يبدأ فى توجيه سلوكه بما يتلاءم مع عقيدته الجديدة ، ومثال ذلك أن يصدر صاحب هذا السيف أمرًا إلى الخاضعين لسيفه بالامتناع عن أى شىء كشرب الخمر مثلا ، فإن الخاضعين سيتفذون هذا الأمر ظاهرًا ، ثم يتلمسون كل وسيلة للتمرد على الأمر ، ويجدون متعة فى التمكن من مخالفة هذا الأمر ، أما أتباع الدين أو المذهب فإنهم حين يجدون

الخمر محرمة عليهم ، يبدأون فى رياضة أنفسهم على هذا التحريم وإذا غلبتهم نفوسهم فخالفوا ، فإنهم يشعرون بتأنيب الضمير لأنهم على أيسر الفروض فعلوا شيئاً مخالفاً لعقيدتهم أو مذهبهم ، والنتيجة إذن أن اللسان - بوصفه أداة الإقناع - هو الوسيلة المثلى لتغيير السلوك وبالتالى للاصلاح الاجتماعى .

ومن هنا يتضح لنا لماذا لم يكن رسل الله من الملوك أصحاب السلطان ، ولا من القادة أصحاب القوة والنفوذ ، وإنما يرسل النبى وليس معه إلا (اللسان) أدوم الأسلحة ، وأقوى وسائل الإصلاح والهدف الوحيد للأديان هو الإصلاح ، سواء أكان فى العقيدة أم فى المجتمع .

ورابعها :

إننا لو وازنا انتصار السيف بانتصار اللسان ،تجد انتصار اللسان هو النصر الحقيقى ، لأن المقتنع بدعوة اللسان هو الذى يستسلم لصاحب اللسان استسلاما كاملا ونهائياً ، ولايتصور أن يعاود الخصومة معه فيا اقتنع به واعتنقه ، إلا فى حالات شاذة لاتنقض حكما ، ولايبنى عليها حكم ، أما انتصار السيف فلا يعد انتصاراً كاملا ولانهائياً ، بل هو نصر وقتى ، لأن المهزوم فى أغلب الأحيان يحاول غسل الهزيمة عن نفسه ، ومن ثم فإنه يبدأ التفكير والمحاولة للانتقام ما أمكنته الفرصة ، وإذن فسيبقى صاحب السيف مترقباً ومتوجساً هذا الانتقام ، ولذلك ليس من الشطط أن يقال إن نصر السيف لايعد فى حقيقته نصراً كاملا ، لأنه لايحقق الاستسلام

النهائى من المهزوم ، فالنصر حينئذ أقرب إلى التفوق منه إلى النصر الكامل ، أما النصر الكامل والحقيقى ، فهو نصر اللسان

على أن مجرد مقدرة اللسان على إظهار الحجة وإفحام الخصم حتى إذا لم يعتنق الخصم هذا اليقين ، فإن تفوق صاحب اللسان حينئذ أبلغ وأعمق من تفوق صاحب السيف فى الوضع المشابه لذلك والقرآن الكريم يضرب مثلا لذلك فى قصة إبراهيم صاحب اللسان والحجة ، مع خصمه صاحب السيف والقوة والملك العريض (ألم تر إلى الذى حآجّ إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لايهدى القوم الظالمين [1]

(١) الآية ٢٥٨ سورة البقرة .

القرآن الكريم واللسان

نسبة القرآن إلى الله حقيقة لاينازع فيها مسلم ، وهي فوق البحث والحوار ، ولكن هناك اعتبارات يمكن أن ينظر إلى القرآن من خلالها ، بعد التسليم بالحقيقة السابقة ، وبعد مراعاة أن اللسان في هذا الحديث مجرد رمز وأداة لما يعنيه السياق ، وما يعتمد عليه الموضوع من البلاغة والبيان ، والحجة والمنطق ، وسائر ماتقتضيه المحاورة بمدلولها الذي قلنا إن فيه بسطة وتوسعاً دعا إليه احتياج الموضوع إلى الشمول والإحاطة ، حتى لاينحصر في جانب واحد ، أو صورة واحدة من صور تبادل الكلام بين الطرفين .

وبعد ذلك التسليم ، وهذه المراعاة نقول إنه من اعتبارات الموضوع الجانبية مايأتي :

١ ـ القرآن الكريم نزل بلسان النبي صلى الله عليه وسلم أي باللغة العربية (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً) [١] وكذلك عن القرآن (وهذا لسان عربي مبين) [٢] وهذا يتضمن إبرازاً لأهمية اللسان ودوره ، ولانعني مجرد ورود ذكر اللسان ، وإنما نعني أن التركيز الواضح في هذين الموضعين وفي غيرهما من الآيات على إبراز اللغة وعلى التعبير عنها باللسان ، يتضمن

(١) الآية ٩٧ سورة مريم .
(٢) من الآية ١٠٣ سورة النحل .

ولو إشارة إلى أن اللسان ولغته لهما دور فعال فى الدعوة وتأثيرها ، وهذا المعنى هو مايعنينا أن نصل إليه فيما يتعلق بالمحاورة ، وفى أن نفهم لماذا يوليها القرآن الكريم اهتمامه إلى الدرجة التى قد تبدو من خلال ماتستقبل من الحديث .

٢ — القرآن معجزة الله الخالدة إلى يوم القيامة (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً [١]) والذى يثير الاهتمام فى هذا أن معجزات الأنبياء السابقين كانت مادية محسوسة كما هو معروف ، لأنها معجزات موقوتة بزمن محدود ، وفى مكان محدد ومنسوبة ولو فى الظاهر إلى شخص النبى ، ولأنها أيضاً كانت فى وقت لم تكن البشرية فيه قد نضجت ،أولم يكتمل نضجها أما القرآن فهو على العكس من ذلك كله ، هو معجزة عامة فى الزمان والمكان للبشرية كلها ، وللأزمان كلها ، وليست منسوبة إلى شخص النبى ، وإنما تنسب إلى الله مباشرة ، حيث إنه كلام الله ، أما المعجزات السابقة فيمكن نسبتها ولو ظاهراً إلى شخص النبى ،فيقال عيسى يبرئ الأكمه والأبرص مثلا ، ولايقال هذا كلام محمد . وكذلك من حيث نضج البشرية ،كانت البشرية عند نزول القرآن قد نضجت ،وهى مستمرة فى النضج العقلى والثقافى ، وهذا كله واضح وغير جديد على قارئ ولكن إثارة الاهتمام تتركز فى تساؤلنا : مع أن القرآن يسمو على المعجزات كلها سموا عظيما بجانبين ، أحدهما انتسابه مباشرة إلى الله ، والآخر خلوده على مر الزمان . فلماذا مع هذا السمو اختير الكلام

(١) الآية ٨٨ سورة الاسراء .

ليكون هو المعجزة الخالدة ، والمنسوبة إلى الله مع أن الله لايغلبه أن يصنع معجزة مادية محسوسة تنسب إليه وتبقى بقاءا الزمان ؟ ودون الإفاضة فى الجواب ، نقول إنه مهما تعددت الإجابات فلابد أن يكون من بينها تمجيد العقل والحجة ، والإشارة إلى أن الدين الذى يكتب له البقاء السليم ، لابد أن يعتمد على العقل والحجة ، والعقل والحجة عماد المحاورة .

وإذن فالمحاورة تحمل أعمق وأقوى مايحتاج إليه دين أو دعوة ليكتب لأى منهما البقاء السليم .

٣ - مع أن القرآن يمكن اعتباره وسيلة وأداة أعطيت لمحمد صلى الله عليه وسلم للمعاونة على نجاح رسالته ، إلا أن حكمة الله اقتضت أن يكون القرآن كيانا متكاملا ومستقلا ، وليس مجرد أداة أو وسيلة ، فأدنى التدبر فى القرآن الكريم بالنظرة الكلية ، يظهرنا على أن القرآن احتشدت فيه كل وسائل الدعوة الكاملة وأساليبها وأسلحتها معا . حتى كأن القرآن نفسه داعية كامل الاستعداد ، والتهيؤ للدعوة ، والقدرة عليها ، وعلى صراع من يعاندها ويتحداها وهى ملحوظة مع قربها من الأفهام إلا أنها قد تحتاج إلى شىء من البسطة فى القول للتوضيح ، وليس هنا مجال هذه البسطة ، ولكننا نستطيع إيجاز القول فى أنه يمكن أن نتخيل القرآن وليس فيه إلا توضيح شريعة الإسلام ومبادئها وحدودها ونحو ذلك ، ويكون مع هذا كتاب دين لانقص فيه ، ولكن القرآن أتى بهذا وافياً كل الوفاء ، وزاد على ذلك صنوفاً لايمكن لعقل أن يحصيها ، من سرد أخبار السابقين مؤمنيهم وكافريهم ، لاستنباط العبرة منها ، ومن

التفنن في تصوير نفسيات أعداء الله ومسالكهم ، ثم تصوير مايلقونه من جزاء في الدنيا والآخرة ، مقابلا بجزاء المؤمنين ، ومن صراع مع كل لون من ألوان الكفر والنفاق ، ناصباً حرباً كاملة الأدوات النفسية والمادية لكل نوع من هذه الأنواع ، مختاراً من الأسلحة مايناسب كلاً منها ، وهكذا في كل ميدان ، وصدق الله حيث يقول عن نحو هذا (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا)[1] ومن بين هذه الصنوف التي حفل بها القرآن الكريم نجد لوناً بارزاً واضحاً ، هو أسلوب الحوار والحجة . فالقرآن يعتمد اعتماداً أساسياً ، وفي مواضع كثيرة جداً على أن يتصدى لأعدائه بالحوار والمحاجة المباشرة حيناً وعلى ألسنة الأنبياء والمؤمنين السابقين حيناً آخر ، بل تلمس من حرص القرآن على إبراز أهمية المحاورة والمحاجة أنه لايقصرها على مهاجمة الأعداء والتصدى للمخالفين ، وإنما يجعلها في كثير من المواضع نماذج للتربية والتعليم والتوجيه ، كالحوار بين إبراهيم وابنه الذبيح ، وبين موسى وأخيه هارون ، وبين موسى وأستاذه الخضر ، وبين مريم وابنها الرضيع . بل وبين الله سبحانه وملائكته ، كحوار الله سبحانه مع الملائكة في قصة خلق آدم عليه السلام (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا

---

(١) الآية ٨٩ من سورة الاسراء .

إنكَ أنتَ العليم الحكيم . قالَ ياآدم أنبئهمْ بأسمائهمْ فلمَّا أنبأهم بأسمائهِمْ قالَ ألمْ أقل لكُم إنى أعلَمُ غيبَ السَّمواتِ والأرض وأعلَمُ ماتبدُونَ وماَ كُنتمْ تكتمُونَ) [1] وليس غريباً أن يولى القرآن الحوار كل هذه الأهمية ، فإن الحوار بالحجة هو الطريق الأمثل ، بل الوحيد للإقناع العقلى ، والإقناع أساس الإيمان إن لم يكن الإيمان نفسه . وأى دين أو مذهب لابد لاعتناقه من اقتناع . وإذن فالحوار له هذه الأهمية فى الدعوة إلى أى دين أو مذهب .

---

(١)الآية ٣٠ ــ ٣٣ سورة البقرة .

طبيعة الحوار فى القرآن الكريم

ليس المراد من هذا العنوان إفراده بالحديث عن الخصائص الفنية للحوار فى القرآن ، فان لهذه الخصائص مواضعها من الكتاب مقترنة بنوع المحاورة التى تمثله .

وإنما نعنى به محاولة إبراز ماتوحيه نظرة فيها شىءٌ من شمول ننظر بها إلى أنواع المحاورة فى القرآن الكريم بوصفها كلا ، وليس إلى كل نوع على حدة : ومن خلال هذه النظرة التى تحاول شيئا من شمول نتبين مايأتى :

١ ــ التنوع :

حيث نلحظ أن الحوار فى القرآن الكريم لم يقتصر على نوع معين كالعقيدة أو الدين عامة ، بل شمل كل أوجه الحياة دينية كانت أو اجتماعية أو سياسية أو غير ذلك ، كما سبقت الإشارة آنفا ، وكما سنستقبل من هذه الأنواع بعون الله . ومعنى ذلك أن المحاورة لم تأت فى القرآن عرضا ، ولم يستدعها سياق أو غرض معين ، وإنما هى غرض أساسى من أغراض القرآن وأسلوب محدد من أساليبه التى يهدف بها إلى تحقيق أغراضه الشاملة لكل جوانب الإصلاح عامة ، سواء أكانت فردية أم جماعية .

٢ ـ الاعتماد على العقل :

وهو اتجاه واضح في كل أساليب محاورة القرآن الكريم وطبيعة هذا الاعتماد أن الأسلوب يتجه إلى إبراز الحجة والمنطق العقلي ، ويتابع التسلسل المنطقي مهما بلغ من صور الافتراضات التي تتنافى مع أسس القرآن ، حتى إننا نجد الله تبارك وتعالى ذاته يوجه نبيه في حواره مع المشركين إلى أن يفترض لهم أن هناك آلهة أخرى مع الله ، ثم يحاورهم كيف تكون النتيجة : (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا [1]) كما يقول سبحانه (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا [2]) وهكذا تجد أسلوب المحاورة في القرآن يعتمد على العقل المجرد ـ أثناء المحاورة ـ من التأثر بأي عامل أو مؤثر خارج المحاورة ، وهو أقصى ما يمكن أن يطلبه أو ينتظره مفكر يدعي الحرية في فكره . أو باحث يدعي التجرد من التعصب والانحياز ، وقد ضرب إبراهيم عليه السلام أمثلة باهرة في هذا المجال ، كما تراه في افتراض تجرده من النبوة ، بل من الإيمان في حواره مع الله (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) [3] فإبراهيم يفترض في هذا الحوار أنه غير نبي وغير مؤمن ، وجوابه لله سبحانه أنه قد آمن في قوله (بَلَى) هو تقرير للواقع من أنه مؤمن حقيقة ، ولكن هذا لا يتعارض مع تجرده الافتراضي من اللبس أثناء المحاورة ، ويدل عليه قوله (لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) لأن قلب النبي والمؤمن لابد أن

---

(١) من الآية ٤٢ سورة الاسراء .
(٢) من الآية ٢٢ سورة الانبياء .
(٣) من الآية ٢٦٠ سورة البقرة .

يكون مطمئنا ، ولكن ذلك لايمنع من افتراض عدم الاطمئنان ، بل وعدم الإيمان أو النبوة أثناء المحاورة ، ولئن كان يبدو فى هذا شيء من غرابة وتساؤل ، فالجواب أنه منهج إبراهيم الذى يضرب مثالا لايلحق فى مقدرته الخارقة على المحاجة والمحاورة والافحام كما سترى فى حديثه الخاص به ، بل بلغ بإبراهيم التجرد فى محاورته مع المشركين الذين يعبدون الكواكب ، أن افترض فى حواره أنه يعبد كوكبا مثلهم ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ (١) وغرض التجرد نفى وجود أى مؤثر على المحاور غير العقل ولسنا نريد الخوض فى هذه التفاصيل التى لاتقصد لذاتها ، وإنما للتمثيل بها على أن المحاورة فى القرآن طابعها الاعتماد على العقل ، ومتابعة هذا الاعتماد إلى أي مدى عقلى تحتاجه المحاورة ، ولو كان خروجه مفترضا على أهم أسس القرآن نفسه ومبادئه ، وهو معنى كبير وعميق ، وذو دلالات كثيرة ، منها تمجيد الاسلام الواضح للعقل ومنها ثقة الاسلام فى رسوخ مبادئه وموافقتها لكل العقول .

٣ ـ انصاف الخصم :

ومن السمات الواضحة فى محاورة القرآن الكريم المحافظة على حق الخصم وانصافه من كل وجه ، وسواء أكان المحاور الذى يمثله القرآن شخصا مؤمنا عاديا ، أم كان شخص نبى من الأنبياء ، بل حتى وإن كانت ذات الله سبحانه ، فالأمر واحد فى المحاورة ، وهو إبراز حق الخصم وإنصافه ، ونلحظ أن أوضح النواحى التى راعى منهج القرآن أنها من حق الخصم مايأتى .

(١) من الآية ٧٦ سورة الأنعام .

(١) التجرد من المؤثرات ، والاحتكام إلى حكم يرتضيه الطرفان كما أشرنا إلى شيء من ذلك آنفا ، فأما التجرد من المؤثرات فمثاله أن يحاور مؤمن كافراً في إثبات وجود الله ، فلو قال المؤمن للكافر أنا مؤمن بوجود الله ثم قال أي شيء بعد ذلك ، فليست هذه محاورة بل هي إلزام للخصم ، أو هي محاورة فاشلة ، لأنه أعلن أنه مخالف لخصمه من أول خطوة في طريق المحاورة ، وكذلك لوقال له الله قال كذا أو الرسول قال كذا لأنه لايؤمن بالله ولا بالرسول ، وإنما المحاورة المنطقية السليمة أن يتجرد كل من الخصمين أثناء المحاورة من عقيدته افتراضا ، ومن انتمائه إلى أي شيء يؤثر عليه فيما يتعلق بموضوع المحاورة ، كما افترض إبراهيم أنه مشرك مثلهم ، يعبد كوكبا كما يعبدون : وأما الاحتكام إلى حكم يرتضيه الطرفان ، فذلك أمر طبعي أن يختصم الطرفان إلى قاض يرتضيانه ليحكم بينهما ، ولكن هذا إنما يحدث في الخصومات الدنيوية أما الخصومة الدينية فلا يتصور فيها قاض مرتضى من الطرفين ، لأن القاضي إما مؤمن وإما كافر ، وليس بينهما وسط ، وفي كلا الحالين فهو منحاز لأحد الطرفين . ولذلك لم يكن هناك حكم في خصومات الدين إلا العقل ، لأنه قدر متفق عليه وعلى حقائقه بين الناس جميعاً ، فهو إذن متفق عليه ، ومرضى عنه من الطرفين ، ولذلك نجد القرآن الكريم يركز دائما ، وفي كل محاوراته في الدين على جعله الحكم مهما يكن الطرف المحاور الذي يمثله القرآن ، ولو كان ذات الله سبحانه لأن الأمر حينئذ لاينظر فيه إلى أشخاص المحاورة ، وإنما إلى عدالة الموقف ، فما دام القرآن يرتضي إقامة محاورة ، فهي محاورة في

قمة المثالية بصرف النظر عن شخص المحاور ، كما أن القاضي يجب أن يحقق العدالة ، مهما تكن أشخاص المتخاصمين .

(ب) حماية الخصم أثناء المحاورة : فمهما يبلغ الخصم المحاور من الضعف فى رأيه أو فى كيانه ، نجده فى محاورة القرآن محمياً لاينااله أذى ولاتسفيه ولاتحقير ، ومن بابه قول مشرعى القانون (المتهم برىء حتى تثبت إدانته) فطرفا المحاورة قد اتفقا ولو ضمنا على افتراض تجردهما من العقيدة والانتماء خلال المحاورة ، وهذا يقتضى ألايوصف أحدهما بأنه مخطىء أو مصيب إلا بانتهاء المحاورة فالإساءة إلى أى من طرفى الخصومة قبل انتهاء المحاورة ظلم له ، ولذلك نجد الخصم فى محاورات الدين فى القرآن الكريم مصوناً من الأذى حتى يصدر عليه الحكم ، ومثال ذلك هذا الذى يحاور فى الله مدعياً إنكاره أو إنكار مقدرته على بعث الموتى ، وكيف يوجه الله نبيه إلى محاورته فى غير إيذاء ، بل فيما يشبه عتاب الود والتقريب (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون) [1] .

(جـ) إعلان المساواة للخصم ، وهى درجة أعلى من حماية الخصم أو عدم إيذائه ، حيث نلمس فى محاورات القرآن إشعار الخصم بوضوح أثناء المحاورة ، بمساواته مع محاوره فيما يتعلق بهذا الحوار ، وهذا أقصى مايمكن من عدالة تمنح للخصوم ؛ حين يشعر الخصم أنه مساو لخصمه ، وأن خصمه هو الذى يشعره بذلك ،

(١) الآيتان ٧٨ ، ٧٩ سورة يس .

رغم أن كل الملابسات توحي بغير هذه المساواة ، ومثال ذلك أنه مع اليقين بأن النبي على حق ، وأن مجادليه هم على الباطل ، إلا أن الله يوجهه إلى افتراض التجرد من ذلك ، وإشعارهم بالمساواة معه ، فى صورة افتراض أنه لايعلم أيهما على الهدى ، وأيهما فى الضلال أهو أم هم ؟ (قُل رَبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ[1]) بل نجد إنصاف الخصم فى محاورات القرآن يصل إلى حد إشعار الخصم كأنه المتفوق ، وكلا الأمرين نجده فى مثل هذه الصورة من إنصاف الخصم (قُلْ من يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّموات والأَرْضِ قُلِ الله وإنَّا أَوْ إيَّاكُمْ لَعلى هُدًى أَوْ فِى ضَلال مُبين ، قُلْ لا تُسْأَلُونَ عمَّا أَجْرَمْنا ولا نُسْأَلُ عمَّا تَعْمَلُونَ ، قُلْ يجْمَعُ بيْنَنَا ربُّنَا ثُمَّ يفْتَح بيْنَنَا بالحقِّ وهُو الفَتَّاحُ العليم[2]) فأعلن لخصومهم حق المساواة الجدلية ، فى افتراض أن كلا الطرفين يمكن أن يكون على حق ، وأن يكون على باطل (لَعلىَ هُدًى أَوْ فى ضَلال) ثم زاد عى هذه المساواة أن افترض صدق الخصوم ، وصحة رأيهم ، ورأى الخصوم أن عملهم وموقفهم من الدين صحيح ، أما عمل المؤمنين وموقفهم فباطل وإجرام ، فالقرآن يسلم لهم جدلا أو افتراضا أن المشركين على حق ، وأن المؤمنين مجرمون ويعلن إليهم هذا على لسان الرسول (قُلْ لا تُسْأَلُونَ عما أَجْرمنا ولاَ نُسْأَلُ عما تَعْمَلُونَ) .

ومن هذا القبيل فى إنصاف الخصم ، افتراض صحة أمانيه . وتوقع حسبانه (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إن أَهْلَكَنِىَ الله ومن مَّعِى أَوْ رَحِمنَا فَمَن

(١) من الآية ٨٥ سورة القصص .
(٢) الآيات ٢٤ ــ ٢٦ سورة سبأ .

يُجِيرُ الكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) [1] ويصرح القرآن لخصوم المحاورة بالمساواة داعيا إياهم إليها (قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [2] فهو يدعوهم إلى أمر لايتميز فيه أحدهما عن الآخر فى شىء .

٤ ـ تحديد الغاية وتوضيحها :

يهتم حوار القرآن الكريم بإبراز الهدف الذى تدور حوله المحاورة مع التركيز الشديد على أن يكون الهدف واضحا ومحددا ومقبولا من النفوس والمشاعر بعد اجتيازه مرحلة القبول العقلى ، حيث إن هذه النقطة التى نتحدث عنها توقيتها بعد انتهاء المحاورة وإظهار الحق إما مع تسليم الخصم به ، وإما مع إفحامه وعجزه عن متابعة المحاورة ، وفى حالة التسليم يغلب أن يعترف الخصم بالحق وأن يعتنقه ، وأما فى حالة الإفحام والعجز عن متابعة المحاورة ، فالغالب أن يبقى الخصم على خصومته ، ولكنه يعلن هزيمته صراحة أو ضمنا بعجزه عن مواصلة المحاورة ، مما يسببه مايسمى فى عرف الملاكمة (الضربة القاضية) والشبه بين مهزوم المحاورة ومهزوم الملاكمة بالصورة المشار إليها واضح بارز على غرابة الجمع بينهما فى تشبيه ، فكلاهما عجز ، غاية الأمر أن أحدهما عجز معنوى ، والآخر عجز حسى ، أو أحدهما عجز نفسى وعقلى ، والآخر عجز جسدى .

---

(١) الآية ٢٦ سورة الملك .

(٢) الآية ٦٤ سورة آل عمران وكلمة سواء أى نستوى فيها نحن وأنتم .

٥ ــ الرفق بالمهزوم :

وحديثنا هنا عما يلى هذه المرحلة ، مرحلة انتصار القرآن أو من يمثله فى المحاورة ، وهزيمة خصمه .

عندئذ نقول إن الملحوظ فى محاورات القرآن احتفاظها دائما بالرفق بالخصم فى كل الأطوار ، ففى طور المحاورة نفسها رأينا كيف يرفق القرآن بالخصم ويحميه من الأذى حتى تنتهى المحاورة ثم تعلن النتيجة ، ومن حق الخصم العادى حينئذ أن ينال من خصمه ومقوماته ، ولو فى سياق الإشادة بنصره هو ، أما القرآن فنلحظ فيه التركيز على إعلان النتيجة وإبرازها ، لأنها محور الخصومة ، وإعلانها فى صورة الإعلام والنشر الذى يستهدف أن يكون فى أوسع نطاق ممكن هو هدف مقصود للقرآن ، وهو نشر الدين نفسه ، فإن نتائج محاورات القرآن هى الدين نفسه . أما الخصم ذاته فنحس أن محاورة القرآن لاتهدف إلى النيل منه أو إيذائه حتى بعد إعلان خطئه ، وسوء موقفه فى المحاورة ، وقد يلتمس لذلك أكثر من سبب ، فمن ذلك أن القرآن لايعنى كثيرا بالأشخاص كثروا أو قلوا ، إلا بمقدار اعتراضهم طريق نشر الدين ، أما أشخاصهم ذاتها ، أو خصومتهم لنفسها ، فالقرآن أكبر من أن يوليها اهتماما شديدا ولذلك نجد مهاجمة القرآن للأشخاص يتضح فيها التركيز على اعتراضهم طريق الدين ، ولو كان هذا التركيز بطريق غير مباشر ، وقد يكون من هذه الأسباب أن القرآن ليس إلا داعيا إلى الله ، فهو يريد أن يجذب كل الناس إليه ، بما فيهم هؤلاء الخصوم وإيذاء هؤلاء الخصوم قد يزيدهم بعدا عنه بينما هو يريد أن يقربهم إليه ، وهناك احتمالات كثيرة للأسباب ، ليس يعنى هذه الفقرة أن تفيض فيها

ومن أمثلة ذلك محاورة إبراهيم مع المشركين من عبدة الكواكب ، وتدرجه العقلى والنفسى معهم حتى وصل إلى تقمصه عبادة الشمس معهم (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ) ثم يصل إلى النتيجة حين كان قد وصل إلى اعترافهم واقتناعهم بأن الإله لايغيب ، ولاينبغى أن يغيب . وإذا الشمس التى يعبدها معهم افتراضاً على أنها الإله تغيب ، فيبرز حينئذ النتيجة والتعقيب عليها وتوضيحها (فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى برىء مِمَّا تُشْرِكُونَ ، إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ حنيفاً وما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [1] وفى إشارة عابرة لايقصد منها إلى البسط والتحليل ، نقول : فلننظر فى التركيز على النتيجة كيف أن إبراهيم فى هذه الكلمات الموجزة راعى كثيرا من النواحى ، ومن ذلك :

١ - المحافظة على صلته بالخصوم وتقريبهم إليه بقوله « (يَاقَوْمِ) أملا فى كسب إيمانهم .

٢ - أعلن الحكم على عبادتهم للكواكب ، وهو إنها شرك (مِمَّا تُشْرِكُونَ) .

٣ - أعلن استنكاره لهذا الشرك (إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكون) .

٤ - بين لهم البديل الصحيح الذى يجب أن يتجهوا إليه بدل الشرك ، وهو الإيمان بالله (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض) .

٥ - بين لهم قدراً كافيا من مزايا الإله الواحد الذى يدعوهم إليه ويكفى أنه (فَطَرَ السَّمواتِ والأرضَ) .

---

(١) الآيات ٧٣ — ٨١ سورة الأنعام .

٦ – يخشى إبراهيم اللبس والتأويل ، كأن يقولوا نعبد الإله الذى تدعونا إليه ، ونعبد معه آلهتنا ، فيقول لهم إنه يأبى أى شرك مع الله (وما أنا مِنَ الْمشْركين) وكل هذا التركيز والتوضيح منصب على الغاية لإبرازها وتحديدها وتوضيحها ، ومن البدهى أن غاية المحاورة السابقة إثبات وحدانية الله ، وإبطال ماعداه من آلهة ، وهذا التركيز لايتجاوز الغاية المستهدفة ، وإنما يسلك كل سبيل لجعلها فى قمة الوضوح ولفت الأنظار منتهجا طريق المحاورة نفسها ، بمعنى أن التوضيح لايأتى مفتعلا ، أو استطرادًا ، أو إضافة وإنما يأتى مرتبطا بالمحاورة نفسها ، بوصفه جزءا منها ، ففى المثال السابق نجد التوضيح يأتى من صلب المحاورة من أكثر من وجه ، ومن هذه الوجوه أن ظهور الحق بانتصار أحد طرفى المحاورة هو فى ذاته إبراز لموضوع الخصومة أو المحاورة ، وقد انتصر المحاور المؤمن وفى هذا إبراز لحقيقة وحدانية الله ، وبطلان الشرك ، ولكن لما كانت هذه الغاية هى كل الهدف من المحاورة ، أعنى ليس فى هذه المحاورة ولا فى غيرها من محاورات القرآن هدف شخصى أو نفعى كالخصومة الشخصية ، أو استهداف مصلحة ذاتية أو غير ذلك من المألوف فى خصومات الناس ، وكانت العقيدة أو جانب الاصلاح الذى تستهدفه المحاورة هو كل الهدف ، لذلك يشتد التركيز على هذا الهدف ، ففى هذه المحاورة التى معنا ، مع وضوح الغاية من انتصار إبراهيم وإفحامه لمحاوريه ، إلا أنه يعاود التوضيح ، مصرحاً بما أشرنا إليه فى النقاط السابقة كقوله (إنِّى

بريءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) وقوله (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّموات وَالْأَرْضَ) . . .

٦ ـ تحديد الهجوم :

وليس معنى ماسبق أن الخصومة أو المحاورة كلها رفق ، فليس من طبيعة الخصومة أن تكون رفقا ، والذى يلتزم الرفق بخصمه ليس أهلا للفوز الدائم ، سواء أكان هذا فى حرب السيف أم فى حرب اللسان ، ولكن القوى حقا هو من يستطيع الحكمة فى معالجة خصمه ، وبخاصة فى الحوار بالذات ، وعلى الأخص فى حوار الدعوة عامة ، فقد أشرنا إلى أن الداعية المحاور لايستطيع أن يغفل عن أنه يهدف إلى كسب محاوره ليضمه فى دعوته ، وهذا مما يجعله يحافظ على جانب من حواره إن لم يكن ودا ، فهو شبيه بالود ، أو على الأقل المسالمة بينه وبين خصمه ، هذا جانب مما يراعيه محاور الدعوة لكن هنالك جانبا آخر تقتضيه طبيعة الخصام من حيث هو ، وهو جانب القوه ، فالقوة أمضى أسلحة الخصومة على الإطلاق وقد يتوسع فى مدلول القوةبأن يقال إن مظهر القوة فى المحاورة هو قوة الحجة ، كما أن قوة الطعن والضرب فى الحرب هى مظهر القوة ، وليس هذا التوسع فى الدلالة أو الفهم بالغريب ولابالمستنكر ، ولكننا نقول إنه مع ذلك أيضا ، فلابد من ارتباط القوة بشخص الخصم ، بمعنى أن يحس الطرف الآخر أن خصمه قوى ، وهذا الإحساس له أهمية كبيرة فى التأثير النفسى ، من حيث التمهيد لتحقيق مايهدف إلى تحقيقه الطرف القوى ، ولكننا نعود فنقول إن تحديد مظهر القوة ليس ثابتاً ولامتفقاً عليه ، وإنما يتفاوت

بتفاوت المحاورين أحيانا ، وبتفاوت موضوعات المحاورة أحيانا ، وبتفاوت الملابسات التى تحيط بالمحاورة أحيانا أخرى ، ولكن المهم أننا نرى محاورات الدعوة وقد اشتملت فى أغلب أحوالها على الجانبين ، جانب الرفق أو الموادعة مع الطرف الآخر ، وجانب إظهار القوة فى أى صورة يراها المحاور مناسبة للمقام ولشخصية خصمه .

وهذا ما نلحظه يغلب على محاورات الدعاة فى القرآن الكريم ، وأما تقييد المحاورة بأنها محاورة الدعوة ، فلأن محاورات غير الدعاة ليست فى أغلب حالاتها فى حاجة إلى إظهار القوة ، لأنها غالبا ليست بين خصوم ، وإنما بين كبير وصغير ، أعنى فى المنزلة والدرجة الاجتماعية وليس فى السن . كالمحاورة بين معلم ومتعلم ، مثل محاورة موسى مع معلمه الخضر ، أو بين أب وابنه كالمحاورة بين إبراهيم وابنه الذبيح ، أو بين رئيس ومرءوس ، كالمحاورة بين ملكة سبأ ومستشاريها وهكذا ، وليس هذا مكان هذه الأنواع من المحاورات حيث إنها تحتاج إلى حديث مستقل .

وأما اجتماع الأمرين ، الرفق والقوة ، فلأن موادعة الخصم تهدف إلى كسبه للدعوة ، أو عدم الإسهام فى نفوره على الأقل ، وإعلان القوة لهذا الخصم ، ليكون هذا عاملا أيضا من عوامل كسبه للدعوة وبهذا تكون محاورة القرآن قد استخدمت جانبى القياد ، أو فرعى العنان فبعض الناس يؤثر فيه اللين ، وبعضهم تؤثر فيه الشدة ، ولكن إذا اجتمع الأمران يكونان فى قمة التأثير ، والجمع بينهما يحتاج إلى حكمة ، ومن أولى بهذه الحكمة من أسلوب القرآن ؟

فمن اجتماع الأمرين فى تعبير واحد فى القرآن الكريم (فإنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسعة ولا يُرَدُّ بَأْسُهُ عن القَوْمِ المُجْرِمين)[1] فالمفترض أن هذه النتيجة جاءت بعد انتهاء محاورته مع خصومه من أهل الكتاب ، فقد كان المنتظر أن يسلموا له وأن يقتنعوا بعد ماساقه لهم قبل ذلك من براهين ، ولكن طبيعة اليهود عدم الاستجابة إلا لمنفعتهم وأهوائهم ، فلن يستجيبوا ، ولن يكتموا عدم الاستجابة بل يعلنون للرسول تكذيبه ، ومع ذلك لايسرع الرسول إلى مبادلتهم العداء وإنما يقدم إليهم الرفق أولا ، ويقدم إليهم رحمة ليست ضيقة ولاعادية (ربكم ذو رحمة واسعة) ولكنه مع ذلك يلوح لهم أخيرا بالقوة التى يرضخ لها من لاتجدى معه الرحمة الواسعة (ولايرد بأسه عن القوم المجرمين) .

ومن هذه الأمثلة الكثيرة فى القرآن الكريم (قُلْ أرأيْتُمْ إنْ أهْلَكَنِيَ اللهُ ومن مَعِى أوْ رحمنَا فَمَنْ يُجِيرُ الكَافرينَ منْ عذَابٍ أليم)[2] فبعد انتهاء المحاورة الطويلة ، التى أصروا فيها وبعدها على أن هذا النبى ومن معه من المسلمين ضالون ، وعليهم أن ينتظروا الهلاك ، لايغضب الرسول صلوات الله عليه ، ولايبادلهم مايقولون وإنما يرفق بهم ، ويسألهم مؤيداً لهم فى الجدال قائلا إذا افترضنا صدقكم فى اتهامنا بالضلال ، وأهلكنا الله أولم يهلكنا ، فما مصيركم أنتم ؟

---

(١) الآية ١٤٧ سورة الأنعام .
(٢) الآية ٢٨ سورة الملك .

والواقع أنكم معترفون بالكفر وعدم الإيمان بالله ، فمن ذا الذى يجيركم ويحميكم من عذابه ؟

فقد كانت الموادعة لهم ظاهرة فى الشق الأول ، مجاراتهم فى صدق ادعائهم ، ولكن إظهار القوة بالترهيب والإنذار كان فى الشق الثانى أشد وضوحا .

تأثير المحاورة

تبقى جوانب من الحديث تثير شيئا من تساؤل لتوضيحها ، ولكنها جميعا تتعلق بتأثير المحاورة بوصفها أسلوبا من أساليب البيان العربي الذى تعورف على تسميته الأدب ، ومن هذه الجوانب التى تثير تساؤل الاستيضاح ، الجانب الموضوعى للمحاورة ، حيث يستطيع السائل أن يقول : ومع كل ماسبق من الحديث عن طبيعة المحاورة ، لم يتضح الجانب الموضوعى لها ، فكيف نتبينه ، أو بصياغة أوضح ماالغرض الذى تهدف إليه محاورات القرآن الكريم ؟

والواقع أنه تساؤل فى صميم الموضوع ، ولذلك يستدعى بسطة فى القول لنصل إلى شىء من وضوح فى الإجابة ، ويمكن أن تصاغ هذه البسطة اليسيرة فيما يأتى :

١ ـ غنى عن البيان أن القرآن الكريم كله هدفه الدعوة إلى الله بصفة عامة ، بكل مايندرج تحت هذه الدعوة من جوانب الإصلاح فى العقيدة أو السلوك أو مايتعلق بهما ، وإذن فالمحاورات فى القرآن تدخل فى هذا الاطار من حيث إنها تتضمن موضوعا هو جزء من هذه الدعوة ، أو بمعنى أقرب ، كل موضوع المحاورة ، يتضمن جانب من هذه الدعوة .

٢ ـ ولكن القرآن الكريم من جوانب إعجازه أنه لايعتمد

على المعانى المجردة لضعف تأثيرها ، وسرعة انمحائها من النفوس وإنما يعتمد على تجسيد المعانى فى قوالب أو صور محسوسة . لإثارة اهتمام السامع بصورة أشد ، ولترسيخ المعنى وتثبيته فى النفوس ولذلك نجد القرآن يعرض عديداً من الأساليب البيانية ليصب فيها المعاني العادية ، ومثال ذلك الإيمان بالله ، فالقرآن يدعو مخاطبيه إلى توحيد الله فى الإيمان به ، وفى عبادته . ويوضح لهم هذا بالمعانى المجردة وضوحا بينا لالبس فيه (اعبدوا الله مالكُم مّنْ إلهٍ غَيْرُهُ[1] (قُلْ هُوَ اللهُ أحد)[2] وفى مواضع أخرى كثيرة من القرآن . ولكن القرآن لايكتفى بذلك ، فإن من طبيعة النفوس ألاتقف طويلا مع المعانى المجردة ، لأن تأثيرها غير شديد ، فقد يطلب من المرء أمر فلايستجيب له ، ثم يطلب منه هذا الامر نفسه بأسلوب آخر فإذا هو يستجيب ، لأن الأسلوب الآخر يحمل إثارة لمشاعره ، بأى صورة تلائم هذه المشاعر ، وقد تكون هذه الصورة من قبيل الترغيب فى أى لون من ألوان الإغراء والترغيب وقد تكون من قبيل الترهيب فى أى لون من ألوان التخويف والوعيد . فالإنسان تكوين عجيب من آثار قدرة الله القدير ، بعضه حيوانى لايختلف فيه عن أى دابة من دواب الأرض ، وبعضه ملكى يسمو فيه إلى طبيعة الملائكة ، وبعضه شيطانى ينزل به إلى حضيض الشياطين ، وبعضه خاص به هو ، وهذا البعض الخاص به فى صورته العملية يتركز فى شيئين ، أحدهما العقل بطابعه البشرى ، والآخر الإرادة التى توجه سلوكه

---

(١) من الآية ٥٠ سورة هود .
(٢) من سورة الصمد .

وتتحكم فى قيادة ، وفى كل الأحوال فالإنسان واقع تحت عوامل عديدة متنوعة ، بعضها عقلى ، وبعضها مادى ، أعنى تابع من ماديات الإنسان فى تكوينه ، وبعضها من المشاعر والانفعالات ، وهكذا .

والله العليم الخبير بتكوين الإنسان وطبيعته ، يريد أن يأتيه من كل جوانبه وزواياه ، حتى لاتكون له أدنى حجة ،بل يكون هذا زيادة فى إلزامه الحجة ، فقد كان يكفى أن يعرف الإنسان حقيقة أن لاإله إلا الله ، ليستجيب لهذه الحقيقة ، ولكن من آثار تعدد العوامل التى يتكون منها الإنسان ، والتى تؤثر فيه ، تجد أن الأقلية من الناس ، هم الذين تدفعهم المعرفة بهذه الحقيقة إلى الله . أما الأكثرية فلاتؤثر فيهم المعرفة ، وإنما تؤثر فيهم عوامل أخرى بعضها من قبيل الخوف ، وبعضها من قبيل الرغبة والآمال ، ولذلك كان من حكمة الله أن تمثلت أساليب القرآن فى كل هذه العوامل والمؤثرات ، لتطبق على الإنسان من كل زواياه ، لعلها تستطيع أن تقوده إلى الله فكان منها عامل المعرفة ، وهذا تخاطبه المعانى المجردة فى القرآن ، والتى تدعوه مباشرة الى الله كما مثلنا ، وكان منها عوامل الرغبة والمطامع والآمال ، فتخاطبه معانى الوعود الكثيرة التى يؤكدها القرآن للمؤمنين العاملين للصالحات ، سواء من هذه الوعود مايتحقق فى الدنيا كقوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون [1] وكقوله تعالى على لسان نوح (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم

---

(١) الآية ٩٧ سورة النحل .

جنات ويجعل لكم أنهارا [(١)] وكقوله تعالى « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . . . » [(٢)] وكقوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنّن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدّلنهم من بعد خوفهم أمنا ... [(٣)] أو مايتحقق من هذه الدعوة فى الآخرة ، كالآيات الكثيرة التى تصف الجنة وما فيها من نعيم ، من مثل قوله تعالى (وعد الله المُؤْمنينَ والمؤمنات جنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالدينَ فيهَا ومساكن طَيِّبَةً فى جنَّاتِ عدْنٍ ورِضْوانٌ منَ الله أَكْبَرُ ذَلكَ هُوَ الْفَوْزُ العظيمُ [(٤)] .

ومن العوامل التى يخاطبها القرآن في الإنسان ، عامل الخوف الذى يؤثر في الإنسان ، بأقوى مما يؤثر فيه أى عامل آخر ، وهذا العامل تخاطبه آيات كثيرة حافلة بالوعيد للكافرين ، سواء فى الدنيا والآخرة .

ومن العوامل التى يخاطبها القرآن فى الإنسان المشاعر والعواطف والانفعالات وسائر الوجدان فكل مشاعر الوجدان يخاطبها القرآن ، مشاعر الغضب ، مشاعر الرضا ، مشاعر الحزن ، مشاعر الفرح ، مشاعر الحب ، مشاعر السخط ، وهكذا . حتى انفعال الضحك يخاطبه القرآن ،

---

(١) الآيات ١٠ ــ ١٢ سورة نوح .
(٢) من الآية ٩٦ سورة الأعراف .
(٣) من الآية ٥٥ سورة النور .
(٤) الآية ٧٢ سورة التوبة .

كما يفعل فى أساليب السخرية ، التى تبعث على الضحك من المصورين بها كتصوير هذا الزعيم العريض المديد ، الذى يتيه على الناس بضخامته صاداً عن سبيل الله ، ولكن أهل مكة يجدون نفوسهم وقد فرغت من تهيبها له ، وامتلأت سخرية تثير الضحك ، حين يرونه مصوراً بهذه الصورة (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) (١) والوسم هو العلامة ، والخرطوم وإن كان اسما للأنف ، إلا أن فيه إشارة إلى التشبيه بخرطوم الفيل ، والصورة من هذه الزاوية تشبيه هذا الزعيم المهيب بفيل مكوى على خرطومه ، ليكون الكى علامة تميزه عن الفيلة ، ووعيد الله لهذا الزعيم المشرك بالكى على أنفه لايراد منه التعذيب ، فلدى الله من العذاب ماهو أشد ، وماهو أنسب من حيث التعذيب للكفرة ، ولكن المراد إثارة السخرية الباعثة على الضحك أو الاستخفاف ، لتكون أبلغ فى صرف الأتباع عن انقيادهم لهذا الزعيم فمهما وصف عذاب هذا الزعيم فى جهنم ، فلن يبلغ من نفوسهم ماتبلغه هذه العلامة على أنفه الشامخ الأبى .

ومن المشاعر التى خاطبها القرآن مشاعر النفور ، فالقرآن مثلا ينهى عن الغيبة وينفر الناس منها ، فينهاهم عنها (وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) وهذا عامل المعرفة (٢) ، التى كان يمكن أن يكتفى به لو أن الإنسان تحركه المعرفة وحدها وتؤثر فى سلوكه ، ولكنه لما كانت تحركه عوامل أخرى ، كان أقرب هذه العوامل حينئذ

---

(١) الآية ١٦ سورة القلم . ويروى أن المراد الوليد بن المغيرة .

(٢) أى معرفة أن الغيبة ينهى عنها الله ، لأن الآية مخاطب بها المؤمنون .

مشاعر النفور فى الإنسان ، فيجسم القرآن لهذا النهى صورة تنفر منها مشاعر كل الناس ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ... ﴾[1] فصورة الأكل من لحم الأخ ، ثم وهو جيفة ، تنفر منها مشاعر كل إنسان .

ومن الواضح أن القرآن لاتعنيه المشاعر لذاتها ، وإنما ليؤثر بها فى الناس ، فحيث كانت من مقاود الناس ، فإنه يحرص على أن يمسك كل المقاود ، ويخاطب كل المؤثرات التى توجه الإنسان وتؤثر فى سلوكه واتجاهه ، من عقله وغرائزه ومشاعره ، وسائر محركاته ، فإذاً جمع بعد هذا كله ، فهو إنسان شاذ على الفطرة السوية .

ونلحظ . أن هناك بعض الأمور ذات الأهمية الخاصة ، لايكتفى القرآن بعرضها على جانب واحد من جوانب التأثير فى الإنسان وإنما على جوانب عديدة ، كالعقيدة ، حيث تجد القرآن يوليها أكبر الاهتمام فى العرض ، لأنها محور الدين كله ، فيوضحها توضيحا شديدا بأساليب كثيرة تصاغ بالمعانى المجردة ، وما يدور حولها ، ولكنه لايكتفى بذلك ، وإنما يعرضها فى كل الأساليب التى تخاطب كل المؤثرات فى الإنسان ، فيصوغها فى قصص ، وهذه القصص تثير أحيانا التفكير ، وأحيانا تثير مشاعر وانفعالات مختلفة ، حسب طبيعة كل قصة ، وهى قصص كثيرة متنوعة كقصص الأنبياء مع أقوامهم ، وأحيانا قصص بعض الأنبياء مع ذات الله سبحانه كقصة إبراهيم فى محاورته ربه كيف يحيي الموتى[2] وقصة موسى

---

(١) من الايه ١٢ سورة الحجرات .

(٢) الآية ٢٦٠ سورة البقرة .

فى محاورته ربه أن يسمح له برؤيته [1] وقصة عيسى فى محاورة الله إياه ، هل طلب من الناس أن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله ؟ [2] وأحيانا يصوغ القرآن حقيقة العقيدة فى مثل يضربه ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [3] . وأحيانا فى صور مختلفة متعددة ، كل منها يخاطب جانبا من جوانب التأثير فى الإنسان .

ومن هنا نعلم أنه ليس فى القرآن تكرار كما يفهم من لفظ التكرار ، لأن القرآن لايكرر الموضوع بألفاظه ولابمعانيه كما هى ، وإنما يكرر الحقيقة والفرق كبير بين الحقيقة والمعنى ، فالحقيقة تشبه الفكرة أو الموضوع ، والمعنى يشبه العنصر أو الفقرة فى الفكرة أو الموضوع . ومثال ذلك العقيدة . فمن حيث هى حقيقة كلية ، يكرر القرآن الدعوة إليها كثيرا .

ومع ذلك لايعد هذا من الوجهة البيانية الأدبية تكرارا ، لأن القالب البيانى الأدبى ، يختلف فى كل مرة عن الأخرى ، واختلاف هذه القوالب أو الألوان ليس لمجرد تنويع الأسلوب ، وإنما لغرض أبعد من ذلك ، وهو مخاطبة كل عوامل التأثير فى الإنسان ، من عقله ، وغرائزه ، ووجدانه فحينما يعيد القرآن عرض هذه الحقيقة إنما يعيدها فى ثوب آخر ، وهذا الثوب مصنوع لغرض معين : هو التأثير فى زاوية من زوايا الإنسان .

---

(١) الآية ١٤٣ سورة الأعراف .
(٢) الآية ١١٦ سورة المائدة .
(٣) الآية ٤١ سورة العنكبوت .

والقرآن بهذا المعنى يعلو على كل أساليب الأدب من حيث التكرار فالتكرار لجوهر الفكرة غير معيب قط فى الأدب ، ولن يقول عاقل قط إن تكرار المدح بالشجاعة أو الجود مثلا معيب ، وإلا لتوقف الأدب عند جيل واحد ، ولم يتكرر بعد ذلك ، وإنما المعيب فى الأدب ، أن يعيد أديب ثوبا أدبيا ألبسه أديب سابق لمعنى من المعانى ، أما المعنى نفسه فهو متاح لكل الأدباء ، ينسج كل منهم عليه كما يشاء ، أو يلبسه كل منهم الثوب الأدبى الذى يراه ملائما . ولكن القرآن الكريم زيادة على كونه يجدد القالب أو الثوب الأدبى فى كل مرة يكرر فيها الحقيقة أو ماتسميها الفكرة ، زيادة على ذلك يراعى أن يكون لكل قالب أو ثوب أدبى هدف معين يرمى إليه ، بيما يكفى عند الأدباء مجرد التنويع فى عرض القوالب الأدبية .

ولئن كانت هذه البسطة قد طالت شيئا ما ، فلأنها فى صلب موضوع الكتاب كله ، ولأنها تمهد لأهم سؤال ينتهى إليه هذ التمهيد وهو : إذا كان لكل لون فى أساليب القرآن هدف معين ضمن أهداف القرآن فى جذب المدعوين أو السامعين ، فما هدف المحاورة بوصفها لونا من أساليب القرآن ؟ ويمكن أن يصاغ هذا السؤال من الكلام السابق مباشرة ، فيقال : إذا سلمنا بما سبق ، وهو أن كل أسلوب من أساليب القرآن يخاطب جانبا من جوانب التأثير فى الإنسان لجذبه إلى دعوة القرآن ، فما الجانب الذى يخاطبه أسلوب المحاورة ؟ والسؤلان مؤداهما واحد ، حيث يلتقيان فى الفقرة الأخيرة من السؤال الثانى .

وفى محاولة الإجابة عن هذا السؤال نقول : إن المحاورة تخاطب

فى الإنسان أكثر من جانب ، ويمكن عرض أبرز هذه الجوانب فيما يلى :

١ ــ المحاورة تخاطب الجانب العقلى فى الإنسان من جهتين إحداهما عرض الحقيقة نفسها ، وهو موضوع للحاورة ، كالعقيدة مثلا ، وهذا قدر يتساوى فيه أسلوب المحاورة مع كل الأساليب حيث إن لكل أسلوب موضوعا أو فكرة ، وعندئذ يتاح لعقل السامع أن يفكر فى هذه الحقيقة بعقله ، والجهة الأخرى المباراة بين المتحاورين ، والصراع العقلى الذى يدور بينهما ، والحجج التى يتحاوران بها ، وكل ذلك يستدعى من السامع أن يشحذ عقله ونشاط ذهنه ، ليتابع هذه المباراة ، إما متقمصا شخصية الحكم ، وحينئذ يشحذ عقله لإيجاد الحكم ، وإما منحازا إلى أحد الطرفين وحينئذ يجهد عقله للبحث عن حجج يدعم بها موقف المنحاز له وأما مجرد مشاهد لهذه المباراة . ومع أن هذه أضعف وسائل التنشيط الذهنى إلا أنها على أيسر الفروض ستجعله يستخدم عقله لاستيعاب الصراع العقلى ، والحجج المتبادلة ، ليحقق لنفسه المتابعة الصادقة والاستمتاع بالتبارى بين طرفى المحاورة ، ثم التخمين بفوز أحد الطرفين ، وفى كل هذه الأحوال تجد السامع قد أيقظ عقله و[illegible] للتفكير فى موضوع المحاورة ، وفى الصراع الذى يدور حول هذا الموضوع ، واستخدام العقل عامة ــ فضلا عن شحذه ــ من أهم أهداف القرآن الكريم فى كل أساليبه .

٢ ــ المحاورة تخاطب جانبا آخر ، وهو جانب الغرائز ، حيث تخاطب غريزة من أسمى غرائز الإنسان ، لقربها من العقل ، ولصوقها بالمعرفة ، وهى غريزة حب الاستطلاع ، فأما لصوقها بالمعرفة ، فلأن كل ما يستطلعه الإنسان ويقف على حقيقته فهو

إضافة جديدة إلى معارفه ، مهما صغرت هذه الإضافة ، وأما مخاطبة أسلوب المحاورة لحب الاستطلاع فى الإنسان ، فمن ناحية اشتمال المحاورة على طابع القصة فى أقوى حالات إثارتها ، وهى حالة تصارع قوتين ، فإن هذا الجانب يكون غالبا أقوى جوانب القصة إثارة لحب الاستطلاع ، ومتابعة ماينتهى إليه صراع هاتين القوتين ، وإذا كانت هناك لفتات جانبية فى هذه الملحوظة ، فمن هذه اللفتات أن المتابع لصراع قوتين فى أى قصة ، يكون غالبا منحازا بعواطفه ومشاعره من حيث لايقصد مع القوة الأساسية فى القصة أو مع الجانب الأقوى منهما ، وهو مايعبر عنه فى اصطلاحات القصة ببطل القصة ، فالمتابع للقصة يكون غالبا منحازاً لموقف البطل بمشاعره وعواطفه ، وان كان مخالفا له بعقله ومنطقه ، وهذا جانب له مراعاة غير هينة فى أسلوب محاورات القرآن ، فإن المؤمن أو المصلح بصفة عامة ، هو دائما بطل المحاورة ، أى القوة الأساسية فيها ، وحينئذ يسرى عليها الحكم أو الوضع العام ، وهو أن موقف (بطل) المحاورة ، الممثل للدين ، سيكسب عواطف السامعين ومشاعرهم أو شيئا من هذه العواطف ، وإن كانوا مخالفين له فى الدين ، وهو كسب غير يسير ، فإن الدين لايقوم على العقل وحده أعنى أن العقل ليس هو الدافع الوحيد للدين ، بل المشاعر والعواطف عنصر أساسى فى الاتجاه إلى الدين ، وهو معنى غير غريب ولاجديد . فالحق قد يكون واضحا فى عقول جماعة من الناس كلها ، ولكن بعضا منهم هم الذين يلقى الله فى قلوبهم مشاعر السكينة ويقظة الوجدان ، فهم الذين يتجهون إلى الله . وفى كل

حال فإن أسلوب المحاورة يقرع غريزة من غرائز الإنسان ، مثيرا بها جوانب من شأنها أن تسهم فى جذب السامعين إلى الله .

٣ - وهناك الجانب الثالث من جوانب المؤثرات فى سلوك الإنسان وهو جانب المشاعر والانفعالات فإن أسلوب المحاورة من شأنه أن يثير مشاعر الإنسان وانفعالاته ، ومع صرف النظر عن أن محاورات القرآن تشتمل على كثير من الأحداث التى تثير مشاعر السامع وانفعاله ، كمحاورات موسى مع فرعون الطاغية ، وما يثور فى نفس السامع لهذه المحاورات لأول مرة من خوف على موسى أو توقع لما يصدر من فرعون ، وكذلك محاورات السحرة مع موسى وتصميمهم على هزيمته ، وشعور موسى بالخوف من مقدرتهم العجيبة فى السحر ، وما يثيره هذا فى نفس السامع للمحاورة لأول مرة ، وكذلك محاورة هؤلاء السحرة بعد أن آمنوا ، حين صب عليهم فرعون فى حواره كل رهبة ووعيد ، وصمودهم المستبسل فى سبيل الله ، مع ضعفهم بجوار قوة فرعون ، وما يثيره كل هذا فى نفس من يسمع هذه المحاورة أول مرة ، وكذلك محاورات إبراهيم مع قومه وما تثيره من انفعالات شتى فى نفس سامعها لأول مرة ، كانفعال الطرافة والمرح ، حين يشعر السامع أن إبراهيم قد استطاع التغرير بهم حين زعم لهم أنه يعبد معهم هذه الكواكب وكلما رأى كوكبا منها يقول لهم (هذَا ربِّى)[1] وكانفعال الإعجاب والاستطراف معا حين يرى هذا الفتى الوحيد يجرؤ على تحطيم أعظم مايملك قومه فى نظرهم ، وهم الآلهة ، ثم ما يصنع هذا المنظر

(١) من الآية ٧٦ سورة الأنعام .

الطريف حين يترك كبير هؤلا الآلهة ، بعد أن يعلق المعول فى كاهله ، لحاجة فى نفس إبراهيم ، وكانفعال الخوف الذى يثور فى نفس السامع لأول مرة حين يسمع أن قوم إبراهيم قد أوقدوا نارا هائلة ، وجاءوا به ليلقوه فيها ، ثم انفعال التعجب ، حين يسمع أن إبراهيم قد ألقى فى هذه النار الهائلة ، وإذا هو يخرج منها حيا معافى .

وكذلك محاورة إبراهيم مع ابنه الذبيح ، وما تثيره من انفعال الرحمة والاشفاق البالغين ، حين يسمع سامع المحاورة لأول مرة أن أبا يضجع ابنه ليذبحه بسكين ، وابنه مستسلم يقول له (سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ [1] .

ونعود فنقول إنه مع صرف النظر عن اشتمال المحاورات على أحداث تثير الانفعال والمشاعر ، فإن المحاورة من حيث هى وباعتبارها على أدنى الفروض مباراة وتنافسا بين طرفين ، فإن هذا التبارى من شأنه أن يثير لذاته انفعال المشاهدين للمباراة ، والسامعين لحكاية هذه المباراة ، وهذا شئ فى طبيعة النفس أن يثيرهم ويشد انتباههم الصراع بين قوتين ، وقد تلتمس لذلك الأسباب ، ولكننا لانريد أن نجنح إلى الاستطراد ، وإنما يعنينا أنها حقيقة لايكاد ينازع فيها ، أن الصراع يثير مشاعر المشاهدين أو السامعين ، ولذلك عمد الناس فى كل أزمانهم وبيئاتهم إلى اختلاق صنوف شى من الصراع ، سواء أكان صراعا قتاليا ، كمبارزات السيوف المعروفة من أقدم الأزمان ، أم صراعا رياضيا ، كمبارزات الرياضة الجسدية

---

(١) من الآية ١٠٢ سورة الصافات .

المعروفة أيضا من قديم ، والتى تفنن الناس فيها حتى صنعوا التبارز بين كل أعضاء الجسم ، كمباريات الكرة ، والملاكمة ، والمصارعة وهلم جرا ، بل بلغ من ولع الناس بالتبارى والانفعال له ، أن دربوا كثيرا من صنوف الحيوان حتى الديكة ليقيموا بينها مباريات يمتعون مشاعرهم وانفعالاتهم بها ، ومن هذا القبيل أيضا ولع الناس فى فى كل العصور بالمباريات الكلامية ، كالمبارزات فى الهجاء بين الشعراء ، حتى إنهم كانوا إذا لم يجدوا خصومة أدبية يمتعون بها انفعالهم اختلقوا خصومة وهمية ، كالمناظرات الأدبية التى كانت تعقد بين الأدباء ، على ألسنة الحيوانات أنفسها ، أيها أنفع : الجمل مثلا أم الفرس ، أوبين الجماد كالمناظرات بين السيف والقلم ، وهكذا . وإذن فالتصارع والتبارى من حيث هو ، يثير مشاعر الناس وانفعالهم ، ولاشك أن المحاورة نوع من التبارى بين خصمين ، أو طرفين ، وحينئذ يبدو لنا جانب من حكمة أسلوب المحاورة ، وهو كسب انفعال السامعين ومشاعرهم ، ليكون هذا جانبا من جوانب جذبهم إلى الله .

وما سبقت الإشارة إليه من حيث التكرار ، يمكن أن يثار هنا أيضا ، فى صورة تساؤل عن الهدف من تكرار المحاورات فى القرآن ، وللرد على هذا التساؤل نقول إننا قد انتهينا فى الإشارة السابقة إلى أن القرآن لايكرر المعانى الفرعية ، وإنما يكرر الحقيقة أو مايسمى فى الأدب الفكرة الكلية أو الموضوع ، وعندئذ نقول إن المحاورات التى يكررها القرآن ، هى ذات الحقيقة الكلية الهامة ، كالمحاورات فى العقيدة ، فإن العقيدة أساس الدين كله ، وكل

باقي الدين جملة أو تفصيلا إنما يرتبط بالعقيدة ، إما مباشرة وإما بصورة غير مباشرة ، ولذلك فحقيقة العقيدة في حاجة إلى تكرار متواصل لأهميتها الخاصة ، ولذلك نلحظ أن المحاورة في العقيدة هي التي تتكرر ، ومثال ذلك محاورة إبراهيم مع قومه ، فإنها تتكرر في القرآن عدة مرات ، لكونها في العقيدة ، وأما محاورته مع ابنه الذبيح [1] فلا تتكرر ، لكونها ليست في العقيدة ، ولا في أمر له أهمية عامة في الدين ، بينما نجد محاورة إبراهيم مع أبيه تتكرر لكونها في العقيدة ، وكذلك محاورات موسى مع فرعون تتكرر كثيرا لهذا السبب ، بينما لاتتكرر محاورته مع أخيه هارون لكون الخلاف بينهما لم يكن في عقيدتهما ، وهكذا كل المحارات التي وردت في القرآن في غير العقيدة ، ولم تكن لها أهمية خاصة حول العقيدة نجدها ترد مرة واحدة ثم لاتتكرر ، ومثال ذلك محاورة قارون مع قومه [2] ، فمع صرف النظر عن كون قارون كان مؤمنا أو غير مؤمن ، إلا أن المحاورة لم يكن موضوعها عقيدة قارون ، وإنما كان موضوعها بغيه على قومه وغروره بالمال العريض الذى آتاه الله إياه وهذا من محيط السلوك والخلق ، وليس العقيدة ، ولذلك لم يتكرر موضوعها . وكذلك محاورة داود مع الخصمين اللذين تسلقا عليه المحراب يختصمان عنده ؛ فيشكو أحدهما بغي الآخر عليه [3] ، فليس موضوعها العقيدة ، وإنما نوع من السلوك الجائر عن الحق ، ولذلك لم يحتج موضوعها إلى تكرار ، وهكذا سائر المحاورات في

---

(١) الآية ١٠١ سورة الصافات وما بعدها .
(٢) الآية ٧٦ سورة القصص وما بعدها .
(٣) الآية ٢١ سورة ص وما بعدها .

القرآن الكريم ، لايتكرر منها إلا مايكون صلبه المحاورة فى العقيدة وما يرتبط بها مباشرة .

وبالنظر إلى المحاورات التى يحتاج موضوعها إلى تكرار ، قد يقول قائل : فما طبيعة هذا التكرار ، أهو تكرار باللفظ ، أم بالمعنى أم فى صورة أخرى ؟ ، ومن الإجابة على ذلك أن المتتبع للمحاورات تبدو أمامه ملحوظات كثيرة فيما يتعلق بهذا السؤال ، على أننا قبل ذلك نستبعد تكرار المحاورة بنصها ، وهذا أمر بدهى فى التوقع ، فأسلوب القرآن على جلاله – بل ماهو دون أسلوب القرآن بكثير – لايتوقع فيه تكرار موضوع كامل بألفاظه ومعانيه ذاتها ، فهذا بعيد عن التوقع فى القرآن ، حيث لاتوجد فى القرآن قط ، محاورة تكررت كاملة بألفاظها ومعانيها ، مهما كانت هذه المحاورة قصيرة .

أما الملحوظات فمن أبرزها ناحيتان :

الأولى :

أن التكرار دائما يتصب على المواضع الجوهرية فى المحاورة ، وهذه المواضع الأساسية تتمثل غالباً فيما يأتى .

١ – الغرض الذى سيقت من أجله المحاورة ، كالدعوة إلى توحيد الله وعبادته ، ولذلك نجد هذا المعنى يتكرر فى محاورات نوح مع قومه ، حيث يقول لهم (.. يٰقَوْمِ اعبدوا الله مالكُم مِّنْ إله غَيْره . . .) [1] ويقول لهم فى محاورة أخرى (.. إنى لَكُمْ نَذير

(١) من الآية ٥٩ سورة الأعراف .

مُّبِينٌ ، أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ ...) [1] ويقول لهم فى محاورة أخرى كما قال فى الأولى (... يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ... [2] ويقول فى محاورة أخرى أيضا (إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ، أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ) [3] وكذلك يقول لهم فى محاورة أخرى (.. فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ) ثم يكرر لهم هذا المعنى بلفظه فى المحاورة نفسها [4] . ومن الواضح أن الغرض هو أهم مايحمله أى موضوع ، بل هو الموضوع ، وحينئذ فلا غرابة فى أن تكون هذه الأهمية دافعا إلى التكرار ، وبخاصة إذا كان الغرض يمثل أمراً فى قمة الأهمية ، كالعقيدة أو مايرتبط بها .

٢ – ومن المواضع الأساسية التى ترتكز عليها المحاورة بالذات الحجة ، فان المحاورة عادة صراع عقلى ، وخصومة منطقية ، النصر فيها لأقوى الطرفين حجة ، وحيث كان النصر معلقا على أهمية الحجة وقيمتها ، فالحجة إذن أهم مافى المحاورة من حيث الخصومة أى من حيث القيمة الموضوعية أو الفنية للمحاورة ، لأن المحاورة إذا ضعفت حجتها عند طرف ، انتصرت محاورة الطرف الآخر ، فبطلت محاورة الطرف الأول ، وتحولت إلى هزيمة وفشل لصاحبها ، وأما من حيث موضوع الحجة ، فإن المحاور مهما تعددت حججه فهناك حجة معينة ، هى فى الغالب صلب الحجج التى لديه جميعا وأقواها ، لوضوحها أو لشدة تأثيرها فى النفوس ، أو لموافقتها لطبائع الناس جميعا فضلا عن عقولهم أو نحو ذلك ، وهذه الحجة

(١) من الآيتين ٢٥ ، ٢٦ سورة هود .
(٢) الآية ٢٣ سورة المؤمنون .
(٣) من الآيتين ٢ ، ٣ سورة نوح .
(٤) الآيتان ١٠٨ ، ١١٠ سورة الشعراء .

الأساسية تصبح عادة قرينة للمحاورة ، وملازمة لها ولو فى ذهن الناس ، بل ملازمة لشخص صاحب المحاورة ، بمعنى أنه حينما تذكر أى محاورة ولو كانت غير دينية ، كالمحاورات التاريخية المشهورة فانه يقترن بهما فى الذهن عادة تذكر الحجة الأساسية التى كانت سببا فى فوز الفائز وأمثلة ذلك كثيرة فى المنافرات والمحاورات التاريخية بين سادة القبائل ، وزعماء بعض الأمم . وعندئذ يبدو واضحا أنه مهما تكررت المحاورة فإن الحجة الأساسية فيها ستتكرر معها غالبا ، ومهما تغيرت فقرات المحاورة أو معانيها ، فإن هذه الحجة فى أغلب الأحيان ستبقى ثابتة مع المحاورة . بوصفها عصب المحاورة ، ومن أعمدتها الأساسية ومثال ذلك أيضا محاورات نوح مع قومه ، فقد كانت حجته الأساسية فى صدق دعواه الرسالة من عند الله ، أنه لايطلب منهم أجرا ، فانها حجة تجمع بين الوضوح ، فمن الواضح لهم جميعا أنه لايطلب أجرا على عنائه الشديد فى أداء مايؤديه ، وبين الموافقة لمنطق الناس وطبائعهم ، فمن طبيعة الناس أنهم لايؤدون عملا بدون أجر ، فلو كان هذا العمل لمصلحته هو ، لطلب عليه أجرا ، ويؤكد لهم نوح أنه لم يشذ عن طبيعة الناس ، وانما يطلب أجره كسائر الناس ، ولكنه يطلبه ممن كلفه العمل . كما يطلب أى أجير أجره من صاحب العمل ، وصاحب عمل نوح هو الله سبحانه ، وإذن فهذه الحجة أقوى سلاح منطقى يعتمد عليه موقف نوح ، ولذلك يحتاج إلى تكرارها أكثر من مرة ، فيقول (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللهِ) [1] ويقول فى محاورة أخرى (ويَاقَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ

(١) الآية ٧٢ من سورة يونس *

مالاً إنْ أجرىَ إلا علىَ الله) (١) ويقول فى محاورة أخرى (وما أسألُكُمْ عليْه مِنْ أجْرٍ إنْ أجْرِى إلا علىَ ربِّ العالمينَ) (٢) فتكرار هذه الحجة إذن لاغرابة فيه ، لأن موقفه كله بصفته رسولا يعتمد على هذه الحجة ، فكلما حاور قومه احتاج إلى إعادة هذه الحجة ، لتكون من وسائل الإقناع الأساسية .

٣ — ومن المواضع الأساسية التى تقترن بالمحاورة ، وإن لم تكن منها ، النتيجة التى تنتهى إليها المحاورة ، أوما يترتب على المحاورة ، فان هذه النتيجة تشبه الحكم فى أى قضية ، فانه وإن لم يكن جزءا من الخصومة ، إلا أنه جزء مكمل للقضية ، وأى قضية تروى دون حكم تجعل النفوس متطلعة إلى شىء أساسى ، هو معرفة الحكم ان كان قد صدر ، وحينئذ يكون من المنطقى أنه كلما تكررت المحاورة صاحبها بيان النتيجة التى انتهت إليها المحاورة والنتيجة بطبيعة الحال فى محاورات القرآن ، هى انتصار الحق ، أو ظهوره ووضوحه ، ثم اندحار الباطل أو خزيه أو ظهور بطلانه على الأقل ، وهذه النتيجة ذات أهمية كبيرة لدى القرآن الكريم من حيث كونه دعوة للناس ، فمن أكبر جوانب الأهمية أن يبلغ المدعوون والسامعون هذه النتيجة ، لتكون إنذاراً يدفعهم إلى الله إن لم يدفعهم إليه ماساقته المحاورة من دعوة ومن حجج تصدق هذه الدعوة ، ولذلك أيضا نجد محاورات نوح عليه السلام تتكرر معها النتيجة وهى نجاته ومن معه فى السفينة ، وغرق قومه الكافرين

---

(١) من الآية ٢٩ سورة هود .
(٢) من الآية ١٠٩ سورة الشعراء .

المكذبين فمن ذلك (فَكَذَّبوه فأنجيناهُ والَّذينَ معه فِي الفُلْكِ وأغرقنا الَّذينَ كَذَّبوا بآياتنَا إنَّهم كَانُوا قوماً عمين) [1] وكذلك (فكذَّبوه فنَجَّيناه ومَنْ معه فى الفُلْك وجعلْنَاهُم خلائف وأغرقنَا الَّذين كَذَّبُوا بآياتنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ المُنذَرِينَ) [2] وكذلك أيضا (فَأَنْجيناه ومنْ معهُ فى الفُلْكِ المَشْحُونِ ، ثُمَّ أغرقْنَا بعْدُ الباقينَ [3])

وأما الناحية الثانية من ملحوظات المتأمل فى تكرار محاورات القرآن أننا لانجد محاورة قط مكررة ، إلا وفى هذا التكرار إضافة جديدة لموقف جديد أو معنى جديد ، وهذا واضح فى كل المحاورات المكررة ، بحيث لوجمعنا هذه الأجزاء المتفرقة فى تكرار المحاورة الواحدة ، لوجدنا لدينا محاورة كاملة المواقف والجوانب الفنية للمحاورة على وجه مفصل بالغ الوضوح والاكتمال .

وحينئذ قد يبرز سؤال ذو قيمة ، وهو : فلماذا لم ترد المحاورات فى القرآن على هذه الصورة ، بحيث تكون كل محاورة مجتمعة الأجزاء ، متكاملة التفاصيل ، فلاتحتاج إلى تكرار ؟ ويمكن أن يجاب عن ذلك بأمرين :

أحدهما أن محاورات القرآن يراعى فيها الجانب التاريخى ، بمعنى أنها منقولة عن أشخاص وأقوام سابقين ، ومعظمها عن الأنبياء الماضين ، والنبي لايتصور أنه حاور قومه مرة واحدة ، ولاقى مناسبة أو مدة واحدة من مدة رسالته ، وإنما يقضى طول

---

(١) من الآية ٦٤ سورة الأعراف .
(٢) من الآية ٧٣ سورة يونس .
(٣) الآيتان ١١٩ ، ١٢٠ سورة الشعراء .

إقامته رسولا بين المرسل إليهم ، يدعوهم ويحاورهم فى هذه الدعوة ومحاوراته المتعددة معهم ليست صورة واحدة ، ولا ألفاظا محددة يعيدها عليهم كما هى فى كل مرة ، بل هى بداهة وإن احتفظت بجوهر ثابت ، إلا أن طريقة عرضها غير ثابتة ، وتفاصيلها أيضا غير ثابتة ، بل تحتاج إلى تجديد وتنويع من جهة ، وتحتاج أيضا إلى الرد على مايأتى جديدا فى محاورة الخصوم ، فان محاورة الطرف الآخر أيضا غير ثابتة ، وفى كل الأحوال فان محاورات الرسل مع أقوامهم لابد وأن تشتمل على تجديد وتغيير وإضافات ، كصورتها الموجودة فى القرآن أو نحو ذلك ، وعندئذ يمكن أن نقول إنه من المحتمل أن يكون القرآن الكريم راعى هذا الواقع التاريخى فنقلّ محاورات الرسل بصورة تشير إلى ماكانت عليه فعلا حتى فى الشكل ، من حيث التجزئة ، والتفوق الزمنى .

والأمر الثانى أن القرآن فى منهجه كله يراعى أن يهيئ لدعوته أنسب الوسائل ، وأفضل ظروف النجاح ، وقد بلغ فى ذلك أقصى قمم النجاح ، كما يشهد بذلك الواقع التاريخى ، حيث كان مما حير علماء الاجتماع هذه السرعة الفائقة التى انتشر بها الاسلام مخالفا بذلك كل الدعوات والمذاهب والأديان على الإطلاق ، ومهما تعددت الأسباب التى تلتمس لتعليل هذه الظاهرة فلابد أن يكون من بينها القرآن الكريم ، والشيء الذى يسهم فى إحداث ظاهرة عظيمة لابد أن يكون عظيما ، وهى حقيقة لاتحتاج إلى زيادة إثبات ، والواقع أن جوانب العظمة فى القرآن الكريم لاتكاد تحصى ومن مجموع هذه الجوانب يتكون (إعجاز القرآن) ومن بين

هذه الجوانب حكمة القرآن فى أسلوب الدعوة ، وحين نصل إلى هذه النقطة نجد أنه من الواضح أن تكرار المحاورات يتضمن من حيث التكرار نفسه زيادة فى استيعاب موضوع الدعوة وفهمه ، وكل تكرار مادام مقبولا فى أسلوب عرضه فإنه يزيد الموضوع ثبوتا وقرارا فى النفوس ، ويزيد النفوس فهما واستيعابا ، ونحترز بقبول العرض ، عن العرض الردىء ، كإعادة الموضوع بلفظه ومعناه فمما يتمثل به قولهم (أثقل من كلام معاد) . نقول بالاضافة إلى فائدة التكرار لذاته ، فإننا نلحظ أن تكرار المحاورات يتضمن شيئا من التجزىء للمحاورة ، بحيث لاتعرض كاملة ، وإنما يعرض القدر الضرورى لتأخذ النفوس فى تفهمه ، ثم يضاف إليها جزء آخر أو أجزاء أخرى فى كل إعادة ، وقد يستغنى بجزء جديد عن جزء سابق ، فلايعاد الجزء الذى أصبح هذا المقام غير محتاج إليه . وهذا التصور غير بعيد ، بل هو من واقع تكرار المحاورات كما سترى فى أمثلة كثيرة ، ولكننا نضيف أن هذا التجزىء غير غريب ولافريد فى القرآن ، بل هو منهج القرآن نفسه فى نزوله ، حيث نزل منجما ومجزءا فى طول مدة الرسالة ، ومن العلل المشهورة فى ذلك ، أن تجزئته تعين النفوس على استيعابه وتثبيته جزءا جزءا ، أكثر مما لو تلى على هذه النفوس مرة واحدة ، وكون النفوس أكثر فهما واستيعاباً للشىء القليل من الشىء الكثير أمر لايحتاج فى وضوحه إلى تدليل .

وتبقى معنا فى هذا الحديث بقايا يسيرة نشير إلى أهمها فى إيجاز فمنها أننا ينبغى أن نراعى فى حديثنا عن السامعين للقرآن أننا نعنى السامعين لأول مرة ، فهناك أمور كثيرة قد لاندرك نحن

مدى تأثيرها ، أو التأثير الكامل لها فى النفوس لكثرة ترددها على أسماعنا ، ولكن من يسمعها لأول مرة متفهما ومتذوقاً يختلف ولو نوعا ما عمن تردد سماعه وتفهمه وتذوقه ، فالسامع لأول مرة أكثر انفعالا وتأثرا بما يسمع .

ومنها أنه قد يقال : إن المحاورات فى جملتها نوع من أخبار السالفين ، فما جدوى ذلك من كتاب سماوى هدفه الدعوة إلى الدين ، والجواب أن موضوع المحاورات التى أوردها القرآن كله من صلب الدين عقيدة أو سلوكا ، وبالتالى فهى من صميم دعوة القرآن ، غاية الأمر من هذه الزاوية أن أسلوب المحاورة اختير بدل المعانى المجردة ، لاعتبارات معينة تتعلق بالتأثير فى السامعين كما سبقت الاشارة إلى ذلك . على أننا ينبغى أن نلحظ أن الخصومات التى تدور حولها المحاورات ، سواء أكانت فى العقيدة أم فى السلوك هى ذات الخصومات التى حملها القرآن والدعاة به ، فالقرآن حينما يعرض خصومة أو محاورة حول العقيدة ، فإنها تمثل خصومة القرآن مع مدعويه حول العقيدة ، وكذلك محاورته حول السلوك ، كمحاورة قارون حول الغرور والبغى ، ومحاورة الخصمين اللذين بغى أحدهما على الآخر ، وتمثلا هذه الخصومة عند داود عليه السلام ، ونحو ذلك من جوانب السلوك ، فان القرآن يخاصم الناس فيها كما خاصم الأنبياء والمصلحون السابقون أقوامهم فيها ، فالمحاورات رغم أنها قديمة ، لاتزال موضوعاتها قائمة تحتاج إلى الحوار والمخاصمة والداعى بالقرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم إنما يدعو إلى مادعا إليه الأنبياء والمصلحون المؤمنون من الأمم السابقة ، وخصوماته ومحاوراته هى خصومات السابقين ومحاوراتهم .

أمثلة متنوعة

وسنعرض هنا لأمثلة محددة من محاورات القرآن الكريم فى بعض الأغراض المتنوعة ، وليس القصد منها شمول الأغراض ، ولاتمثيل منهج الداعى بها تمثيلا كاملا ، فهذا أبعد مايكون عن القصد فإن المحاورات فى القرآن أكثر عددًا ، وأكثر تنوعا وتعددًا من أن يحيط بها هذا العددالقليل من الأمثلة ، وهذه الأمثلة أيضا لاتمثل مناهج صاحب المحاورة ، فإن المحاورين الذين ساق القرآن محاورات على ألسنتهم معظمهم وهم الأنبياء ، لهم محاورات عديدة إما مع أقوامهم ، وإما مع الله سبحانه ، وإما مع أشخاص آخرين كالملائكة ، ومنهج كل نبي منهم لايتضح إلا باستعراض محاوراته كلها ، حتى نستطيع أن نلمح من خلالها مجتمعة منهجه وأسلوبه فى المحاورة ، وهذا مالم تقصد إليه هذه الأمثلة قط .

وكل مايهدف إليه إيراد هذه الأمثلة بيان نماذج من أسلوب المحاورة بصفة عامة فى القرآن الكريم ، وأن محاورات القرآن أبعد غورًا ، وأدق طريقاً ، وأشمل غرضاً مما توحيه النظرة العابرة أو السمع السطحى وعسى أن يكون فى ذلك زيادة فى تهيىء القارىء نفسه لما يستقبل من الكتاب ، حين يعلم أن أيسر مايستفاد من القرآن الكريم على أهميته هو ماتوحيه النظرة العابرة ، وأن المتعة الحقيقية إنما تبدأ درجاتها بعد هذه النظرة ، حين يتجاوز المتأمل سطح الاستماع ويبدأ فى الغوص مع بحور الرحمن ، وليس لهذا الكلام

علاقة قط بالمشتطين فى حديث الظاهر والباطن ، وأبعد مايمكن أن يؤخذ من هذا الكلام أن القرآن الكريم له طابع عام شديد الوضوح بحيث لايحتاج إلى اجتهاد أوعمق فى الفهم ، وهو التشريع الذى يحمله القرآن فى أوامره ونواهيه وسائر توجيهه وأحكامه ، وهذا القدر يستوى كل الناس فى فهمه وإدراكه ، بل ولاتتفاوت فيه اللغات ، بحيث لو ترجم القرآن أو ترجمت هذه الأحكام إلى أى لغة غير العربية فلن تختلف هذه الأحكام والتوجيهات فى العربية عنها فى اللغة المترجم إليها .

ولكن هناك أعماقاً فى عدة جوانب ، وراء هذا القدر القريب الواضح من القرآن ، كالجانب البيانى ، فإن الذى يريد أن يتذوق جمال أسلوب القرآن لايكفيه الطابع القريب من سطح أسلوب القرآن ، وإنما يحتاج إلى التأمل والتذوق ، وحينئذ يبدأ فى الإحساس بما يحمله القرآن من جمال وعمق بيانى أدبى ، وكذلك من الناحية العقلية ، يبدو عرض القرآن للمنطق العقلى والحجج بسيطاً قريب المأخذ لكل العقول ، بحيث لايلتوى فهم هذه الحجج على عقل مهما يكن يسير الإدراك ، مادام غير مختل أو مريض ، ولكن وراء هذه البساطة عمقا أكبر ، ووراء قرب المأخذ دقة شديدة فى التعبير والإشارات ، وفى التنسيق والترتيب المنطقى ، وفى الجوانب النفسية الواسعة الآفاق ، وفى نواح أخرى متعددة ، وفى هذا المجال يتركز أهم مافى حديث المحاورة ، لعلنا نوفق فى إبراز شىء من هذه الآفاق التى لاتخلو من حاجة إلى التأمل الذى يدعو إليه القرآن نفسه ملحاً فى الدعوة أشد الإلحاح :

ومن الأمثلة ما يأتى :

١ ــ فى الايمان

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين ، ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ (١) الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا (٢) بادى الرأى (٣) وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » .

قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتانى رحمة من عنده فعميت (٤) عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، وياقوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوماً تجهلون ، ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ، ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذاً لمن الظالمين .

---

(١) الملأ الأشراف والسادة وأصله من الامتلاء ، كأنهم ممتلئون بصفات السيادة .

(٢) أراذلنا . جمع أرذل والمعنى أقلنا شأنا وقيمة .

(٣) بادى الرأى وقرىء بادىء الرأى بمعنى صدقوك أول الأمر دون تفكير أو تدبر .

(٤) عميت أخفيت والمعنى خفى عليكم الحق لجهلكم كأنكم عمى لا تبصرونه وتاء التأنيث للرحمة وهى النبوة .

قَالُوا يانُوح قَد جادلتَنَا فَأكثرتَ جِدالنَا فَأْتنا بِما تِعدنَا إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إنّما يأتِيكُم بِهِ اللهُ إن شَاء وما أنتُم بِمعجزين(١) ولا ينفعكُم نُصحِي إن أردت أنْ أنصح لكُم إنْ كَانَ اللهُ يرِيدُ أنْ يغْويكُم هو ربُّكُم وإليهِ تُرجعونَ (٢) .

مراحل المحاورة وملابساتها

وطرفا المحاورة : نوح المرسل من الله ، وسادة قومه الذين أرسل إليهم .

١ ـ القضية :

والقضية أو الموضوع هى الرسالة التى حملها نوح من ربه ليؤديها إلى هؤلاء القوم . وموضوعها حدده نوح فى غاية الإيجاز والوضوح والتميز عن غيره وهو قوله (ألاتعبدوا إلا الله) فوحدانية الله إذن هى كل القضية التى يدور الصراع حولها بين نوح وقومه . وهنا نحاول أن نتبين كيف عرض نوح الموضوع على قومه ؟ ، والواقع أنه أحاط الموضوع فى عرضه بسياجين فى غاية القوة ، ليكونا قوة للموضوع ، وحماية له ، وهذان السياجان ، ينصبان على نفسية قومه ، فقد أراد نوح أن يهيىء نفوس قومه قبل إلقاء الأمر الخطير ليكون لديها شىء من استعداد وتهيؤ ، أو تفكير على الأقل فى توقع مايهيىء له نوح ، وقد هيأ نوح للموضوع بقوله (إنى لكم نذير مبين) فهو يوجه إليهم إنذاراً شديد الاهمية (مبين) وهذا من

(١) بمعجزين ، أى لن تفلتوا من عذاب الله .
(٢) الآيات ٢٥ ـ ٣٤ سورة هود .

شأنه أن يهيء نفوسهم ، ويحرك عقولهم ومشاعرهم ، ويمكن تمييز نقاط الركن الأول من أركان المحاورة (وهو الموضوع) فيما يأتى

(ا) التمهيد الذى يسبق صلب الموضوع ، وقد اختار نوح هذا التمهيد قوياً عنيفاً ليحدث فى نفوسهم جلبة وقلقاً يبعثها للاهتمام والترقب الشديد للموضوع الذى ينذرون هذا الإنذار الشديد من أجله ، وقد صاغ نوح هذا التمهيد فى قوله (إنى لكم نذير مبين) .

(ب) صلب الموضوع ، وقد اختار له نوح ألفاظاً بسيطة المعنى ، ليس فيها تصوير بيانى ، ولاخيال أدبى ، ولامبالغة ، ولا شىء قط يصرف الذهن عن أصل المعنى ، أو يتيح للنفس أن تجاوز هذا المعنى المحدد ، أو أن تتأول فيه ، وكان هذا التعبير (. . . لاتعبدوا إلا الله) .

وأما أداء الألفاظ للهدف المقصود فقد كان بالغ الكمال فى الفقرتين ، ويبدو لك ذلك حينما تتأمل الفقرة الأولى وهى (إنى لكم نذير مبين) فلما كان الهدف تأكيد الإنذار ليحدث فى نفوسهم الرهبة والتهيؤ ، احتشدت أربعة مؤكدات ومقويات للمعنى ، فمنها التأكيد بلفظ (إن) فى كلمة (إنى) ومنها التخصيص بتقديم الجار والمجرور (لكم) وأصله إنى نذير مبين لكم ، ولكنه قدم للتخصيص أى الإشعار بأن هذا الإنذار خاص بهم دون غيرهم ، وفى هذا زيادة تخويف أو إثارة اهتمام لهم ، ومنها صياغة لفظ (نذير) فالأصل (منذر) ولكنه عدل عنه إلى لفظ (نذير) ليدل بهذه الصيغة على المبالغة والقوة فى أداء المعنى ، ومنها عدم الاكتفاء

بلفظ النذير وإنما وصفه بكلمة (مبين) ليكون فى هذا الوصف تقوية للمعنى ، ودلالة على قوة الإنذار ووضوح مدلوله .

وأما النقطة الثانية وهى صلب الموضوع ، فكما قلنا إنها لاتعتمد على إيحاء الألفاظ أو تأثيرها النفسى كالفقرة السابقة وإنما تعتمد على وضوح المعنى وبساطته ، ولذلك خلت الفقرة كلها من تأثير الألفاظ ، وانحصر الأثر كله فى المعنى المجرد من الصياغة البيانية وبتعبير أوضح نقول : إن التركيز فى الفقرة الأولى منصب على الألفاظ والصياغة ، أما فى الفقرة الثانية فينصب على المعنى ، والمعنى المستهدف فى الفقرة الثانية ينحصر فى إبراز توحيد الله وإفراده بالعبادة ، وليظل هذا المعنى واضحاً وبارزاً ومحدداً صيغ بألفاظ عادية مجردة من أى ثوب بيانى وأدبى ، اللهم إلا جانباً ذا أهمية يتعلق بالمعنى نفسه ، وهو حذف المستثنى منه ، ليكون فى حذفه تعميم هو صلب الوحدانية حيث يجوز لعقل السامع أن يفهم لاتعبدوا إلهاً أو أحداً أو شيئاً قط إلا الله ولو ذكر المستثنى منه ، بأن قيل مثلا لاتعبدوا إلهاً إلاالله ، لجاز فى عقل قاصر أو ملتو أن يتأوله على نحو أن يعبد إنساناً أو منفعة أو أى شىء غير جنس الإله ، ولكن حذف المستثنى منه يقطع على كل العقول ، كل صور التأويل .

(جـ) التخويف والتهديد ، ويتمثل هذا فى قوله (إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) عقب تلاوته موضوع الرسالة عليهم مباشرة حتى يملأ نفوسهم حذرا ورهبة من العصيان والنفور بهذا التخويف وحتى لايترك لنفوسهم مجالا للتهرب أو الروغان ، يكون هذا التخويف تالياً للرسالة مباشرة .

وبالإضافة إلى أن التعبير فى جملته يفيد تحذيرهم وتخويفهم ، فإن الألفاظ تحشد فيه زيادة فى هذا التخويف ، ومن هذه الألفاظ (إن) المقيدة للتأكيد ، ومنها التعبير بلفظ المضارع فى (أخاف) وما يفيده المضارع من تجدد حدوث الفعل واستمراره ، كأن خوفه عليهم متجدد متواصل ، ثم الخطاب فى (عليكم) وما يفيده من الإشفاق والاهتمام بهم ، ثم إنه يخوفهم من عذاب يوم القيامة ، ولكنه يجعل العذاب عذابين ، العذاب الذى سيكون حينئذ ، واليوم نفسه كأنه عذاب ، حيث وصف اليوم بأنه (أليم) بمعنى مؤلم والألم فى الواقع يأتى من العذاب الموجود فى اليوم ، ولكنه جعله يأتى من اليوم نفسه حيث جعل اليوم مؤلما زيادة فى إبراز خطورة العذاب ، وتعدد مصادره .

٢ ـ معارضة الخصم :

والخصم فى المحاورة هم الملأ أى السادة والقادة من قوم نوح ، وقد سيقت حججهم فى المعارضة ، فى الآية الكريمة (فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) ومع هذا الإيجاز لو تأملنا دقة التعبير تجدها تبرز لنا كثيرا من النقاط ، وتبرز لنا حججا صاخبة يعرضونها محاولين أن يجعلوا منها منطقا مقبولا ، وأولى هذه الملحوظات أن التعبير بعد أن بين أن المعارضين هم السادة ، احترز عن أن يفهم أن صفة السيادة لها دخل فى المحاورة ، فقيده بقوله (الذين كفروا) لأن الكفر هو عنصر الخصومة فى المحاورة ، وليس السيادة ، ثم أضيف

قيد (من قومه) لأن بعض ماساقوه من حجج ، وهو أن التابعين لنوح من ضعاف الناس وأراذلهم إنما يرتبط بكونهم جميعا - السادة الكافرين والأتباع المؤمنين - من مجتمع واحد ، مما يمثل الطبقية الاجتماعية كما سيأتى بالإضافة إلى أن كون السادة المحاورين من قومه معناه أن الذين آمنوا بنوح من الضعفاء كانوا أتباعا لهؤلاء السادة قبل أن يؤمنوا ، وإذن فاجتماعهما فى مكان وفى مستوى واحد وهو الإيمان فيه غضاضة من وجهة نظر السادة الكافرين .

وأما حجج السادة الكافرين فتكاد تنحصر فى مواضع :

أولها :

قولهم (مانراك إلا بشرا مثلنا) كأنهم يقولون لنوح : إن المرسل من عند الله ينبغى أن يكون متميزا عن غيره من الناس بشىء وإلا لجاز لكل إنسان أن يكون رسولا أو يدعى الرسالة ، وأنت لاتتميز عن سائر الناس بشىء ، بل أنت بشر مثل سائر الناس فلا يصح أن تكون رسولا ، ثم يترتب على هذا المنطق كأنهم يقولون له : ومادام المرسل يجب أن يتميز عن غيره ، فإذا كانت هناك رسالة من عند الله كما تدعى فنحن أولى بها ، لأننا نتميز بأننا سادة ووجهاء فى الناس ، ولكننا لم ندع هذه الرسالة ، فأولى ألا تدعيها أنت .

ومن هذا نعلم أن خصومتهم العقلية لم تكن ساذجة كل السذاجة بل كانت لهم عقول فيها شىء من عمق وفكر ، يحاولون أن يخلقوا به منطقا مضللا ، والواقع أن وضعهم من السيادة يشير إلى أهمية

موقفهم ، فإن السادة غالبا لايكونون سذجا ، وبخاصة إذا كانوا مجتمعين فى تفكيرهم كهذا الموقف ، ولولا هذه الأهمية لم يكن القرآن ليعنى بذكرهم .

وثانيها :

أن من خطورة معارضتهم أنهم تحاشوا المحاورة فى موضوع الرسالة ، مع أنه هو القضية ، فلم يجادلوا فى تصديقهم بوحدانية الله أو عدم تصديقهم ، وإنما عمدوا إلى الأصل والأساس الذى تنبنى عليه القضية ، وهو رسالة نوح من عند الله ، هل هى صحيحة أم كاذبة ، وهذه النقطة أخطر مافى القضية ، لأن القضية كلها مبنية على هذا الأساس ، فإذا انهار فقد بطلت القضية كلها ، وإذا صحت الرسالة فإن كل مايقول الرسول بعد ذلك مصدق ، فهم يريدون أن يكذبوا رسالة نوح من أساسها ، وحينئذ لايقبل منه أى كلام فى الموضوع ، لأن الصفة التى يتكلم بها وهى الرسالة انتفت عنه .

وثالثها :

أنهم يحكمون العرف الاجتماعى ليجعلوا منه حجة ، وهذا العرف يتمثل عادة فى أن أصحاب الرأى فى كل مجتمع هم سادته ووجوهه ، ورأيهم فى مجموعهم هو مقياس الصواب والخطأ ، حيث من غير المألوف أن يتفقوا جميعا أو أغلبية على الخطأ ، ومن هنا يأخذ خصوم نوح حجة العرف ، وكأنهم يقولون له إن أصحاب الرأى فى الناس عادة هم سادتهم ، لأن عقولهم ترفعهم إلى مكان السيادة

ولو كان أتباعك من وجوه الناس لحكمنا بأنك على صواب لاتباع أصحاب الرأى إياك ، ولكن أصحاب الرأى لم يتبعوك ، ولم يتبعك قط، إلا دهماء الناس وأخسهم مكانا فى المجتمع وهم أراذل الناس[1] ، وهؤلاء عقولهم من التفاهة بحيث لايعتد بها ، ثم يتابع خصوم نوح استنزاف الحجة حتى آخرها ، فيقولون ومع تفاهة عقول تابعيك ، فإنك أخذتهم على غرة (بادى الرأى) ، ولم يجدوا وقتا للتفكير والتأمل ولو فكروا بهذا القدر الضئيل من عقولهم لما صدقوك .

وهذه الوجهة يثيرها خصوم نوح من زاوية الحجة ، ويبقى جانب آخر نفسى لهذه الحجة ، وهو أن نفوس السادة والزعماء لاتقبل أن تنزل إلى مستوى عامة الناس لتكون معهم على قدم المساواة ، فحتى لو فكر السادة فى الإيمان ، فإن وجود هؤلاء الأراذل حول نوح يمنعهم من الإيمان ، حفاظا على سيادتهم ومكانتهم ، وهذا كله من مفهوم قولهم (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) .

ورابعها :

قولهم (وما نرى لكم علينا من فضل) كأنهم يقولون لنوح ومن معه ، إن ماتدعونه من وجود رسالة سماوية فيكم ، ومن منزلة عند الله ومن ثواب تنتظرونه ، كل ذلك يقتضى أن تكون لكم ميزة تتميزون بها عنا ، وفضل تعلون به علينا ، ولكن أين هذه الميزة ، أو هذا الفضل ؟ ، ليس لديكم من ذلك شيء ، فكيف تدعون

---

(١) الأرذل هو التافه الهين والردىء من كل شيء .

ماادعيتموه ؟ ، وإذا كنتم غير محقين فى دعواكم مع فرض مساواتكم لنا ، فكيف بكم وأنتم دوننا ؟ ، بل كيف بكم وأنتم فى أغلب الظن كاذبون ؟ هل تكون هذه المزايا التى تدعونها « من الرسالة السماوية ورضا الله وثوابه » فى الكاذبين ؟

ومن هذا كله نتبين أن نوحا عليه السلام كان يواجه خصومة غير هينة ، وخصوما لايستهان بهم ، بل إننا لو أعدنا التأمل فى جدالهم ، نلمح محاولتهم أن يصوغوا كل موقفهم فى قالب الحجة المنطقية التى تعنى بها العقول ، وتحتاج إلى شىء من جهد فى بيان زيفها وتضليلها ، ومن محاولتهم الجدلية العقلية هذه ، مايأتى :

١ – التزام السير الصحيح فى شكل الخصومة المنطقية ، فمن ذلك أن الخصم من حقه أن يعرض وجهة نظره مدللا عليها ، وليس من حقه الحكم فى الخصومة ، حتى لايكون خصما وحكما ، ولاالحكم على أحد الطرفين حكما نهائيا ، لأن الحكم على أحدهما حكم فى الخصومة كلها ، ولذلك نجدهم يلتزمون بيان أن مايقولونه هو رأيهم ووجهة نظرهم، فالتزموا قولهم (نرى) وكرروها مع كل حجة ، كأنهم يقولون هذا رأينا ونقول شكل الخصومة لأنهم لم يلتزموا السير الصحيح فى موضوع الخصومة ، وإنما اعتمدوا على التضليل العقلى

٢ – لجأوا إلى محاولة سد المنافذ على خصمهم وهو نوح وأتباعه وسد المنافذ بادعاء عدم وجود احتمالات غير مايقولونه ، كقولهم (مانراك إلا بشرا مثلنا) فلو قالوا (أنت بشر) لأمكن لخصمهم أن يضيف قوله : ولكنى أتميز عنكم بكذا ، أما قولهم (مانراك إلا

بشرا مثلنا) بأسلوب الحصر - فينفى أى احتمال أو إضافة ويجعله محصورا فى البشرية العادية لا يتجاوزها إلى أى صفة أو احتمال آخر، وكذلك بقية تعبيرهم عن حججهم، وإضافة لفظ (من) فى قولهم (وما نرى لكم علينا من فضل) تؤدى مايشبه معنى الحصر وهو نفى أى فضل.

٣ - من محاولاتهم أن يجعلوا موقفهم الجدلى مقبولا وناجحا تلطيف هجومهم على الخصم، ليبدو هذا الهجوم وكأنه اعتدال وعدم شطط، ومن ذلك أنهم جعلوا النتيجة، وهى الحكم على نوح ومن معه فى نظرهم بالكذب، جعلوها فى أسلوب الشك، وعدم اليقين، حيث كانوا يستطيعون أن يقولوا: بل أنتم كاذبون، ولكنهم قالوا (بل نظنكم كاذبين) ليظهروا بمظهر المعتدل أو الذى يحاول الاعتدال، هذا من جهة، ومن جهة أخرى جعلوا هذه النتيجة، وكأنها استنتاج منطقى من مقدمات سبقتها، وكأنهم يقولون: ماتزعمونه من الرسالة السماوية وما يتبعها ميزة لايصلح لها إلا ذو فضل فى الناس، وأنتم ليس لكم فضل قط (مشيرين إلى أنهم هم ذوو فضل) وإذن فلستم أهلا لهذه الميزة، وحينئذ فالنتيجة العقلية أنكم غير صادقين فى دعواكم ماتدعون.

وقد يقال: فلماذا صاغ خصوم نوح النتيجة بأسلوب الشك فقالوا (بل نظنكم كاذبين)، وقد كان من مصلحتهم أسلوب اليقين، بأن يقولوا أنتم كاذبون. والجواب أن خصوم نوح لم يخسروا بهذا الشك أو الظن شيئا من حيث النتيجة، فإنهم يتحاورون حول الدين بوصفه عقيدة، والعقيدة إذا نزلت عن اليقين بأى درجة من درجات الشك لاتكون عقيدة ولا إيمانا، وحتى إذا قلنا إن المحاورة فى هذه الفقرة كانت حول صحة الرسالة، فإن الرسالة وسيلة

لإثبات العقيدة ، ووسائل الإثبات ، وسائر الأدلة ، لايصلح فيها إلا اليقين ، ولذلك يقول علماء المنطق والأصول (الدليل متى تطرق إليه الاحتمال ، سقط به الاستدلال) ، فقول الخصوم (نظنكم كاذبين) يؤدى فى النتيجة معنى (أنتم كاذبون) ، ولكن الخصوم كسيوا بأسلوب الشك والظن محاولة الظهور بمظهر الاعتدال ، ليكسبوا موقفهم فى الخصومة شيئا من قوة .

٣ ــ دفاع الرسول :

ولكن نوحا عليه السلام ينبرى لهم بعارضته القوية ، وأسلوبه الحكيم ، ومنطقه المفحم ، ويهيء نوح نفسه للدفاع سالكا الخطوات الآتية :

١ ــ فى التمهيد :

(أ) يحرص على إيجاد ألفة بينه وبينهم ، وألا يبدو فى كلامه ما يتخذونه حجة للنفور والابتعاد ، متجاهلا ما أصابوه به هو والمؤمنين به من إساءات شخصية ، فإن مايعنيه هو نجاحه فى الخصومة ، ليكون هذا النجاح وسيلة لكسبهم فى الإيمان ، ولذلك نجده يبدأ كلامه بهذه الرابطة الاجتماعية المتينة بينه وبينهم (ياقوم) مستدراً ألفتهم بهذه الرابطة من جهة ، ومذكرا إياهم ضمنا بأن المرء عادة لايغش قومه ولايضللهم ، ليزيد بهذا من ثقتهم به .

(ب) يلجأ إلى إثارة عقولهم ودفعها إلى التفكير بإلقاء الأسئلة عليهم ، فيقول (ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟) وأرأيتم معناها

أخبرونى والبينة الأمر الدال على صدقه كالمعجزة ونحوها ، والرحمة النبوة ، وعميت أخفيت . فمع ماوجهوه إليه فى محاورتهم يأخذهم هو بغاية الرفق واللين وكأنه يقول لهم : افترضوا أن رسالتى التى أكرمنى الله بها كانت بينة ظاهرة ، ولكنها خفيت عليكم فلم تدركوها ، هل نكرهكم عليها إكراها ؟ وفى خلال كلامه نجد ألفاظا كثيرة تستوقف التأمل ، منها البناء للمجهول فى (عميت) إشارة إلى أن ثبوته ظاهرة واضحة ، ومن شأن كل العقول أن تدركها ، ولولا أن هناك حائلا حال دون عقولهم لأدركوها ، وهذا يمثل غاية الرفق بمشاعرهم ، والحرص على ألفتهم ، وكأنه يقول لهم أنا لاأتهمكم أنتم فى عدم إدراك نبوتى ، وإنما أتهم الذى حال بينكم وبينها فلم تدركوها ، وهذا يدفعهم تلقائيا إلى التفكير والبحث عن هذا الحائل ، ومنها لفظ (على) فى قوله (على بينة) الذى يفيد التمكن من البينة ووضوح الحق عنده ، ثم إن المعنى نفسه يمثل أقصى الاطمئنان النفسى لهم ، حيث يؤكد لهم حرية الاختيار فى الدين كما يقول القرآن فى موضع آخر (لاإكراه فى الدين) وهذا من طبيعته أن يزيد نفوسهم اطمئنانا إن كان لديهم أدنى استعداد .

٢ ــ الدليل من الواقع

ومن الحكمة البالغة فى أسلوب محاورة نوح أن يترك الأدلة التى ينازع فيها الخصم أولا تتضح كل الوضوح فى ذهنه ، ويلجأ إلى أقرب الأدلة إلى الواقع الذي يفهمه ويسلم به الناس جميعا وهو أن كل عمل له مقابل ، فكأنه يقول : إذا لم أكن رسول الله ، وكان ماأدعيه لمصلحتى أنا ، فأين المقابل ، وهل طلبت منكم شيئا

مقابل ما أبذله وما أعانيه ؟ وهم لاينازعون فى أنه لم يطلب مقابلا ، ولكن الشئ الوحيد الذى يمكن أن يردوا عليه به هو أنه شاذ عن طبيعة الناس ، والشذوذ أمر محتمل وقائم فى كثير من الناس ، فالأصل فى الإنسان مثلا أن يكون مبصرا ولكن بعض الأفراد يولدون عميا ، والأصل فى الإنسان أن يكون عاقلا ، ولكن بعض الأفراد يولدون مجانين ، وهكذا ، فيمكن أن يرد على نوح بأنه شاذ عن طبيعة الناس ، ولذلك يعقب نوح مسرعا ، بأنه لم يشذ عن الناس ، وإنما هو يعمل فى الرسالة بأجر ، كما يعمل الأجراء بأجرهم ، وأجره بطبيعة الحال عند من استخدمه وهوالله ،سبحانه ويبدأ هذا العنصر أيضا بتألف قومه (وياقوم لاأسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ...) .

٣ ـ الرد على حججهم :

ويأخذ نوح فى تفنيد كل ماساقوه من حجة أو اتهام ، كما يلى :

(ا) فأما نفورهم من أتباعه الضعاف الأراذل فى نظرهم ، فيرد عليهم فيه برفق مراعيا دائما أن يحرص على ألفتهم وعدم تنفيرهم ، فيقول (وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون) ونلحظ أن نوحا يراعى فى رده هذا جوانب عدة بالاضافة إلى إيحائه وإشارته إلى أنه كان يود أن يلبى رغبتهم ويطرد هؤلاء الأتباع من حوله لولا هذه الجوانب والأسباب وأولها أن هؤلاء الأتباع آمنوا به ، وإيمانهم به يعصمهم من جهتين ، أحداهما أن الإيمان كرامة لهم ، والأخرى أن الوفاء لمن آمن به وصدقه لايبيح له إيذاءه ، وثانيها أننى لو وافقتكم وطردتهم فإنهم لابد ملاقو

ربهم يوم القيامة ، وهناك يشكونني إليه ، ولا قبل لى بهذه الشكوى ، وهذا الرد من نوح يتضمن أمراً آخر هو دعوة قومه ضمنا إلى الإيمان بالبعث ويوم القيامة ، وثالثها أن هؤلاء المؤمنين مسالمون لم يقدموا إليكم شرا ، وإنما أنتم الذين تعتدون عليهم فكيف تكونون أنتم المعتدين عليهم وتطلبون زيادة اعتداء عليهم بالطرد ؟ ، وهذا فى قوله (ولكنى أراكم قوما تجهلون) فليس معنى الجهل هنا الشتم بأنهم جاهلون قليلو المعرفة ، وإنما معنى الجهل هنا الاعتداء فى سفه وحمق ، كما يقول عمرو بن كلثوم التغلبى :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويعنى بالجهل البدء بالشر .

ولكن نوحا يعود بهم إلى موضوع الرسالة وهو العقيدة بطريق غير مباشر من خلال هذه النقطة ، قائلا لهم : تعالوا نفترض أننى وافقتكم مع كل هذا وطردتهم ، وحل بى غضب الله ، فأين من يحمينى من الله ؟ ، ألا تستخدمون عقولكم وتفكرون (أفلا تذكرون) وكأنه يقول لهم ، هل تحموننى أنتم أو آلهتكم من الله ؟ (وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ؟) .

(ب) وأما قول الخصوم (وما نرى لكم علينا من فضل) فيرد عليه نوح عارضا أفكارهم وتصوراتهم عن طبيعة الفضل نفسه : فهم يتصورون أن الفضل لابد أن يكون شيئا محسوسا محدداً ، سواء ، أكان ماديا كالمال ، أم روحيا كعلم الغيب ، أم بالخروج عن طبيعة البشر إلى طبيعة أخرى كالملكية ، فيقول لهم نوح فيما يشبه السخرية من تفكيرهم ، إننى لم أقل لكم إن الله أعطانى خزائن

ملكه وأمواله ، ولم أقل لكم إنّ الله أعطانى ما خص به نفسه وهو علم الغيب ، ولم أقل لكم إن لله سلخنى من البشرية ، وجعلنى من من الملائكة ، وكأنه يقول لهم أنتم مخطئون فى تصوركم أن الفضل لابد أن يكون بهذه الصورة ، وأن من يفضله الله لابد أن ينبيه عنه أو يشركه معه ، أو يخصه بشيء محدد كما تتصور عقولكم ، وأنتم مخطئون فى احتقاركم وازدرائكم لى ولمن معى من المؤمنين لأننا لم نكن كما تتصور عقولكم ، فالحقيقة أن الفضل ، بل الخير عامة ، إنما هو فى النفوس وما تتميز به من فضائل (الله أعلم بما فى أنفسهم) وإذا وافقتكم فى تصوركم الخاطيء أكون ظالما لكل شيء ؛ لنفسى ولمن معى ، وللحق والعقل ، ولكل شئ (ولاأقول لكم عندى خزائن الله ولاأعلم الغيب ولاأقول إنى ملك ولاأقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين)

وبهذا نجد أن نوحا قد استقصى كل حججهم وهجومهم ، ورد على كل فقرة ردا محددا واضحا ، مراعيا أمرين لايحيد عنهما :

١ ـ الحرص الشديد على تأليفهم وعدم تنفيرهم ، ولذلك يكرر فى كل فقرة (ياقوم) بالإضافة إلى تحاشى مايؤذى نفوسهم من لفظ أو معنى ، وأكثر من هذا تحاشيه الرد على ايذائهم وإساءتهم إليه وإلى من معه .

٢ ـ التزم المنطق العقلى الذى تتفق عليه كل العقول والذى لاينكره الخصوم أنفسهم ، كإلزامهم الحجة فى أنه لايطلب منهم أجراً وحتى فيما يثقل على نفوسهم لتعودهم عليه كأو ضاع الفوارق الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء ، والسادة والدهماء ، حيث تعودوا

ذلك وصاغوا حياتهم ونفسياتهم عليه ، فإن نوحا يبدى رغبته فى الترفق بهم ، بافتراض مجاراتهم فيما يطلبون ، فيفترض أنه طرد هؤلاء الفقراء الضعفاء إرضاء للسادة ، ولكنه يعود بالسادة إلى العقل حين يوجه إليهم هذا السؤال (... من ينصرنى من الله إن طردتهم . . .) . .

نتيجة المحاورة :

ومادام نوح قد استطاع الرد المقنع ، فقد انتهت المحاورة ، لأنهم أدلوا بكل مالديهم من حجج ، وهو أبطل كل هذه الحجج ، فبطلت إذن حججهم جميعا . ومعنى هذا أن نوحا قد انتصر ، ومن حقه أن يلزمهم دعواه أنه رسول من عند الله ، ويترتب على هذا التزامهم مايدعوهم إليه ، وهو وحدانية الله . وهم أنفسهم يعلمون أنهم حينئذ بين أمرين اثنين ، إما أن يأتوا بحجة جديدة ، وإما أن يسلموا له بدعواه ، وليست لديهم حجة جديده ، لأنهم استنفدوا كل ما لديهم فإذن يجب أن يسلموا ، ولكنهم لايريدون ذلك مهما كان الحق واضحا .

فلم يكن أمامهم حينئذ إلا أن يعترفوا ولو ضمنا بهزيمتهم فى المحاورة ، وانتصار نوح عليهم فيها ، وقد صاغوا ذلك فيما يشبه الذم أو اللوم لنوح بأنه كثيرالجدال ، ولكنهم يعلمون أن ذلك لاينهى الموقف ، فما زالت الدعوى ماثلة بانتصارها أمامهم تطالبهم بالاعتراف بها ، ولكنهم مصرون على المضى فى الباطل ، وكأنهم يقولون : مع هذا كله ومع عجزنا عن مجاراتك فى الحوار فما زلنا غير موقنين بما تقولون ، فان كنت صادقا فأنزل بنا العذاب

الذي تتوعدنا به (قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين)

ولكن نوحا لايريد أن يترك لهم حتى هذه الثمالة التى يبدو واضحا أنهم يريدون منها حفظ ماء وجوههم بعد الهزيمة ثم يتخذون منها ثوبا يحاولون بهستر إصرارهم على الباطل الذى دحرته المحاورة ، فيعود نوح إلى حوارهم فى هذه الثمالة ، فيقول لهم إن العذاب الذى تستعجلونه ليس لى عليه سلطان ، إنما الله سبحانه هو الذى يملك أن يوجهه ، فيأتيكم به إن شاء ، ويصرفه إن شاء فإذا أراد إحلاله بكم فليس لكم منه منجى ولامهرب (قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين) .

ولكن نوحا لشدة حرصه على إيمانهم يعاوده الحنين إلى استمالتهم فيذكرهم بأنه ناصح لهم ، ولكنه يحتفظ بالسياق الذى يتطلبه الرد ، وهو أنه مجرد رسول ، وقد أدى الرسالة بأمانة ، فالخصومة الآن ليست بينهم وبين الرسول ، لأنهم رفضوه ، ولكنها بينهم وبين من أرسله ، وهو الله سبحانه ، بيده كل شيء ، وإرادته وحدها هى التى تنفذ (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون) .

ومما يستخلص من الملحوظات فى ختام نوح للمحاورة أمران :

١ ـ أحدهما إحساسه باليأس من استجابتهم وميلهم إليه ، فبدأ ينسلخ منهم نفسيا ، ولذلك تحاشى حينئذ ماتعوداه منه

خلال المحاورة من استمالتهم ، فلم يقل فى الختام (ياقوم)

٢ - مع فقده لصلته هو بهم ، لم ييأس من صلتهم بالله عسى أن يهتدوا إليه ، فكرر تذكيرهم بالله ، وأنه ربهم ، وأنهم لابد راجعون إليه (هو ربكم وإليه ترجعون)

٢ ـ فى الاصلاح

بسم الله الرحمن الرحيم

« وإلى مدينَ أخاهم شعيباً قالَ ياقوم اعبُدُوا الله مالكُمْ من إله غيْره ولا تنقُصوا المكْيالَ والميزانَ إنّى أراكم بخيرٍ وإنّى أخافُ عليْكُم عذاب يوم محيطٍ ، وياقوْم أوفُوا المكْيال والميزانَ بالقسْط ولا تبخسوا النّاس أشياءهمْ ولا تعْثوْا فى الأرض مفسدينَ ، بقيّةُ الله خيْرٌ لكم إنْ كُنْتُمْ مؤمنينَ وما أنا عليكُم حفيظٍ

قالُوا ياشُعيْب أصلاتُكَ تأمرك أن نتْركَ مايعبد آباؤنا أوْ أن نفْعلَ فى أموالنا ما نشاء إنّكَ لأنْتَ الحليم الرّشيد .

قالَ ياقوْم أرأيتُم إنْ كُنتُ على بيّنةٍ من ربّى ورزقنى منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكُمْ إلى ما أنهاكُمْ عنْهُ إنْ أريد إلاّ الإصْلاَح ما استطَعتُ وما توفيقى إلاّ بالله عليْه توكّلتُ وإليه أنيب ، وياقوْم لايجرمنّكُم شقاقى أنْ يصيبكم مثْلُ ما أصاب قوْمَ نُوح أو قوْم هودٍ أوْ قوْم صالح وماقوْم لوط منْكُمْ ببعيد ، واستغْفروا ربّكُم ثمّ تُوبوا إليه إنّ ربّى رحيم ودودٌ .

قالُوا ياشُعيب ما نفقه كثيراً مما تقُولُ وإنّا لنراكَ فينا ضعيفاً ولوْلاَ رهطُكَ لرجمناكَ وما أنْتَ عليْنا بعزيز .

قالَ ياقوْم أرهطى أعزّ عليْكُمْ منَ الله واتّخذْتُموه وراءكُم ظهْرياً

إنَّ ربِّى بِما تَعْملُونَ محيط ، وياقوْم اعملُوا علَى مكَانَتِكُمْ إنِّى عامِلٌ سوفَ تَعْلَمُونَ منْ يأتِيهِ عَذَاب يُخْزِيه ومنْ هُو كَاذِب وارتَقِبوا إنى معكُمْ رقِيبٌ » (١)

عناصر المحاورة

١ ـ طرفا المحاورة :

وطرفا المحاورة هنا شعيب عليه السلام ، وقومه أهل مدين ، ولكننا نلحظ أنه بينما كان المحاورون مع نوح هم سادة القوم ، فإن محاورى شعيب كانوا من عامة قومه ، ولذلك نجد من دقة تعبير القرآن إبراز التماثل والتقارب الاجتماعى بينه وبينهم بذكر الأخوة (وإلى مدين أخاهم شعيبا) ولم يذكر لفظ الأخوة فى محاورة نوح ، لأن الأخوة عنوان التماثل والتواصل الاجتماعى ، وهذا لايتحقق بين القوى والضعيف ، أو السيد وغيره ، وينعكس هذا الفارق فى النوعية الاجتماعية للمحاورين على أسلوب المحاورة نفسه ، ونجد ذلك فى كثير من مواضعها ، ومن ذلك :

١ ـ محاورو نوح لكونهم من السادة ، سيطرت عليهم فى المحاورة نزعة التعالى ، والتركيز على معنى التميز والمفاضلة بين الناس ، فأول مابدأوا به هو قولهم (مانراك إلا بشرا مثلنا) لأن تفكيرهم مرتكز على أنه مالم تكن للشخص ميزة كتميز السادة عن سائر القوم ، فلاينبغى له أن يسمو على الناس ، فاذا كان القوم لايسلمون لسيدهم بالسياده إلا لصفة أو صفات معينة ، فكذلك وهم سادة

(١) الآيات ٨٤ ــ ٩٣ سورة هود .

لايسلمون لمدعى النبوة بأن يرتفع عنهم بالنبوة إلا لصفة خاصة . كأن يعطى صفات الملائكة ، وكذلك كان تفكيرهم مركزا على الفوارق الاجتماعية والشخصية حينما قالوا عن أتباع نوح (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل) . أما أسلوب محاورى شعيب فقد خلا من هذه النزعة ، وكل مابدا منهم فى هذا النحو شعورهم بأنهم أقوى منه ، والقوة والضعف لايحققان الفوارق الاجتماعية كفوارق السادة ، على أن ضعف شعيب لم يكن اجتماعيا ، وإنما كان فى ناحية واحدة ، هى قلة عدد تابعيه المؤمنين ، أما من الناحية الاجتماعية ومن حيث النسب فقد كان كفؤاً لمحاوريه ، ولذلك قالوا (ولولا رهطك لرجمناك) والرهط الجماعة ، يعنون قرابته .

٢ — اشتمل أسلوب محاورى نوح على التحدى ، وهو طابع سلوك السادة والقادة فى الخصومة ، فقد قالوا يتحدون نوحا (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) بينما خلا أسلوب محاورى شعيب من هذه النزعة .

٢ — موضوع المحاورة :

وأما موضوع المحاورة ، أو القضية التى يختصم فيها الطرفان ، فهى الإصلاح ، ولايعنى ذلك أن بين محاورى نوح وشعيب اختلافا أساسيا فى الموضوع ، فالأنبياء هدفهم واحد ، وإنما يختلفون فى أسلوب الدعوة ، والاختلاف هنا فى العموم والخصوص ؛ فمحاورة نوح منصبة كلها على العقيدة ، وهى وحدانية الله ، على أساس

إنه إذا نجح فى إقناع محاوريه بذلك ، فان تغيير السلوك سيأتى بطبيعة الحال تبعا لذلك ، حيث إن المؤمن سيبحث من تلقاء نفسه عما يرضى ربه من السلوك . وأما محاورة شعيب فقد كانت شاملة للعقيدة والسلوك ، لأنه يرى أن الموضوع كل لاداعى لتجزئته ، وربما كان لاختلاف نوعية المحاورين أثر فى ذلك ، فان انحرافات السلوك ، وظهور المساوىء فى سلوك العامة وهم محاورو شعيب أوضح منه فى سلوك السادة وهم محاورو نوح ، فان السادة أقرب إلى تجنب مساوىء السلوك أو إلى إخفائها ، وإذا لم يكن ذلك حبا فى الاعتدال ، فللمحافظة على السيادة ، وبناء على ذلك يكون أوضح مساوىء محاورى نوح العقيدة ، فصب المحاورة عليها ، وأما محاورو شعيب فكانت مساوئهم شديدة الوضوح فى العقيدة والسلوك معا ؛ ولذلك جعل المحاورة شاملة ، لتكون إصلاحا فى المجالين ، وشعيب نفسه يحدد موضوع المحاورة بقوله (إن أريد إلا الإصلاح مااستطعت) فمحاورة نوح خاصة بالعقيدة ومحاورة شعيب عامة فى العقيدة والسلوك .

فأما العقيدة فقد صاغها كما فعل نوح فيما يبرز إفراد الله سبحانه بالعبادة ، وهو معنى الوحدانية ، فكما قال نوح (لاتعبدوا إلا الله) قال شعيب (اعبدوا الله مالكم من إله غيره) والاستثناء بإلا فى كلام نوح ، يقابله حرف الجر (من) فى كلام شعيب .

وأيضا كما فعل نوح فى التمهيد النفسى فعل شعيب ، فقد بدأ كلامه بمحاولة كسب مشاعر المخاطبين ، واستمالة قلوبهم بقوله

(ياقوم) ، ثم عرض موضوع المحاورة ، ويمكن استخلاص النقاط التالية حينئذ فى إيجاز

١ ــ بدأ بالتمهيد النفسى السابق (ياقوم) .

٢ ــ عرض موضوع المحاورة ، ويتمثل عرضه فى جانبين ، أحدهما العقيدة وقد أمرهم فيها بوحدانية الله فى العبادة ، والآخر الإصلاح الاجتماعى ، وقد ركز فيه على أمرين يبدو أنهما كانا شائعين فى المجتمع كله ، وهما المكيال والميزان ، حيث كرر التوجيه فيهما ، فطلب منهم عدم النقص فيهما ، ثم طلب منهم توفيتهما بالقسط أى بالعدل ، وقد تساءل كثير من المفسرين عن حكمة الإعادة فيهما ، حيث قال لهم أولا (ولاتنقصوا المكيال والميزان) ثم أعاد الأمر بصيغة أخرى ، هى (أوفوا المكيال والميزان) ثم رد المفسرون على هذه التساؤلات بما فيه الغناء ، ومعظم الرد يدور حول أنه ترغيب لهم فى عمل الخير ، والترغيب يستدعى الايضاح والتكرار ، ولكننا نضيف احتمالين آخرين للإجابة ، أحدهما أن المكيال والميزان أكثر الأشياء شيوعا وعموما فى أى مجتمع ، حيث لايخلو أحد من التعامل بهما ، بين بائع ومشتر ، وحين فسد التعامل فيهما فى قوم شعيب ، أصبح المجتمع كله مشاركا فى هذا الفساد أو طرفاً فيه ، بين غابن ومغبون ، ولهذه الأهمية الكبيرة ، والشيوع الشديد ازداد الاهتمام بإصلاح التعامل بهما ، وأما غير المكيال والميزان من نواحى الفساد فى المجتمع فمهما بلغت خطورته فانه محصور غالبا فى نطاق معين ، والمتأثرون بكل نوع من أنواع الفساد عادة ليسوا كل المجتمع ، كما هو الحال فى المكيال والميزان ، ولذلك لم يستدع الحال إعادة الحديث فى

غير هذين النوعين من أنواع الفساد والاحتمال الآخر أن الذين يباشرون المكيال والميزان هم التجار ، وهم الذين يغشون فيهما حين يحدث الغش ، وطبيعة الذى يحترف الغش أن يكون لديه القدرة على المراوغة والخداع ، فلعل شعيبا خشى حين طلب منهم ألا ينقصوا المكيال والميزان أن يلجأ بعضهم إلى المراوغة والتضليل فى تأويل هذا الطلب ، فيقول أنا لن أنقص المكيال والميزان ، بل سأزيد فيهما ، وذلك حينما تكون الزيادة لمصلحته ، بأن يكون هذا التاجر هو الشارى ، ويكيل من سلعة البائع ، أو نحو ذلك ، ممن وصفهم القرآن الكريم فى موضع آخر بأنهم (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون [1]) فيريد شعيب أن يقطع عليهم طريق الخداع فى التأويل ، فيقول لهم لاتنقصوا المكيال والميزان ، ولاتزيدوا فيهما ، وإنما (بالقسط) يعنى بالعدل ثم يعمم شعيب طلب الإصلاح فى كل نواحى التعامل ، فيقول (ولاتبخسوا الناس أشياءهم) ثم ينتقل إلى طلب الإصلاح عامة فى كل ناحية من نواحى الحياة والمجتمع ، فيقول (ولاتعثوا فى الأرض مفسدين) .

٣ — يعاود شعيب الحرص الشديد على استمالتهم وتأليفهم ، فنلحظ أنه فى كل مرة يطلب منهم مطلبا وإن كان مكررا ، يدلى إليهم بشىء ودى من شأنه أن يريح النفس ، ويجذب الفؤاد ، فيقول لهم أولا (ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير)

---

(١) الآيتان ٣،٢ سورة المطففين .

ومعنى بخير أنتم فى نعمة من الله ولستم فى حاجة إلى التطفيف والبخس فى الكيل والوزن . ولكن ظاهر ألفاظ التعبير تحمل مايشبه المدح لهم ، خاصة وأن لفظ (أراكم) يعنى أنه يوضح لهم أن هذا المدح صادر منه هو ، ويمثل رأيه فيهم ، وهذا كله من شأنه أن يكسب قلوبهم وكذلك حينما طلب منهم التوفية وعدم البخس ، قال لهم (بقية الله خير لكم ...) وهذا التعبير وان كان يتضمن نصيحة لهم بأن مايبقيه الله لهم من الرزق الحلال خير من الرزق الحرام الذى يجنونه من الغش ، إلا أنها نصيحة مصوغة بأسلوب الود والاستمالة .

٤ – يحاول شعيب أن يستفيد بكل المؤثرات النفسية عليهم ، وأن يأتى نفوسهم من جميع أقطارها ، فبعد أن قربهم نفسيا بتكراره (يا قوم) وبعد أن عرض عليهم الموضوع فى رفق ، وبعد أن حرص على استمالتهم بما سبق حديثه ، يحاول أن يأتيهم من جانب التهديد ، ليستعمل مع نفوسهم كل أسلحة اللين والشدة ، فاذا لم يصلح هذا ، فعسى أن يصلح ذاك ، فيقول لهم منذرا (إنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) ولكننا نلحظ من روعة هذا التعبير ، أنه يجمع بين غاية الرحمة ، وغاية الشدة معا ، فأما الرحمة ففى قوله (أخاف عليكم) حيث يوحى إشفاقه المتجدد المستمر عليهم ، كما يفهم من صيغة المضارع ، وأما الشدة ، ففى كونه كما فعل نوح ، جعل لهم العذاب عذابين ، العذاب نفسه أولا ، ثم اليوم الذى يوجد فيه العذاب وصفه بأنه محيط ، أى محدق بهم لافرار منه ، والمحيط فى الحقيقة هو العذاب وليس اليوم ، ولكنه أراد المبالغة فى وصف العذاب

٥ ــ من حكمة أسلوب شعيب ، أنه يريد أن يجعل كل كلامه مؤثرا وجاذبا لهم ، وأن يبعد عن نفوسهم وأوهامهم أى احتمال يبعدهم وينفرهم ، فهو يخشى أن يظنوا من هذا المنطق أن شعيباً يريد أن يتحكم أو يسيطر ؛ أوحتى أن يشرف عليهم ، فيوضح لهم أن ليس لديه من هذا شىء ، ولايملك منه شيئا ، فالأمر كله بيد الله ، وأما هو فيقول (وما أنا عليكم بحفيظ) أى لم يرسلنى الله متسلطا ولامراقبا لأعمالكم ، ولامحاقبا لكم . فهذا كله لله ، وهذا المعنى من شأنه أن يزيد من نفوس قومه اطمئنانا إليه ، وأن يبعد عنها وساوس النفور ، وأن يجعل مطالب شعيب ، وأوامره ونواهيه ، لاتثير فيهم نفورا ولاتبرما ، لكونها لم تصدر من متسلط أو متحكم ، وانما من ناصح مشفق ، يريد أن يهديهم إلى خيرهم هم ، وليس إلى خيره هو .

٣ ــ موقف الخصم :

ويبدو الفارق النوعي بين خصوم نوح فى المحاورة وخصوم شعيب، فى أسلوب كل منهما فى المحاورة فأما خصوم نوح السادة ، فقد حاولوا جهدهم الاعتماد على المنطق العقلى ، وأن يجعلوا أسلوبهم يسير على منهج عقلى كما سبق قدر استطاعتهم ، أما خصوم شعيب وهم من أوساط الناس وعامتهم ، فلم يبلغوا هذه الدرجة ، حيث من الواضح أن السادة فى كل قوم إنما رفعتهم عادة عقولهم ، أو أسهمت على الأقل فى رفعهم إلى السيادة ، أما خصوم شعيب فنلحظ أنهم تحاشوا الجانب العقلى فى حوارهم إطلاقا ، فلم يحاولوا الاعتماد عليه ،

بل ولا استخدامه بوصفه عنصراً من عناصر محاورتهم ، وإنما اعتمدوا اعتماداً كاملا على السخرية من شعيب وتدينه (قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء إنك لأنت الحليم الرشيد) والاعتماد على السخرية ، واستخدام الفكاهة الهادفة ظاهرة شعبية ، يعرفها الباحثون فى علم النفس وفى الأدب الشعبى ، فهى ظاهرة تمثل الشعوب وعامة المجتمع ، وإن صدرت من أفراد . وأما عن اعتماد خصوم شعيب على السخرية ، فلأن كلامهم كله كان سخرية ، سخروا من صلاته ، فهم يسألونه : هل صلاته هى التى أمرته أن يقول ماقال فى العبادة ، وهم يعلمون أن الصلاة لايصدر منها فعل ولاقول ، ولكنهم يسخرون من صلاته من جهة ، ويحطون من قدره من جهة أخرى ، وكأنهم يقولون إن ماقلته لاينبغى أن يصدر من عاقل ، فمن الذى أصدره إليك هل الصلاة ؟ .

وسخروا من طلب إصلاحه فى المعاملات عامة ، وعنوانها المكيال والميزان ، وتجاهلوا أنه طلب منهم العدل فيهما ، فادعوا ساخرين أنه يريد منهم بعثرة أموالهم حسب أهوائهم أو هواه هو (أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء) بنون المضارعة للمتكلمين فى الفعلين ، وقرئ (أو أن تفعل فى أموالنا ماتشاء) بتاء الخطاب فى الفعلين ، وكلا المعنيين يدل على أنهم تجاهلوا أن شعيبا طلب منهم وضع قواعد عادلة للتعامل ، وادعوا أنه يطلب منهم إخضاع التعامل للهوى سواء أكان هواهم أم هواه ، وقد صاغوا ذلك بأسلوب السخرية

الذى يتركز فى (نفعل فى أموالنا) فإنه يفيد التنكيل والقسوة ، كأن تقول لشخص : ماينبغى أن تفعل بفلان هذا .

وسخروا من شعيب نفسه بقولهم (إنك لأنت الحليم الرشيد) فمن الواضح أنهم لايريدون وصفه بالعقل والحكمة ، ولابالرشد فى السلوك كما يقولون ، وإنما يريدون وصفه بعكس ذلك على وجه التحديد ، كما تقول لشخص فى موقف بخل واضح : ماهذا الجود ؟ فأنت تسخر منه قاصداً عكس الجود . فهم من خلال سخريتهم يريدون وصف شعيب عليه السلام ، بغاية السفه فى التفكير ، وغاية الضلال فى السلوك .

وهذه هى كل ردودهم على ماأثاره شعيب من موضوع المحاورة

وواضح من هذه الردود أنها مجرد شتائم مصوغة بأسلوب السخرية لتكون أبلغ تأثيرا وأوجع فى النفوس ، فمن المعروف أن السخرية أشد الأساليب إيلاما وإيذاء لمن توجه إليه ، ولذلك نجد القرآن الكريم يصف أثر السخرية والاستهزاء فى صدر محمد صلى الله عليه وسلم (إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون)[1] وإذا ضاق صدر محمد الواسع الحلم والذى شهد له القرآن بالخلق العظيم [2] ، فكيف بصدور غيره من الأنبياء والمصلحين ، فضلا عن سائر الناس ؟ .

وإذن فهى شتائم، أيا كان الأسلوب الذى صيغت به ، ولوجود

(١) الآيات ٩٥ ــ ٩٧ آخر سورة الحجر .
(٢) الآية ٤ سورة القلم .

الخصم إلى الشتائم فى أى مناظرة أو محاورة عقلية معناه الهزيمة ، أو هى على وجه التحديد بداية الشعور بالهزيمة ، لأن الشتائم ليست سلاح المحاورة ، وكلا الطرفين يعرف مقدماً أن الحجة هى السلاح حينئذ ، فإذا نفدت حجج أحد الخصمين ، أو لم توجد لديه أصلا ، لجأ إلى بديل يحاول أن ينال به من خصمه ، أو يستر به سوء موقفه ، وأيسر ذلك الشتائم التى تدل على فقدان الثقة بالنفس فى هذا الموقف ، وهذا مافعله محاورو شعيب ، فكأنهم رأوا الحق واضحا فى كلام شعيب ، وليست لديهم حجة للرد عليه ، وليست لديهم مقدرة على محاولة التضليل العقلى كما فعل سادة قوم نوح ، مع إصرارهم على عدم الاستجابة لشعيب ، فلجأوا إلى الشتائم للنيل من شعيب ، ولستر شعورهم بالعجز والهزيمة .

ونستخلص من ذلك أن رد قوم شعيب خلا من المنطق العقلى ، بل تحاشوا موضوع المحاورة كله ، فلم يراجعوا شعيبا فيه ، ولم يتعرضوا له إلا فى ثنايا سخريتهم ، لأن شعيبا يطلب منهم عبادة الله وحده ، فلم يقولوا له رأيهم فى هذا إلا قولهم خلال السخرية ، إن عبادة آلهتهم ميراث عن الآباء ، على أن هذا الرد منهم فى سياق المحاورة يعد نوعاً من العجز العقلى فى التحاور ، وقالوا ذلك فى غير المحاورة لكانت لهم فيه وجهة نظر من حيث العادات والتقاليد وسلطانها على المجتمعات ، ولكن المحاور لاينبغى ولايقبل منه أن يلغى عقله وهو كل سلاحه فى المحاورة ، ليأتى بآبائه الموتى يحاورون مكانه ، وكذلك ماطلبه شعيب منهم من الإصلاح الاجتماعى ، تحاشوا جعله موضوعا يحاورونه فيه ، وكل مافعلوه أن أوردوه

عرضاً خلال سخريتهم ، ولو كانت لديهم حجة ، أو مقدرة عقلية حتى على المراوغة ماتركوا الميدان لشعيب يلمع فيه دون منافس .

٤ ـ موقف الرسول :

وكخلق الأنبياء وأصحاب الدعوات فى تجاهل مايوجه إلى أشخاصهم ، واهتمامهم بدعواتهم ومايوجه إليها ، كذلك فعل شعيب ، لأن النصر الحقيقى لصاحب الدين أو الدعوة هو انتصار مايدعو إليه ، أما شخصه فهو منطو فى دعوته ، انتصاراً أو فشلا .

لذلك نجد شعيبا يتجاهل شتائم محاوريه ، وسخريتهم منه ، ويركز منطقه على مايدعو إليه ، ويمكن تلخيص رد شعيب عليهم فى النقاط الآتية :

١ ـ يدعوهم إلى العقل أولا كما فعل نوح ، فكأنه يقول لهم : أخبرونى عمن وضعه الله موضع المصلح ، أو منحه النبوة ، ماذا يفعل غير أن يدعو إلى الاصلاح والدين ؟ (أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسنا . . .)

٢ ـ وكما فعل نوح فى دعوتهم إلى دليل من الواقع الذى لايختلف عليه الناس ، ولاينازع فيه الخصوم ، كذلك فعل شعيب ، فكأنه يقول لهم : أنا منفذ ماطلبته منكم فى نفسى ، أفلا تفكرون : لو كان ما أدعوكم إليه شراً فكيف أعمل أنا به ؟ وهل أحسستم منى ميلا إلى عكس ماأدعوكم إليه ؟ (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) والمخالفة هى الاتجاه فى عكس اتجاه شىء آخر . وهذا المعنى يتضمن دليلا واقعيا لايختلف فيه الناس ، هو أن الإنسان

بطبيعته يحب لنفسه كل الخير ، فيطبق شعيب هذا فى المحاورة قائلا لهم : من أدله صدق أنى أعمل بما أدعوكم إليه ، فلو لم يكن هذا خيراً ما ألزمت نفسى إياه : فهل أنا صادق أم وجدتمونى أفعل عكس ماأدعوكم إليه ؟

٣ ـ وكما فعل نوح فى إبعاده عن نفوسهم أى وهم فى أن يظنوا به رغبة فى الاستئثار بأى شىء مما يهدف إليه الناس ، من مجد أو تسلط أو زعامة أو أى مصلحة شخصية ، فان شعيبا يقول (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) ويوضح لهم وضوحا لالبس فيه، أن الأمركله بيد الله ، سواء بدؤه ومنتهاه (وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) .

٤ ـ بعد هذا كله ، وبعد استنفاد كل وسائل الترغيب ، يضيف أيضا بقية جوانب التأثير فى نفوسهم ، ومن ذلك التهديد والتخويف ، ولكنه يأتيهم من جانب الفكر والموعظة ، طالبا منهم أن يتعظوا بالأمم التى فعلت مثل فعلهم فأهلكهم الله ، وأول مايخشاه عليهم مخالفتهم إياه ، وجدالهم وشقاقهم فى الحق الواضح (وياقَوْمِ لا يجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أصاب قَوْمَ نُوح أَوْ قَوْم هُود أَوْ قَوْم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) ولايجرمنكم أى لايكسبنكم يريد أنه يخشى أن يكون شقاقهم وخلافهم إياه سببا فى هلاكهم كما هلك أولئك الأقوام .

٥ ـ لشدة حرص شعيب على كسبهم فى المؤمنين يعود إلى ترغيبهم مذكرا إياهم بأن الله سبحانه لديه كل الرحمة والود ،

وليس بينهم وبين رحمته ووده إلا أن يستغفروه مما سلف ، وأن يعودوا (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود) ونلحظ دقة شديدة فى كلام شعيب عن الله سبحانه ، فمع أن الله ربه وربهم جميعا ، إلا أنه يقول أولا (استغفروا ربكم) مراعاة لأن الله غاضب عليهم ، وهذا يقتضى أن يستغفروه ، ثم حينما وصف الله بالرحمة لم يقل إن ربكم رحيم ، وإنما قال (إن ربى رحيم) مراعاة لأن رحمة الله لاتنال الكافرين ، وإنما تنال حينئذ شعيباً ومن معه .

نتيجة المحاورة :

ويبدو أثر نوعية المحاورين أيضا فى ختام المحاورة ونتيجتها ، ومن حيث إن محاورى شعيب لم يكونوا من ذوى الرأى والعقل فى قومهم ، لذلك لم يظهروا أى مقدرة عقلية لهم فى المحاورة كما سبق ، ثم هم يعلنون هزيمتهم ضمنا وانتصار شعيب عليهم ، والذى يلفت النظر هو الطريقة التى أعلنوا بها عجزهم أو هزيمتهم ، حيث نفاجأ لاباستسلامهم ، ولابعجزهم فحسب ، وإنما بأسوأ من ذلك وهو أنهم لم يفهموا ولم يفقهوا كثيراً مما قاله لهم شعيب ، وهذا اعتراف صريح منهم بضعف عقولهم ، وانخفاض ذكائهم إلى هذا الحد الواضح (مانفقه كثيراً مما تقول)

بينما نجد محاورى نوح لكونهم من السادة ذوى الرأى والعقل فى قومهم ، يفهمون ماقال لهم نوح ، ويقدرونه قدره العقلى رغم معارضتهم فيعترفون لنوح بقوة المعارضة فى الحوار بقولهم (يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) ولايقولون لم نفقه كما قال محاورو شعيب .

والشعور بالهزيمة فى المحاورة عامل نفسى مثير ، يدفعهم إلى التماس شىء ينالون به من خصمهم شعيب ، ويسترون به هزيمتهم أمام الناس ، وإذا كانوا قد لجأوا إلى الشتائم أثناء المحاورة عند إحساسهم بالعجز ، فإن الشتائم لاتكفى عند تحقق هزيمتهم ، ولذلك فكروا فى أن يقتلوا شعيباً بالرجم ، وما أكثر مافعل الأقوام بأنبيائهم مثل ذلك ، وخاصة بنى إسرائيل ، ولكن شيئا واحداً منع قوم شعيب من رجمه ، هو قرابته القوية ، التى تغضب له نسباً لاديناً (قالوا ياشعيب مانفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وماأنت علينا بعزيز) .

ولكن شعيبا صاحب الدين والدعوة لايعنيه من ذلك شىء إلا أن يحرص على اقتناص أدنى فرصة يرى فيها شيئاً من أمل فى تقريبهم إلى الله ، فيعاود استمالتهم إلى الدين ، ويواصل محاجتهم والرد على كلامهم الذى أرادوا أن يختموا به حوارهم ، فيقول لهم إذا كنتم تعتدون بى من أجل رهطى ، فقد كان ينبغى أن يكون الله أعز عليكم من رهطى ، ولكنكم نسيتم الله حتى طرحتم شأنه وراء ظهوركم ، وكأنه لايعنيكم مع أن الله محيط بكم وبكل ماتعملون .

وعندما وصل شعيب إلى حالة اليأس منهم ، لجأ إلى الوعيد بالأسلوب الرائع ، الذى يملأ النفوس روعا ، والذى يصدر من شعيب الذى يوصف بأنه خطيب الأنبياء ، فكأنه يقول لهم : مادمتم مصرين على الكفر والفساد بعد كل ذلك ، فابقوا على كفركم وفسادكم وسأبقى أنا على إيمانى وصلاحى ، ولاأقول لكم من الذى

سيحل به العذاب والخزى المهين ، ومن الذى سيظهر دون ريب أنه كاذب ، فانتظروا وأنا منتظر معكم .

ولكن هذا التخليف اللفظى الذى صاغ به شعيب كلامه ، لايقلل من أثر الوعيد ، بل يزيده عمقاً وتأثيرا ، لأن هذا الأسلوب يبدو واضحا أنه نابع من الثقة الكاملة لدى المتحدث فيا يقول .

ومن الملحوظات أن شعيبا لم يتخل عن استمالة قومه ، بمثل قوله (ياقوم) إلى آخر المحاورة ، وحتى عندما ختموا المحاورة مصرين على الكفر ، فان شعيبا كأنه لم ييأس منهم ، وإنما لديه أمل ولو كالبصيص ، فيناديهم من أجله بقوله (ياقوم) وحتى أنه فى آخر ماوجهه إليهم من كلام الوعيد ، يقول لهم (وارتقبوا إنى معكم رقيب) ويلفت النظر قوله (معكم) فانه يفيد فى ظاهره الصحبة ؛ وهى وان لم تكن موجودة فى الواقع ، إلا أن إبرازها ظاهرا يكون من عوامل استمالتهم . وقد تمثل ذلك كله فى قوله (قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط ، وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب)

ومن الملحوظات الواضحة أيضا فى أسلوب شعيب عليه السلام فى المحاورة إنصاف الخصم ، حتى إنه يتخلى عن تطبيق آثار وجهة نظره فى المحاورة على نفسه ، مراعاة لمشاعر الخصم فى المحاورة رغبة فى الوصول إلى كسبه ، ووجهة شعيب فى المحاورة أنه ومن معه مؤمنون بالله ، وعاملون بما أمروا به ، وجزاء من يفعل ذلك الثواب العظيم فى الدنيا والآخرة ، وجزاء المخالف العقاب الأليم

فيهما ، ومن حق شعيب فى المحاورة أن يطبق هذا على نفسه ، كأنه يقول لخصمه ، وخاصة فى ختام المحاورة .

جزاء المؤمن الصالح رضا الله وثوابه ، وجزاء الكافر المفسد مثلكم غضب الله وعذابه ، ولكنه زيادة فى إشعار خصمه بالإنصاف ، كأنه يقول لهم لاأقول لكم من منا سيحل به عذاب الله ، فلنفترض أنى وأنتم فى انتظار هذا العذاب المخزى ، فانتظروا معى وسترون عما قريب بمن يحل العذاب ، ومع أن مراد شعيب فى غاية الوضوح ، إلا أنه لايملك إنصافا لهم فوق هذا .

بل أبلغ ما فى هذا الإنصاف أنه يأتى بعد انتصار شعيب ، وظهور الحق على لسانه ، واعترافهم ضمنا بهزيمتهم أمامه ، وهذا الاعتراف الضمنى يقتضى أنه على الحق ، وأنهم على الباطل ، وأن هذا العذاب من نصيبهم هم ، فلو قال لهم شعيب بعد هذه النتيجة انتظروا العذاب ، لكان تسلسلا منطقيا منتظرا ، ولاغرابة فيه ، ولكنه يتخلى عن هذا الحق ، ليتخذ من هذا التخلى وسيلة إلى تأليف قلوبهم ، وحتى لايترك خيطا واحدا من خيوط الأمل فى الأخذ بيدهم إلى طريق الله .

العبرة :

والقرآن الكريم لايسوق أخبار الماضين وقصصهم لمجرد التسلية أو رواية الأخبار ، وإنما ليتخذ منها السامعون فى كل زمان ومكان عبرة وموعظة يستفيدون بها فى واقعهم ، وذلك لأن كل ماساقه القرآن من أخبار الماضين ، لايتسم بأى طابع شخص ،

يعنى أنه لايورد أمورا شخصية لاتعنى غير أصحاب هذه الأمور التى حدثت فى القديم ، وإنما يورد الأمور ذات المضمون العام الذى يعنى الناس ، وان حدثت لشخص أو أشخاص معينين ، من الأمم السابقة .

ومن الواضح أن كل ماساقه القران الكريم من أخبار الماضين ، يتعلق من قريب أو بعيد بأحد أمرين ، إما العقيدة ، وإما السلوك ، وكلا الأمرين هدف أساسى للقرآن فى دعوته ، فانه يدعو إلى العقيدة الصحيحة ، وإلى السلوك القويم معا ، يدعو إليهما مباشرة أحيانا ، ويدعو إليهما بأسلوب غير مباشر أحيانا أخرى ، ومن هذه الأساليب أسلوب المحاورة كما قلنا ، ففى محاورة نوح مع قومه ، يدعو القرآن إلى العقيدة الصحيحة ، على لسان نوح ،متخذا من قصته مع قومه عبرة يدعو السامعين صراحة إلى الاعتبار بها ، وفى محاورة شعيب مع قومه يدعو القرآن إلى الإصلاح الدينى والعمل عامة على لسان شعيب ، متخذا من قصة شعيب مع قومه عبرة أيضا يدعو السامعين ضمنا إلى الاتعاظ بها

والملحوظ أن المحاورات ، وأخبار الماضين عامة يعقبها توضيح العبرة من ذكرها ، فنجد فى المحاورة مثلا نتيجة إصرار المعادين للانبياء والمصلحين على كفرهم وعصيانهم ، ليتخذ السامعون من ذلك عبرة فى أنفسهم ، فلايسلكوا ماسلكه هؤلاء المعادون .

وأوضح ماتكون العبرة فى مقام الوعيد ، لأهميته فى اتعاظ السامعين به ، ولذلك نجد العقاب واضحا عقب كل خبر من أخبار المعادين السابقين

ولكن المحاورات تزيد هذا الوعيد وضوحا وإبرازا ، وبالتالى تأثيرا فى السامعين ، حيث إنها فى أغلب الأحيان تسبق الوعيد بمرحلة ، هى الإنذار بهذا الوعيد ، على لسان المحاور المؤمن ، وإذا هذا الإنذار يتحقق كما أنذر به المؤمن الداعية ، كما قال نوح لقومه بعد المحاورة (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) وإذا العذاب ينزل ، فيهلكون جميعا غرقى فى الطوفان ، وكما قال شعيب مثل قول نوح (سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب) ولم يطل ترقبهم ، فإذا الصيحة تدمرهم فيصبحوا فى ديارهم جاثمين

وأهمية هذه الصورة من العبرة بالغة الأثر ، حيث إن القرآن ينذر المعاندين بعذاب عاجل أو آجل ، وحينئذ يشير إليهم تصريحا أو تلميحا أنهم لن يكونوا خيراً من هؤلاء السابقين لو أصروا على العناد

٣ ــ بين الخير والشر

فى قتل النفس

بسم الله الرحمن الرحيم

« واتلُ عليهِمْ نبأ ابنَىْ آدم بالحقّ إذْ قرّبا قُرباناً فتُقبِّلَ مِن أحدهما ولم يُتقبّلْ من الآخر قال لأقتلنّك قال إنّما يتقبّلُ الله من المتقين ، لئن بسطتَ إلىّ يدكَ لِتقتُلنى ماأنَا بباسِطٍ يدى إليكَ لأقتُلكَ إنى أخافُ الله ربّ العالمِينَ ، إنىّ أُرِيد أنْ تبوء بإثمى وإثمك فتكُونَ مِنْ أصحاب النّار وذَلِكَ جزاء الظّالمِينَ ، فطوّعتْ لهُ نفسه قتْلَ أخِيه فقتَلهُ فأصْبح مِنَ الخاسِرين ، فبعثَ الله غُراباً يبْحثُ فى الأرْضِ لِيُرِيهُ كَيْفَ يُوارِى سوءةَ أخِيه قَالَ ياويلتَا أعجزْتُ أنْ أكُونَ مِثلَ هذَا الغُرابِ فأُوارِى سوءةَ أخِى فأصْبح مِنَ النَادِمِينَ ، مِنْ أجلِ ذَلِكَ كتَبنَا علَى بنِى إسرائِيلَ أنّهُ منْ قتَلَ نفْساً بِغَيْرِ نفْسٍ أو فَسادٍ فى الأرْضِ فكأنّما قتَلَ النّاسَ جميعاً ومَنْ أحياها فكأنّما أحْيا النَّاس جَمِيعا ولَقَد جاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبيِّناتِ ثُمّ إنّ كثيراً منهم بعْد ذَلِكَ فِى الأرْضِ لمُسرِفُونَ »[1]

---

(١) الآيات ٢٧ ــ ٣٢ سورة المائدة .

جوانب المحاورة

١ ـ طرفا المحاورة :

هما شخصان أقرب إلى الرمز منهما إلى التعريف بهما ، بمعنى أن حديثهما لم يسق لأهمية نسبته إلى شخص أو أشخاص معينين وإنما لأهمية موضوع المحاورة ، وموضوع المحاورة فى جملته صراع بين الخير والشر ، وأحد هذين الشخصين مجرد رمز للخير ، والآخر مجرد رمز للشر ، وسواء أكان هذان الشخصان ابنى آدم من صلبه كما يروى بعض المفسرين ، وأن رمز الخير منهما يسمى هابيل ، ورمز الشر يسمى قابيل ـ وأن سبب ما كان بينهما أنهما حينما عزما على الزواج ، كان نصيب هابيل الفتاة الجميلة ونصيب قابيل دون ذلك ، فحسده الأخير على جمال نصيبه ، وأراد أن يحول بينه وبينها ، فاحتكما إلى أبيهما آدم ، فحكم بأن يقرب كل منهما قربانا ، فأيهما نزلت نار فأكلت قربانه ، فهو المقبول عند الله وهو الذى يتزوج الجميلة ، وقربا القربان فتقبل قربان هابيل صاحب النصيب الجميل ، فازداد قابيل حسدا ونقمة على أخيه ، وعزم على أن يقتله ، نقول سواء أكانا ابنى آدم من صلبه ، أم كانا شخصين من بنى إسرائيل ، أم من غيرهم ، فليس المهم أن يكون كل منهما علما معروفا بشخصه كما أردنا من لفظ التعريف فى بدء الحديث وإنما المهم وضع كل منهما بوصفه رمزاً للعامل الذى دفعه إلى سلوك ماسلك ، وقد كان الدافع وراء قابيل هو الشر ، أيا كان نوع هذا الشر ، كما كان الدافع وراء هابيل هو الخير أيا كان نوع هذا الخير

غير أن الملحوظ أن أصحاب الرأى القائل بانهما ابنا آدم من الواضح أنهم راعوا ظاهرا لفظ القرآن (ابنى آدم (وأن أصحاب الرأى القائل بانهما من بنى إسرائيل راعوا التعقيب الذى أورده القرآن فى آخر القصة (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل) ولكن كلا الرأيين يعتمد على الفهم والاستنباط من ألفاظ القصة ، دون سند موثوق به من الأحاديث الشريفة ، والواقع أن كل ماعدا الحديث النبوى الصحيح من آراء المفسرين ولو كانوا من الصحابة إنما يعتمد على مجرد الفهم الشخصى من القرآن ، أو النقل عن أصحاب الأديان الأخرى ، وكل ذلك ليس حجة فى التفسير للقرآن بل بعض ذلك ينبغى أن تبذل جهود جادة لنبذه ولفت الأنظار إليه فان ماق بعضه من إسفاف ، لايليق أن يفسر به جلال القرآن الكريم .

وأما عن الأسباب غير المباشرة للقتل فنرجح أنها ليست إلا عوامل نفسية من قبيل الحسد كما فى قصة إخوة يوسف ، والذى يعنينا من ذلك أن تحديد شخصى المتحاورين هنا أو نسبهما أوزمانهما ليست له أهمية خاصة ، لكون كل منهما مجرد رمز لمعنى ، ولسلوك يسلكه غيره من الناس .

٢ ــ موضوع المحاورة :

وموضوع المحاورة يدور حول قتل النفس ، وهو جريمة لاريب فى ذلك ، ولكننا نقول مع أن القرآن ذكر كثيرا من الجرائم ناهيا عنها ، إلا أنه لم يخص جريمة فى النهى عنها بهذه الصورة من أسلوب التحاور إلا جريمة القتل ، لأنها أبشع الجرائم بعد الكفر ، وما عداها

من صور العدوان ، إنما هو عدوان جزئى ، على المال أو العرض ، ويبقى مع ذلك المتدى عليه ، أو تبقى بقية من الشىء المعتدى عليه ، أما القتل فهو إبادة للمعتدى عليه كله ، بالإضافة إلى أن المعتدى عليه فى حالة القتل وهو الإنسان ، يتميز بقيمة خصه الله بها ، لايحظى بها مخلوق أرضى آخر ، ولذلك نجد القرآن الكريم ينذر القاتل بأنواع متعددة متوالية من العقاب ، لانراها فى جريمة أخرى ، كقوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما [1]) فالعقاب جهنم ، ثم الخلود فيها ، ثم غضب الله ، ثم لعنته ثم عذاب عظيم غير محدد ، للنفوس أن تتصور من هَوْله ماتشاء ، وإذن فقتل النفس جريمة ليست ككل الجرائم ، ولذلك جاءت فى أسلوب التحاور .

وليس موضوع المحاورة شيئا من الأسباب نشأت بين ابنى آدم فأدت إلى هذه الجريمة ، فهما لم يتخذا الأسباب مجالا للتحاور ، وإنما بدأ حوارهما هنا عندما بدأت مراحل جريمة القتل ، وأولاها العزم . وإذا كنا ألفنا فى المحاورتين السابقتين أن يكون المؤمن هو الذى يثير موضوع المحاورة ، بوصفه داعيا إلى هذا الموضوع فان المثير للموضوع هنا هو المجرم الذى بدأ الجريمة من أولى مراحلها .

٣ ـ موقف الظالم :

وموقف الظالم كان نفسيا أوضح منه كلاميا ؛ بمعنى أنه لم يعتمد فى موقفه على الكلام ، وإنما اعتمد على توازع نفسه ، وقد

---

(١) الآية ٩٣ سورة النساء .

تركزت نوازعه فى الحسد الجامح العنيف الذى اجتاح نفسه ، وسيطر على كل مشاعره ، بل وعلى كل تفكيره وقد تمثل هذا فى هذا المعنى (إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر) وكان الظالم هو الذى لم يتقبل منه قربانه ، فكانت نوازع نفسه هى الصاخبة الدافقة ، وأما كلامه ، فقد حدده فى قوله لأخيه المظلوم (لأقتلنك) دون أن يعلل هذا القرار بأى تعليل ، ولو كان تضليلا أو مغالطة عقلية كما يلجأ بعض أصحاب الباطل .

وإذا كنا لمسنا فيما سبق أن اللجوء إلى العدوان إنما يكون عندما يشعر أحد الطرفين بالعجز العقلى ، أو عند الشعور بالهزيمة ، فهذا ليس استنتاجا خاصا بموقف معين ، بل يمكن أن يقال إنه حكم عام ، هو ان الذين يلجأون إلى العدوان ، إنما يدفعهم إلى ذلك شعور من نحو ماسبق ، إحساس بالهزيمة أو عجز عن التمكن من الحق ، فيلجأ إلى العدوان وبذلك ندرك أن العدوان مظهر ضعف ، أعنى تابعا من ضعف ، وليس مظهر تمكن أو قدرة ، والعدوان بطبيعة الحال مدلوله غير مدلول القوة ، فان القوة فضيلة تنبع من نزعة خير ، أما العدوان فهو رذيلة تنبع من نزعة شر .

وينطبق هذا أيضا على الموقف هنا ، فمن الواضح أن عدوانه على أخيه دون حق جريمة ، وقد نبعت هذه الجريمة من نزعة شر ، هى حسده لأخيه على ماأنعم الله عليه به دونه ، وحرمانه من هذه النعمة يولد لديه إحساسا بالعجز ، أو الهزيمة بالقياس إلى أخيه الذى يتوهم هو أنه منافس له ، ولو كان هذا الظالم حظى بهذه النعمة لما فكر فى الجريمة ، لأنه لوحظى بها كان سيشعر بالتفوق ، أوعدم

الهزيمة ، فليس لديه حينئذ دافع إلى الجريمة أو العدوان . وإذن فالعدوان عامة ، ومنه كل صور الجرائم ، إنما ينبع من شعور بالعجز أو الهزيمة أو الفشل بصفة عامة ، وليس العدوان مظهر قوة كما يوحى بذلك ظاهر الأمر .

وكما كان يفعل محاورو نوح وشعيب فيما رأينا ، من لجوئهم إلى العدوان حينما يحسون الهزيمة فى المحاورة كذلك فعل قابيل الظالم ، حينما أحس بالهزيمة أمام أخيه مرتين ، صمم على قتله ، مرة حينما حظى بنعمة لم يحظ هو بمثلها ، ومرة عندما تقبل الله قربانه ولم يتقبل قربانه هو ، وصاغ هذا التصميم فى هذا التأكيد الجازم (لأقتلنك) ولم يقل غير هذه الكلمة ، لأن نفسه لاتحمل حينئذ إلا هذا التصميم ، ولم يعقب على هذا العزم بأى تعليل أوحجة ، لأنه لاحجة ولامنطق له ، ولالمن هو فى مثل موقفه الذى يعانى الشعور بالحرمان من بلوغ الهدف ، وهو مايسميه علماء النفس بالإحباط وهو أن يوجد عائق أو مانع يحول بين الإنسان وبلوغ مايريد أن يحققه ، كأن يحول شخص بين شخص آخر وبلوغ أمنية كان فى سبيله إلى تحقيقها ، وعلماء النفس يلحظون أن هذا الشخص الممنوع تسيطر عليه انفعالات شديدة التأثر ، فاذا تمثل هذا الانفعال فى غضب فقد يدفع صاحبه إلى ارتكاب أى شىء ، كما يرى فى تحطيم الطفل حينئذ مايستطيع تحطيمه تحت وطأة هذا الانفعال وإذا تمثل انفعاله فى شعور بالفشل ، فقد يصاب هذا الشخص أحيانا بأمراض نفسية أو عضوية لاحدود لها .

وفى حالة قابيل هذه يمكن أن نقول إنها نوع مما يتحدث عنه

علماء النفس عن الإحباط ، فسيطر عليه هذا الشعور الغاضب ، فأطلق نفسه على طبيعتها الحيوانية مصمما على تحطيم العقبة التى ظنها حالت بينه وبين اتجاهه ، وكانت العقبة فى نظره أخاه هابيل فصمم على تحطيمها ، ولم يكن لديه رادع لامن العقل ، ولامن الإيمان وهما السياج الذى يكبح جماح النفس الأمارة بالسوء ، ويحول دون انطلاق الغرائز فى طابعها الحيوانى (فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين) .

٤ ـ موقف المظلوم :

ولكن المظلوم كان يمثل الخير فى موقفه . وإذا كان أخوه الشرير قد أطلق حيوانيته على سجيتها دون رادع من عقل أو إيمان ، فإن الأخ الخير قد اعتصم بعقله وإيمانه كليهما فى معالجة للموقف ، والموقف واضح مما سبق ، فأخوه مصمم على قتله ، وعليه هو أن أن يحدد موقفه . مع مراعاة أن للموقف انحصر فى القتل بالذات ، وليس هناك موقف وسط ، فالأخ الشرير مصمم على القتل تصميما لارجعة فيه ، وأصبح الآخر بين أمرين لاثالث لهما ، إما أن يقتل هذا الشرير ليبقى على حياة نفسه ، وإما أن يستسلم له فيقتله ، وإذا ذهبنا نستوضح موقف هذا الأخ الخير نلمح فيه مايلى :

١ ـ كان يشعر بأنه يستطيع أن يقتل أخاه لو أراد ، ولكنه يأبى ذلك ، وليس المهم أنه كان يستطيع فعلا أن يقتله أو لايستطيع إنما المهم أنه كان يشعر باستطاعته ، ويجد فى نفسه القدرة على ذلك ، والإنسان عادة لايستقر فى نفسه هذا الشعور إلا إذا كان نابعا من قدرة حقيقية ، وقد عبر هابيل عما فى نفسه من هذا بقوله

(لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ماأنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين) ولو لم يكن شاعرا بقدرته ماقال له (ماأنا بباسط يدى إليك لأقتلك).

٢ ـ لجأ هابيل إلى عقله ليحاور أخاه الباغى بالحجة والمنطق، فراجع معه أولا السبب الذى يدعوه إلى قتله ، والسبب الظاهر أو المباشر هو عدم تقبل قربان قابيل مع قبول قربان الآخر ، أما الأسباب البعيدة فالمنطق لايقتضى المحاورة فيها ، لأنها غير معروضة للمحاورة من جهة ، ولأن الخصم قد ينكرها من جهة أخرى ، فيقول هابيل لأخيه محاوراً : إذا كنت تتخذ من عدم قبول قرباتك حجة لقتلى ، فهى حجة باطلة لسببين أحدهما أن القبول وعدمه ليسا بيدى ، بل بيد الله ، والآخر أن الله لايتقبل القربان إلا ممن له صفات معينة من التدين ، فكان أولى بك بدل نقمتك على ، أن تعنى بأمرك مع الله ، فتصلح مافسد من شأنك ، وحينئذ لن تجد فى نفسك شيئاً مما تنقم ، وقد تمثل هذا فى قوله (إنما يتقبل الله من المتقين) ولو كان أخوه مستخدماً عقله لتدبر فى هذا وتروى ، ولكنه كان قد أغلق عقله إغلاقا .

٣ ـ لجأ هابيل إلى إيمانه ، وكأنه يقول لأخيه ، إذا كنت قد أغلقت عقلك عن الحق ، وإذا كنت تدفعنى إلى الجريمة ، لأحاول قتلك كما تفعل أنت ، فإنى وإن كنت مستطيعا ، فان هناك مايمنعنى وهو الخوف من الله ربى وربك (إنى أخاف الله رب العالمين) وإذن فقد احتمى هابيل بالعصامين اللذين كان يفتقدهما أخوه ، وهما العقل والإيمان ، حيث كان كل منهما كافيا للامتناع عن الجريمة ،

ولو استخدم قابيل عقله ، حتى ولو بغير إيمان ما أقدم على قتل أخيه ولو كان لديه إيمان فلن يقدم على الجريمة مهما صغر تفكيره .

٥ ـ النتيجة :

وحينما وجد المؤمن الخير نفسه بين أمرين لاثالث لهما ، إما أن يغضب الله فيرتكب أبشع جريمة ، وإما أن يموت مظلوما ، آثر أقربهما إلى الله ، فاستسلم للموت ، بينما مضى أخوه الشرير فأنفذ عزمه ، وقتل أخاه (فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله) ولفظ (طوعت) يوحي بأنه كان يشعر بعظم الجريمة ، وأن قتل أخيه أمر صعب ، ولكن نفسه زينت له ذلك ويسرته فى خياله ، والتعبير بالفاء فى العطف هنا ، يوحى بتلاحق المشاعر فى نفس هذا الشرير فى سرعة وعجلة ، لايراد بها السرعة الزمنية ، وإنما يراد عدم وجود فاصل للتروى والتدبر ، نتيجة لأنه لايستخدم تفكيره ، فكأن المشاعر والاحداث تتتابع فى عجلة وتلاحق ، لايفصل بينها أى تفكير أو تدبر .

ولكننا نستطيع أن نلمح هنا تطبيق شىء مما سبقت الإشارة إليه. من أن أهم الدوافع إلى العدوان الشعور بالعجز أو الفشل أونحوهما من نواحي الشعور بالضعف بصفة عامة ، كما رأينا فى موقف قابيل الذى دفعته هذه المشاعر إلى عدوانه على أخيه ؛ بينما كان أخوه الواثق من قوة موقفه فى الحق وفى الإيمان على هذه الدرجة من كراهية العدوان .

٦ ـ العقاب :

ولقد كان هابيل المظلوم بعيد النظر حينا توقع لأخيه عقابا مضاعفا إن أقدم على هذه الجريمة ، فهو يقول له عندما وجده مصمما على القتل (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين) وتبوء معناها تحمل ، ومما يلفت النظر فى تعبيره لفظان ، أحدهما « أريد » والآخر الجمع بين (بإثمى وإثمك) فأما لفظ أريد فهو ينبىء عن أن هابيل لم يظهر لأخيه الظالم صفحا ولاعفوا عن هذه الجريمة ، وهو بطبيعة الحال معذور ، فان العفو إنما يتصور فيا هو دون الحياة ، أما حياة المرء نفسها فعفوه عنها غير متصور ، وقد يقال لعل فى إظهار عدم العفو زيادة تنفير لأخيه عسى أن يمتنع عن القتل ، وقد يقال إن هابيل كان بين أمرين اثنين ، إما أن يقتل ، وإما أن يترك أخاه يحمل وزر القتل ، فاختار أيسر الأمرين له ، فليس المعنى إنى أرغب فى أن تحمل ذنبا ، ولكن المعنى ، إذا لم يكن بد من أن أختار بين الأمرين ، فانى أختار أن تكون أنت الحامل لهذا الذنب لاأنا ، قد يقال هذا ، وقد يقال بل هو استمرار للخصومة والمحاورة بينهما ، وكل خصم من شأنه أن يبتغى النصر والتفوق على خصمه ، فكأن هابيل حين أعجزه النصر على قاتله فى الدنيا ، أراد أن يبين لأخيه أنه هو الفائز فى الآخرة برضا الله وثوابه ، وأن أخاه هو الخاسر المعذب فى الآخرة .

كل ذلك غير بعيد فى الاحتمال ، ولكن شيئا منه لايغير من طبيعة المحاورة وأهدافها ، فان المحاورة ترتكز على تصوير موقف الخير فى جانب الأخ المظلوم ، وموقف الخير يتمثل فى رفضه ارتكاب

الجريمة البشعة ، ومغاضبة الله ، ولو أدى ذلك إلى الموت ، بصرف النظر عن أنه يحمل لأخيه ودا أو سخطا ، أو شيئا من الاحتمالات السابقة ، وموقف الشر فى جانب الأخ الظالم ، ويتمثل فى قتل نفس بغير حق ، وهو أبشع جريمة بعد الكفر . وإذن فليس هناك مايمنع من بعض هذه الاحتمالات ، مادامت لاتعارض طبيعة المحاورة وأهدافها

ولكن المعنى الأهم هو أن ماانصبت عليه إرادة هابيل لادخل له فيه ، فان قوله إنى أريد أن تتحمل الذنبين أو أن تعذب لادخل لهابيل فيه ، وإنما هو عقاب متوقع لكل من يرتكب هذه الجريمة ، سواء أراد ذلك هابيل أولم يرد ، لأن هذا العقاب نتيجة طبيعية للجريمة ، وليس مرتبطا بارادة المقتول . بمعنى أنه حتى لولم يرد المقتول ذلك أولم يتوقعه ، فانه أى العقاب واقع بالقاتل .

وهذا مما يوحيه لفظ (أريد) وأما مايوحيه الجمع بين (بإثمى وإثمك) فى قوله (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك ...) فان المفسرين يرون فيه معنى أنك ستحمل ذنب قتلى ، وتحمل أيضا ذنبك الذى من أجله لم يتقبل قربانك .

ولكننا نستطيع أن نلمح فى هذا التعبير ماهو أوسع من ذلك وأعمق ، حيث يمكن أن نفهم الجمع بين إثمى وإثمك على أنه رمز لتعدد أنواع العقوبة ، وتعدد مصادرها ، ليشمل التعبير كل أنواع العقاب ، ثم نبحث عن أنواع العقاب التى تنتظر هذا القاتل . ومما يبدو واضحا من أنواع عقابه :

(أ) عقاب الدنيا :

وهو العقاب العاجل الذى يبتلى به القاتل ، وبخاصة قاتل ذى الرحم ، وأول ماينصب على القاتل حينئذ الشعور بالندم شعوراً مسيطراً رهيباً ، يملك على القاتل كل مشاعره ، فيحيل نهاره إلى هم دائم ، وليله إلى أرق ثقيل بغيض ، ومن الحكم القديمة أنه ماغمس إنسان يده فى دم ذى رحم إلا سلط عليه الندم والأرق ، وهو شعور لاتعبر عنه الألفاظ كل التعبير ، لأنه أوسع وأكبر من معنى الندم ، بمعنى عدم الرضا عن فعل سابق ، وإنما هو شعور يصاحبه عذاب وألم نفسى شديد الوطأة على صاحبه ، حتى إنه قد يؤدى بصاحبه إلى حالات من الجنون والأمراض النفسية والعصبية المختلفة وقد لاحظ كثيراً من ذلك علماء النفس ، وأفاض فيه كثير من كتاب القصة العالميين ، مصورين العقاب النفسى الأليم ، الذى يعانيه القاتل بعد ارتكابه الجريمة ، من الندم والخوف ، والشعور بالمطاردة ، ، والشعور بالذنب ، لكن قتل ذى الرحم يتميز بدرجات مهولة من هذا العذاب النفسى الرهيب الذى يشار إليه فى الآية الكريمة بهذا التعبير (فأصبح من النـادمين) والتعبير بالنادمين بلفظ الجمع ولفظ (من) المفيدة للتبعيض فيه إشارة إلى أن هذا الندم ليس خاصا بقاتل معين ، وإنما هو عقاب عام لكل من يرتكب هذه الجريمة ، وليس قابيل إلا واحداً (من النادمين) الذين فعلوا مثل مافعل .

ومن أنواع العقاب الدنيوى التى انصبت على قاتل أخيه الشعور بالخسران ، فلنا أن نتصور مدى حاجة الأخ إلى أخيه ، وبخاصة فى

بدء الخليقة البشرية ، حينما كان الإنسان يصارع كل شيء في سبيل الحياة ، ويتدرج في تعلم بدهيات الحياة في نظرنا نحن ، ليتعلم كيف يعيش ، وكيف يحافظ على حياته ، وعلى عيشه معاً بين مخلوقات أخرى يزاحمها وتزاحمه العيش ، ومازال في بدء خبرته بالحياة ، لم يعرف بعد طبائعها وأسلوب عيشها ، وإذا كنا نحن نعرف أن الأسد حيوان مفترس ، وأن الظبي غيرمفترس ، وأن الأفعى ذات خطر ، وهكذا ،فذلك إنما توارثناه عن خبرة أجيال كثيرة ماضية ، أما الآدميون الأولون ، فلم يكونوا بداهة قد خبروا شيئاً من طبائع هذه الحيوانات بعد ، وكذلك خبرتهم بكل وسائل المعيشة والحياة ، فحاجة الفرد منهم إلى أخيه الآدمي ذات أهمية كبرى ، لأنها تتعلق بمعيشته وحياته ، ليكونا معاً عونا على مايلقيانه ، والدليل على أن هابيل وقابيل – إن كان أسماهما كذلك – من الآدميين الأوائل ، أن القاتل منهما لم يكن يعرف كيف يدفن جثة أخيه .

وإذن فمن اليسير تصور مدى شعور القاتل بفداحة خسارته ، حين يذهب عنه انفعاله الذى أدى به إلى الجريمة ، وذلك فور رؤيته القتيل جثة هامدة ، فحينئذ يبدأ التفكير في الخسارة ، وفي مواجهة الأعباء وحده ، وما إلى ذلك مما ينطوى تحت تعبير (فأصبح من الخاسرين) والتبعيض في (من) والجمع في (الخاسرين) يشير أيضاً إلى مثل مايشير إليه تعبير (من النادمين) من أنه عقوبة عامة لكل من يقترف مثل هذه الجريمة ، وليس عقاباً خاصاً بقاتل معين .

ومما يزيد في شعور قابيل بالخسران أن السبب الوحيد في قتله

أخاه — كما حدده القرآن — هو تقبل الله سبحانه لقربان أخيه ، وعدم تقبله لقربانه هو ، فامتلأت نفسه حسداً ، لتنعم أخيه برضا الله ، وحرمانه هو من هذه النعمة ، وبطبيعة الأمر ، سينظر بعد قتله أخاه ، فإذا هو أشد حرماناً من رضا الله لأنه أصبح مجرماً ، وإذا كان قد رأى نفسه خاسراً قبل القتل ، فإنه بعد القتل أشد خسرانا .

ومما انصب على قابيل من الآلام النفسية أنه لم يكن قد عرف الموت ، وما يترتب عليه مما يفعل بالميت ، فسيطرت عليه الحيرة من كل وجه ، ماذا يفعل بأخيه وقد أصبح كومة لحم أمامه ؟ إنه لايحمل له اليوم ضغينة ، فقد أذهب الموت والألم والندم كل ماق نفسه من غل وحقد ، فكيف يتركه؟ ، إنه لايستطيع ، وكيف تسيغ نفسه أن ترى الطير تحوم حول لحمه لتأكل منه ، أو نحو ذلك؟ ، كل هذا زيادة إيلام له ، وكل هذا يزيده تشبثاً بملازمته ، ولكن الألم يزداد ، والحيرة تشتد ، ولاحيلة له ، ويترك الله ق هذا العذاب وهذه الحيرة ماشاء أن يتركه ، حتى يقيض له غرابين يقتتلان على مرأى منه ، حتى يقتل أحدهما الاخر ، وهو متابع لما يحدث ، وإذا القاتل يحفر ق الأرض فيوارى جثة القتيل ، وإذا قابيل يزداد شعوراً بالهوان وشعوراً بالجهل ، كيف يكون هذا الحيوان الأعجم خيراً منه تفكيراً وتدبيراً؟ ،فتمتلىء نفسه إحساساً بالنقص والعجز ، ويجتر بعض هذا الألم على لسانه قائلا (ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى) ،

ويتضح التركيز على إحساسه بالنقص ، فى انصباب الاستفهام التقريعى أو التهكمى على العجز (أعجزت ...) ،

على أننا نلمح من معانى الإيلام فى نفسه ، وضوح معنى الأخوة فى نفسه ، حيث يعبر بهذه الإضافة البالغة التأثير حينئذ ، بلفظ (أخى) فى قوله (فأوارى سوأة أخى) .

(ب) عقاب الآخرة :

وكل هذه الأنواع السابقة من عذاب الدنيا لم تكن فى حسبان هابيل المقتول ، فانه إنما توقع له أنواعا أو درجات من العذاب فى الآخرة ، حين قال له (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين) وإذن فهذه الأنواع من عذاب الدنيا على فداحتها ليست هى العذاب الأشد ، إنما العذاب الأشد ، الثابت الذى لامحيص عنه ، هو عذاب الآخرة .

ولذلك نجد القرآن الكريم فى موضع آخر ، يصف عقاب القتل المحرم عامة بقوله (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما [1]) فلننظر إلى هذه الأنواع ، وهذه الدرجات من العقاب ، فالجزاء أولا جهنم ، وهو جزاء كاف شديد لأى جريمة ، ولكن القتل يزيد فوق ذلك ، الخلود فى جهنم ، ثم غضب الله ، ثم لعنته ، ثم عذاب عظيم آخر لاندرى ماهو فى الدنيا أو الآخرة ، وفى إطلاقه أوعدم تحديده معنى كبير من التخويف والترهيب ، نقول إن هذا كله عقاب للقتل العادى ،

---

(١) الآية ٩٣ سورة النساء .

ولكن قتل ذى الرحم درجة أبشع فى الجريمة ، وبالتالى فان عقابها أشد إيلاما فى الدنيا وفى الآخرة .

العبرة :

وقد أصبحت النفوس مهيأة لتلقى العبرة التى سيقت المحاورة من أجلها ، وهى بيان بشاعة جريمة القتل ، والتنفير منها ، فالمحاورة تضمنت ذلك خلال سرد أحداثها ، ووضح فى نفس السامع أن القتل جريمة بالغة النكر ومع أن ذلك جاء فى سياق قصة منسوبة إلى شخصين معينين ، ليكون التشويق إلى سماع القصة زيادة فى ترسيخ المعنى فى النفوس ، إلا أن المراد بيان حكم قتل النفس وبيان بشاعة جرمه للناس عامة .

وبعد تهيؤ النفوس بهذا الأسلوب الشائق ، تأتى العبرة المستهدفة (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ..) فلا يباح قتل النفس إلا بسبب يستوجب قتلها ، من قصاص أو منع إفساد ، أما قتلها بغير حق فهو إهدار وعدوان على الآدمية من حيث هى ، لأن الفرد رمز للبشرية كلها ، وقتله إهدار للبشرية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان من يجرؤ على قتل فرد ، يهون عليه أن يقتل أى فرد آخر فكأنما قتل الناس جميعا ، ويقابل هذا أن من يتسبب فى حياة آدمى بإنقاذه من الموت فكأنما أحيا الناس جميعا .

وليس فيما عرفته البشرية قط تكريم للإنسان كهذا التكريم ،

الذى يجعل الفرد الواحد مهما صغر شأنه مايساوى به الناس جميعا سواء فى حياته وفى موته ، وهذا المعنى فى الواقع هو محور النتيجة والعبرة من المحاورة كلها ، فتكريم الإنسان وحرمة حياته هو صلب الهدف ، ومن آثار هذا التكريم وهذه الحرمة أن قتل الفرد كقتل الناس جميعا ، وإحياءه كإحياء الناس جميعا

وقد يقال : فإلام يشير ذكر بنى إسرائيل فى هذه النتيجة ؟، والجواب أنه ليس المراد تخصيص بنى إسرائيل بهذا الحكم ، بل هو حكم عام للناس جميعا ، وأما ذكر بنى إسرائيل فيمكن أن نفهم منه أحد أمرين ، إما أن الكتب السماوية كانت فى بنى إسرائيل ، لأن داود وموسى وعيسى عليهم السلام كلهم من بنى إسرائيل ، فاذا فهمنا الكتابة على بنى إسرائيل بمعنى تسجيل هذا الحكم فى الكتب السماوية المنزلة ، فهو تقرير للواقع ، بمعنى نزلنا هذا الحكم فى الكتب السماوية وهذا هو المعنى التشريعى المقصود ، ثم ذكر بنو إسرائيل لأنهم هم الذين أنزلت فيهم الكتب السماوية السابقة ، وليس المراد أنهم خصوا بهذا الحكم . وإذا فهمنا الكتابة بمعنى الحكم الدينى ، فالأمر لايختلف ، لأن المعنى سيكون حينئذ ، أنزلنا هذا الحكم ، والأحكام تنزل على الأنبياء ، والأنبياء معظمهم فى بنى إسرائيل . فهذا الحكم نزل على أنبياء فى بنى إسرائيل .

والأمر الآخر الذى يمكن أن نفهمه من ذكر بنى إسرائيل ، أنهم العنصر الذى عرف بنزوعه إلى العدوان ، والميل إلى سفك دماء الآخرين ، حتى إنهم قتلوا كثيرا من الأنبياء ، وقد سجل عليهم القرآن الكريم النزوع إلى العدوان والقتل فى أكثر من موضع ،

كقوله تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) [1] وقوله تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ [2]) وقوله تعالى (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) [3] ونلحظ أن وصفهم بالعدوان تصاحبه فى كل مرة صيغة الفعل المضارع . التى تفيد تجدد العدوان واستمراره بخلاف مالوكان التعبير مثلا : كانوا من المعتدين .

وحيث انفرد بنو إسرائيل بوصفهم عنصرا ومجموعا بهذه الصفة ، أى صفة الميل إلى العدوان وسفك الدماء ، كان من المناسب أن ينصب هذا الحكم عليهم أساسا ، ثم يسرى تبعا على كل من يفعل ذلك من سائر الناس ، والتقييد بوصفهم عنصرا ، لأن الميل إلى العدوان والقتل لايخلو منه مجتمع ، ولكنه يكون عادة فى أفراد وليس فى جماعات أو سلالات ، كما هو الحال فى بنى إسرائيل .

وأما أن قتل النفس يساوى قتل كل الناس فى الحكم ، فيعبر عنه بعض المفسرين بأنه لو قتل الناس جميعا فلن يزيد جزاؤه عن جزاء قتل النفس الواحدة من العذاب [4] وكذلك فى القصاص لو قتل الناس جميعا فلن يزيد حكم القصاص عن حكم قتل النفس الواحدة .

(١) من الآية ٦١ سورة البقرة .
(٢) من الآية ١١٢ سورة آل عمران .
(٣) الآية ٧٨ سورة المائدة .
(٤) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى .

ومع ذلك كله ، فهذا الحكم إنما يراد به زيادة التكريم للادمى وزيادة التنفير من دمه ، وليس هذا هو المعنى الوحيد لتكريم الإنسان فى القرآن الكريم ، بل هو متعدد ، كقوله تعالى (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدم وحملْنَاهمْ في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ورزقناهم مِّنَ الطيِّبَات وفَضَّلْنَاهمْ عَلَىَ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً [1]) .

ومما يدل على أن هذا الحكم دينى روحى ، يراد به تقوية النزعة الدينية فى النفوس ، فى حفزها إلى تكريم الإنسان ، وإلى التفور من دمه ، إن ألفاظ الآية كانت بالغة الدقة ، ومن هذه الدقة التعبير بلفظ كأن (فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاس جميعاً) فهذا اللفظ يمنع أن يكون الحكم للتشريع فى الدنيا ، لأن الأحكام التشريعية قاطعة ، ولاتدخل فيها حروف التشبيه أو نحوها .

(١) الآية ٧٠ سورة الاسراء .

٤ ـ فى السياسة

بسم الله الرحمن الرحيم

(اذْهبْ بِكتَابِي هذَا فَأَلْقهْ إِلَيهِمْ ثُمَّ تَولَّ عَنْهم فَانْظُر ماذَا يَرْجِعُونَ ، قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سلَيْمانَ وإِنَّه بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، أَلاَّ تَعلُوا علَىَّ وأْتونِ مُسلِمِينَ قَالَتْ ياأيها الملأُ أفتونى فى أمرِى ما كُنْتُ قَاطعةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهدونِ قَالُوا نَحنُ أُولُوا قُوَّةٍ وأُولُوا بَأْسٍ شَديدٍ والأَمْر إِلَيْكِ فَانْظُرِى ماذَا تَأْمُرِينَ ، قَالتْ إِنَّ المُلوكَ إِذَا دخَلُوا قَريَةً أَفسدُوها وجعلُوا أعزَّة أَهْلِها أَذِلَّةً وكَذَلكَ يفْعَلُونَ ، وإِنِّ مُرسلَةٌ إِلَيهِمْ بِهديَّةٍ فَنَاظرة بِم يَرْجعُ الْمُرْسَلُونَ [١] .

جوانب المحاورة

١ ـ الملابسات :

هذه المحاورة جزء من قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ ، وموجزها مما ذكره القرآن الكريم ، أن سليمان آتاه الله مع النبوة ملكا لم يتح لغيره ، حتى حكم الإنس والجن والطير والحيوان ، فافتقد الهدهد ذات يوم فلم يجده ، فتوعده ، ولكن الهدهد جاءه بخبر عظيم الأهمية ، إنه في رحلته التى غاب فيها حتى وصل إلى

---

(١) الآيات ٢٨ ـ ٣٥ سورة النمل .

سبأ فى اليمن ، وجد هناك قوما يعبدون الشمس مع ملكتهم بلقيس ذات الملك العظيم .

فأمره سليمان أن يذهب بكتابه إليهم ، فذهب وألقى الكتاب على الملكة ، فجمعت ذوى الرأى والمستشارين ، لتشاورهم فى هذا الموقف الخطير ، كما سنرى فى بسط المحاورة التى انتهت بأنها قررت أن ترسل إليهم بهدية عظيمة ، لتتبين هل سليمان نبى أم مجرد ملك ، ولكن سليمان رد الهدية والرسل ، مبينا لهم أنه لايبتغى منهم عرض الدنيا فلديه منه أكثر مما لديهم ، وإنما يبتغى منهم الإيمان بالله الواحد . ثم انتهت القصة بقدوم بلقيس على سليمان ، وإسلامها معه لله رب العالمين .

٢ ــ موضوع المحاورة :

والموضوع معالجة موقف خطير طارىء ، هو مضمون كتاب سليمان إلى بلقيس وقومها ، وسليمان كان حينئذ بالإضافة إلى النبوة أعظم ملوك الأرض ، ومن البدهى أن شهرته تطبق الآفاق ، وأن بلقيس ومستشاريها الذين جمعتهم يسمعون به وبملكه العظيم ، ولذلك حينما تحدثت عنه إليهم ، لم تحتج إلى تعريف به ، وإنما اكتفت بمجرد ذكر اسمه ، وقد كان مضمون كتاب سليمان على إيجازه بالغ التأثير ، بما يتضمن من إظهار لقوة سليمان وتمكنه من القدرة على من وجه إليهم الكتاب ، والكتاب كله (بسم الله الرحمن الرحيم ألاّ تعلُوا علىّ وأتونى مسلمِين) فهو يحذرهم من محاولة الاحتماء فى أى قوة أو غرور ، فإن ذلك لايعصمهم من قبضته ،

ويطلب منهم أن يأتوا إليه طائعين مستسلمين ، وهذا غاية الاعتداد بقوة النفس ، والتمكن من الخصم ، حيث لم يقل لهم استسلموا حينما آتيكم بقوتي ، وإنما يلزمهم أن يسعوا إليه منقادين ، ولفظ مسلمين محمول على الاستسلام والخضوع وليس الايمان ، ويرجح هذا اضافة الاتيان إلى سليمان لا إلى الله .

ولو كان يطلب منهم مجرد الايمان والاسلام لله ، لم يكن في حاجة إلى أن يطلب منهم الاتيان إليه ، لأن الاسلام لله يتحقق في أي مكان .

وهذا هو الموضوع الذي تتحاور فيه الملكة مع مستشاريها وقادة قومها وواضح أنه أمر في غاية الخطورة ، ملك عظيم القوة يهددهم ، وهو قادر على التهديد ، ويطلب منهم مافيه إذلال لملكهم ، وهو أن يسعى إليه قادتهم وأولو الأمر فيهم بأنفسهم خاضعين مستسلمين

٣ ـ طرفا المحاورة :

وأما طرفا التحاور فقد كان أحدهما الملكة ، والآخر السادة والمستشارون ، وينبغي أن نلم بشيء من التصور لكل من الطرفين ، حتى يكون منبع التحاور واضحا في الأذهان ، ومنبع التحاور هو ذات كل من الطرفين ، في شخصه ، وفيما يملك من شئون يرتكن إليها ، وبيان هذا الجانب ذو أهمية ، فأسلوب المحاورة صورة للمحاور ، وحينئذ نتبين من خلال حديث القرآن عن الطرفين مايلي :

(أ) فأما الملكة :

وهي الطرف الذي يتولى عرض المحاورة ، فنجد لها وصفا دقيقا

فى التقرير الذى قدمه إلى سليمان طليعته ، وهو الهدهد . فهذا التقرير (إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَملِكُهُم وأوتيتْ مِنْ كُلِّ شَىْء ولَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ . .) على إيجازه يتضمن كل مايقتضى الحال معرفته عن الملكة ، حيث نجد فيه ثلاثة جوانب :

١ ــ أولها وصف شخصيتها بالقوة والتمكن فى الملك والحكم ، وهذا واضح فى قوله (وجدتُ امرأة تَمِلِكُهُم) فكان أول وأبرز ماوجده ولفت نظره فى هذه المملكة ، هو شخص هذه الملكة ، ولذلك انصب عليها الفعل (وَجَدتُّ امْرَأَةً ...) وهذا بخلاف مالو قال مثلا وجدتهم تملكهم امرأة ، فإن مثل هذا التعبير يوحى بالتهوين من شأنهم ، ولايشير إلى تعظيم الملكة ، أما التعبير الذى تضمنه تقرير الهدهد فإنه إذا تأملناه نجده يوحى بتعظيم شخصية الملكة ، ومع ذلك لايقلل من شأن قومها .

٢ ــ وثانيها وصف ملكها بالقوة والرق بأقصى مايتيحه الفهم لهذين المدلولين . فأما قوة الملك فتتمثل فى أنها (أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَىْء) فالمملكة التى تحوى كل شئ لابد وأن تكون بالغة القوة والمجد . حتى إنها نافست فى ذلك وصف سليمان لملكه فى قوله (وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَىْء) وإن كان الأمر نسبيا ، حين تقاس مملكة صغيرة ، إلى ملك واسع ، متعدد الأنواع والأجناس ، فليس مايمتنع من أن يكون الوصف واحداً ، ولكنه يفهم فهما نسبيا .

هذا عن قوة ملك بلقيس ، وأما عن رقى هذا الملك ، وما اشتمل عليه من حضارة ، فيتمثل فى قوله (ولَها عرْش عظيمٌ) فعظمة العرش ،

من حيث إنه كرسى ، توحى برقى الصناعة ، وسمو الحضارة ، وهذا الجانب غير مرتبط بقوة الملك وعظمته ، فقد تكون هناك مملكة قوية شاسعة الأرجاء ، ولكنها ضعيفة الصناعة ، غير ذات قدم فى الحضارة ، كأن تكون دولة محدثة . ولكن مملكة سبأ جمعت بين الأمرين ، قوة الملك ، والرقى فى الصناعة والحضارة ، وهذا يقره التاريخ .

وقد يقال كما تساءل فى ذلك المفسرون : كيف يوجد لدى بلقيس وهى دون سليمان ملكا عرش لايوجد مثله فى العظمة لدى سليمان ؟ ويمكن الاجابة عن ذلك عما سبقت الاشارة إليه الآن ، من أنه لاارتباط بين عظمة الدولة ، وعظمة الصناعة فيها ، فقد تكون هناك دولة محدثة ، أتيحت لها ظروف طارئة مكنتها من مقاليد القوة ، ولكنها لكونها محدثة أصبحت غير ذات شأن فى الصناعة وما يتعلق بها ، فإن الصناعه لا تتكون فى الشعوب طفرة واحدة ، وإنما تكون نتاج أجيال ومراحل من التدرج والتجارب حتى تبلغ مرحلة النضج ، وهذا واقع مشاهد ، نلمسه فى أمم العالم اليوم ، فهناك أمم أقل من غيرها بكثير فى الكيان السياسى والعسكرى ، ولكنها أشهر من غيرها بالصناعة ، أو ببعض أنواع الصناعة ، لعراقتها فى ذلك ، بينما بعض الأمم البالغة القوة ، تجدها دون غيرها فى الصناعة ، لأن القوة لاتحتاج إلى عراقة ، بل يكفى أن تتاح لها بعض الركائز ، كالتفوق العسكرى أو الاقتصادى ، لتبلغ مايشاء الله لها أن تبلغ ، فيمكن أن نتصور ملك سليمان مهما بلغ من القوة والشمول والتفوق خاليا من عظمة الصناعة لأنه ملك

حديث مرتبط بشخصه هو ، وليست له عراقة بعيدة تتيح للصناعات التدرج والنمو فى ظلها ، أما مملكة سبأ فلم تكن وليدة حكم بلقيس ، وإنما كانت بلقيس فى ملكها سليلة ملك عريق ، وليس الذى يعنينا هنا أجداد بلقيس الذين يبلغون أربعين ملكا فيا تذكره الروايات بل لاتعنينا فى هذا المعنى بلقيس نفسها وإنما يعنينا أن الحضارة فى أرض سبأ عريقة ، من شأنها أن تنمو وتتدرج فى ظلها الصناعات التى كان عنوانها عرش بلقيس الذى شهد له أعداؤه بالعظمة فى صناعته ، بينما لم يكن ملك سليمان بهذه العراقة ، وإنما كان قصير الجذور ، وكانت عظمته وليدة حكم سليمان ، فلم يتح للصناعات البشرية فيه ماأتيح للصناعة فى مملكة سبأ ،وإنما قلت الصناعات البشرية ، لأنه أتيح لملك سليمان من صناعة الجن ماأذهل العقول ، كصرح القوارير ، وكذلك ماكان يصنعه الجن من مختلف الصناعات

٣ ـ وثالث ماتضمنه تقرير الهدهد عن الملكة وصف الحالة الدينية لها ولقومها ، وهو فى الواقع إشارة إلى وصف حياتهم من عدة نواح ، فان العقيدة من شأنها أن تؤثر فى أغلب نواحى الحياة ، ونجد أكثر جوانب الحياة فى أى مجتمع نابعة من الدين ، إما بطريق مباشر ، وإما بطريق غير مباشر ، بل إن حضارة الشعوب كثيرا ماترتبط بالدين وتنبع منه كحضارة الفراعنة ، ولو أرسل ملك طلائعه ليأتوه بتقرير عن أى شعب لوجب أن يكون من صلب التقرير بيان الحالة الدينية لهذا الشعب ، بصرف النظر عن أن هذا الملك له دين أو ليس له ، لأن بيان دين هذا الشعب ، يكشف الكثير من جوانب حياته .

ولكن أهم مايعنى سليمان بوصفه نبياً بيان دين هذا المجتمع ،

فوضح التقرير لسليمان دين هذه الملكة وقومها ، وهو أنهم يعبدون الشمس من دون الله

وكما أن بيان الدين لذاته يعنى سليمان عناية أساسية ، فإن هذا الجانب يعنى الملكة وقومها فى المحاورة عناية أساسية أيضاً ، فإن سليمان فى كتابه إلى الملكة يجعل العقيدة محور كل شيء ، مبيناً أن كل مايقوله ويفعله ليس من عنده ، وإنما هو متحدث باسم الله ، ومتحرك بأمره ، وهذا يزيد فى صعوبة الموقف عند الملكة وقومها ، فلو كان سليمان ملكا فحسب ، لكفاه الخضوع السياسى أو العسكرى له ، ولكنه مادام نبياً ، فلابد من الخضوع الدينى له أيضاً .

(ب) وأما الطرف الثاني : فهم المستشارون والقادة ، وهذا مفهوم من لفظ (الملأ) الذى يعنى السادة وعلية القوم ، وأيضاً من استشارة الملكة إياهم ، فإن الملكة لاتستشير بالبداهة إلا صفوة القوم وقادتهم حينما تحتاج إلى الرأى فى أمر عام ، ومفهوم أيضا من أنهم يتحدثون باسم الأمة ، وينوبون عنها

٤ ـ عناصر كتاب سليمان :

١ ـ أنه نبي يتصرف بأمر الله وباسم الله (إنه من سليمان وإنه بسم الله ...)

٢ ـ أنه يعلم مدى قوتهم ، ولكنه يطلب منهم ألايغتروا بهذه القوة (ألاّ تعلوا علىّ)

٣ ـ يتضمن حربا نفسية بإذلالهم وإشعارهم بالضعف وأنهم لايملكون إلا الخضوع .

٤ ـ يتضمن الكتاب مطلب سليمان وهو ليس مجرد الخضوع ، وإنما يطلب أن يأتوا إليه مستسلمين .

٥ ـ عرض الموضوع :

والذى تولى عرض الموقف الملكة ، وقد كانت شديدة الدقة فى هذا الغرض ، ويمكن أن نبسط عرضها للموضوع فى النقاط الاتية :

١ ـ بدأت بالتمهيد للموضوع ، فبعد أن جمعت الملأ من قومها ، وأعلمتهم بأن لديها كتابا من سليمان المشهور ، وقبل أن تعرض عليهم محتوى الكتاب ، أرادت أن تمهد لذلك ، وأن تهيئ نفوسهم بأمرين ذوى أهمية فى الموقف ، أحدهما أنها تؤكد لهم أن هذا الكتاب كان مفاجئا لها ، ولم تكن له مقدمات لديها ، حتى لايرتاب أحد منهم فى أنه ربما تكون قد سبقت هذا الكتاب مراسلات أو صلات متبادلة ، فأشارت إلى ذلك بقولها (إِنِّى أُلْقِى إِلَىَّ كِتَاب) ولم تكن فى حاجة إلى تأكيد أكثر فى نفى هذا الاحتمال ، لأن زيادة التأكيد والالحاح تولد شكا إن لم يكن هناك شك ، وتزيد فى الشك إن كان موجوداً ، والأمر الآخر فى التمهيد وتهيىء النفوس ، أنها تشير إلى أن هذا الكتاب ليس عاديا ، وإنما هو (كِتَاب كَرِيم) وهذا يتضمن أحد أمرين ، إما أنها تنبههم إلى أنه لديها كتاب ذو أهمية ، وإما أنها تفهمهم أنها درست مضمون الكتاب ، وتكونت لديها فكرة عن هدفه ، ولامانع من اجتماع الأمرين ، ولكن كلا الأمرين يبحث فى نفوسهم اهتماما بالكتاب ، واهتماما بالإسهام فى الرأى والمشورة ، وهذا ماتهدف إليه الملكة (إِنِّى أُلْقِى إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ) وهذا من الحكمة فى العرض لأى أمر ذى أهمية .

٢ - كانت أمينة فى عرض الموضوع عليهم ، فأخبرتهم أولا أنه من سليمان الذى تعرفون شأنه ، والذى لابد أن الناس يتسامعون بملكه الهائل ، ثم تلت عليهم نص الكتاب ، وهو (إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) فهذا الايجاز البالغ ، يتضمن فيضا واسعا ، يدور حول معنيين ، أحدهما أن سليمان يتحرك باسم الله وأمره ، والآخر أنه يطلب منهم الخضوع الكامل دون شرط . وأمانة الحاكم فى عرض الأمور كما أنها تدل على خلقه ونجاحه فى الحكم ، فهى أيضا من أبرز سمات الحضارة ، حيث تدل على متانة أسلوب الحكم وأصالته ، وعلى قوة كيان المحكومين أيضا ، ولو من باب الدلالة على أن الحاكم يحسب لهم حسابا ، ويخشى أن يكتشفوا كذبه أو تضليله ، إن راودته نفسه إلى شيء من ذلك .

٣ - بيان الهدف من عرض الموضوع عليهم ، وهو أنها تطلب منهم الرأى والمشورة ، ولكننا نلحظ أنها بوصفها ملكة ، لم تستطع أن تتخلى عما فى نفوس الحاكمين كل التخلى ، فمع أنها تطلب منهم الفتوى (أفتونى !) إلا أنها تجعل هذا الأمر خاصا بها ، وكأنهم دخلاء فيه (فى أمرى) ثم كأنها تخشى أن يظنوا بها ضعفا فى هذا الموقف ، وأن هذا الشعور بالضعف هو الذى ألجأها إلى مشورتهم فهى تذكرهم بأن هذه عادتها ، وأيضا سياستها دائما أن تستشيرهم ثم أمر آخر ينبىء عما يخالجها من مشاعر التعالى لدى الحاكمين والملوك ، وهو أنها مع كونها تطلب منهم الفتوى ، إلا أنها تنبئهم فيما يشبه التصريح ، بأن رأيهم غير ملزم إياها ، حيث تقول

(مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ) فلم تقل حتى ترشدونى أو تعينونى الرأى ، أو نحو ذلك ، وإنما هم مع الرأى مجرد حاضرين يشهدون ماتقول وما تفعل ، وكأنها تقول لهم . إن البت فى الشئون ، أمرى وشأنى وحدى ، كما يفعل سائر الملوك ، ولكنى أوثر أن تكونوا دائما على علم بالأمور ، وأن أسمع رأيكم فيها ، وإن لم يكن هذا ملزما إياى . وتكاد تشير إلى أنها سياسة تنفرد بها ، حيث لم تقل إن الملوك يفعلون ذلك ، وإنما نسبت هذه السياسة إلى نفسها ، فى شىء من اعتزاز بالتزامها (قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ) .

٦ ــ موقف الطرف الثانى :

والطرف الثانى هم المستشارون ، وهم فى موقف يطلب منهم فيه الرأى والمشورة ، وقد بلغوا فى ردهم ، وفى مراعاتهم لظروف الموقف أقصى ماينتظر من مثلهم فى هذه الحال . وتستخلص من ردهم على الملكة مايأتى :

١ ــ كأنهم غفلوا أو تجاهلوا الجانب الدينى ، ولم ينظروا إلى سليمان إلا على أنه ملك يتهدد ملكهم ، ويطلب منهم مافيه إذلال لهم . وواضح من ردهم أنهم يرون فى غير تردد أن الرد الوحيد على كتاب سليمان هو استعدادهم للحرب ، وأنهم يجب أن يقدروا مالديهم من المقدرة على الحرب التى لامفر منها ، وقد فكروا فى ذلك ، وقدروا إمكانياتهم من الجانبين العسكرى والنفسى ، فوثقوا من أنهم على قدر من القوة فيهما (قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ) . فالقوة إشارة إلى الجانب العسكرى المادى ، والبأس إشارة إلى الجانب المعنوى من الشجاعة والاستعداد النفسى للحرب

وكأنهم يشيرون إلى الملكة بأمرين واضحين ، أحدهما استبعاد التفكير في الخضوع لسليمان استبعادا كاملا بحيث لايكون موضع محاورة أو حديث ، والآخر إعلام الملكة أن لديهم القوة الكافية لرفض هذا التهديد ، والاستعداد للحرب ، وفى هذا إلزام لها بالتفكير فى الحرب ، حيث لاعذر لديها للتفكير فى الاستسلام ، بعد هذا التقرير الذى يقدمونه إليها عن قوتهم وكفايتهم .

٢ — مع هذا التقرير الذى ضمنوه واقعهم ، والذى حاصروا الملكة من خلاله ضمنا ، حتى وضعوها أمام اتجاه واحد هو الحرب ، مع هذا كله كانوا يمثلون غاية الأدب فى مخاطبة الملكة ، وإظهار الطاعة لها ، فهم يسارعون عقب التقرير إلى قولهم (والأَمْرُ إلَيْكِ) بمعنى أننا أقوياء ، وعلى أهبة الاستعداد للحرب ، ولكن ذلك كله بين يديك أنت ، فأنت صاحبة الأمر كله ومانحن إلا جنود طائعون . وهذا هو الوضع الواقعى لكل ملك مطلق السلطة

٣ — كان المستشارون فى غاية البراعة والدقة فى المحاورة ، حيث استطاعوا أن يوفقوا بين إظهار الطاعة للملكة، وإبراز رأيهم الذى يحسون من تمهيد الملكة أنه مخالف لرأيها ، فإن وصفها لكتاب سليمان بالكرم ، بالإضافة إلى مايبدو عادة فى الانفعالات والملابسات بصفة عامة ، كل ذلك لابد أن يشعرهم باتجاه الملكة إلى السلم ، ولكنهم مع إظهارهم الطاعة ، يشيرون فى وضوح إلى مخالفتها فى الرأى ، مؤثرين الاتجاه إلى الحرب .

وكأنهم حينا أحسوا بوضوح ميلها إلى السلام أرادوا أن يحملوها فى أدب على معاودة التفكير والتقدير للموقف ، معبرين عن ذلك

بقولهم (فَانْظُرِى) بمعنى فكرى وقدرى ، ولكنهم يقرنون هذا التعبير بالطاعة ، والاستعداد لتنفيذ كل ماتأمر به الملكة ، فيقولون (فَانْظُرِى ماذَا تَأْمُرِينَ) ، لم يقولوا فانظرى ماذا ترين ، أو ماذا تفعلين ، أو نحو ذلك ، وإنما يقولون : نحن مستعدون لتنفيذ أى أمر تأمرين ، ولكننا نرجو أن تحسنى التفكير والتدبر ، وألا يسيطر عليك التفكير فى الخضوع ، مع ماتملك من قوة وبأس شديد .

٧ ـ دفاع الملكة :

وقد استطاع المستشارون أن يضعوا الملكة فى موضع يوشك أن يكون حرجا ، حيث بدا من تمهيدها ، ومن كل ملابسات موقفها أنها تجنح إلى الموادعة والسلام ، والحرج فى هذا أنها بعد ماأدلوا إليها بتقرير القوة أصبحت مخالفة لاتجاه قومها جميعا ، أو للاتجاه السائد فيهم على الأقل ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يعد هناك عذر عند قومها فى جنوحها إلى السلم بعد أن أكدوا لها مقدرتهم على الحرب . وهو فى ظاهره موقف فى غاية الخطورة ، على أى مسئول عن مصير أى أمة .

وقد كانت الملكة تستطيع حتى بعد استفتائهم أن تقول لهم : أما رأيى فهو كذا فافعلوه ، ولكن الموقف الصعب الذى وضعها فيه المستشارون يضطرها إلى الدفاع لتعليل وجهة نظرها ، حتى ينقادوا لها عن اقتناع ، وليس انقياد المكره الذى لايحمل لقائده حبا ولاتقديرا .

وقد بلغت الملكة قمة البراعة فى معالجة الموقف ، وفى محاولة

إقناع قومها برأيها الذى اقتنعت به ، وتستطيع أن نستخلص من دفاعها مايأتى :

١ - لكى تكسب الملكة عواطف مستشاريها ، لم تسفه رأيهم واتجاههم ، ولم تتعصب لرأيها بداءة ، بل افترضت لهم أنها ستجاريهم فيما يريدون من إعلان الحرب ، وكأنها تقول لهم : وبعد ذلك ماذا يحدث ؟ إن سليمان فى ملكه وقوته وعجائب سلطانه ماتعلمون ، ولنتجاهل مايدعيه من حديث الدين ، والحديث عن الله ، إنه ملك بالغ القوة ، وحينما نرفض كتابه ونعلنه بالحرب ، فسيقدم علينا ، وحينئذ ماذا يكون مصير هذه الجنة التى تتمتعون بها فى ظلال سبأ ، أوهذا الخير الذى يتدفق عليكم من مأرب ؟ إن مصير ذلك كله الخراب والدمار ، فالحرب ليس فيها إلا الخراب للطرفين ، ولكن المغلوب يجتمع عليه خرابان ، خراب الحرب ، وخراب تنكيل المنتصر به ، وهذا ماأتوقعه لكم لواتجهتم إلى الحرب : فأنتم ذوو قوة لاشك فى ذلك ، ولكن سليمان أقوى وأعظم ملكا وأشد بأسا ، فهو إذن سيكون المنتصر ، ونحن إذن الذين سيحل بنا الدمار (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا) ودخولهم رمز النصر ، وإفسادهم رمز خراب الحرب والتنكيل بالمغلوب .

وبهذا تكون الملكة قد كسبت من نفسيتهم الكثير ، كسبت إشعارهم بأنها تقدر رأيهم وتفكر فيه ، وأن مخالفتها لهم ليست تعاليا ولامجرد تسلط ، وإنما تلمسا للرأى السديد ، ثم كسبت ثقتهم فيها ، حيث يعلمون ويشعرون حينئذ أنهم أمام ملكة لاتلقى الأوامر جزافا ، وإنما تزن الأمور وتقدرها حق التقدير ، ثم كسبت

أن تضعهم أمام المسئولية عما سيحل بالمملكة لوجارتهم فيا يتجهون إليه . وكأنها تقول : هبوا أنى وافقتكم على الحرب ، وحل بالمملكة ماحل ، فمن المسئول عندئذ عما سيكون ؟'.

٢ – فى سبيل أن تسلك الملكة كل الوسائل لتقنعهم برأيها ، وحتى تكون نفوسهم كاملة التهيؤ للاقتناع ، لمست جانب مصلحتهم الشخصية ، مذكرة إياهم بأنهم هم سيكونون أشد الناس تضررا بهذه الهزيمة المتوقعة ، فإن من شأن الملوك والفاتحين دائما أن يحطموا كل جوانب القوة فى المهزومين ، ومن أهم جوانب القوة السادة والزعماء أنفسهم ، فهم أصحاب المصلحة الأولى فى رد العدوان الطارئ ، لاستعادة سيادتهم وزعامتهم ، ولذلك يهتم الفاتحون دائما بالقضاء على الشخصيات القوية فى المغلوبين ، حتى يأمنوا ألايعاود أحد محاولة الدفاع والحرب مرة أخرى (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً ...) وأعزة سبأ هم الذين تخاطبهم الملكة ، وإذن فأمامهم أن يصبحوا أذلة ، ولو احتمالا ، وكأنها تقول لهم : أنتم أنفسكم قد تذوقون الذل والهوان ، بعد ماأنتم فيه اليوم ، فهذا خير ، أم جنوحكم إلى السلام ، وتضمنون البقاء فيا أنتم فيه من عزة وسيادة ونعيم ؟

٣ – تلجأ الملكة إلى اقناعهم بصدق توقعها ، فتجعل من ذلك مايشبه أن يكون قضية منطقية ، تعتمد على مقدمات مسلم بها ، وحينئذ ينبغى أن يسلم المخاطبون بالنتيجة عن طريق القياس ، وتحتكم فى ذلك إلى التجربة والمشاهدة التى لايختلف عليها أحد ، وكأنها تقول لهم : أليس من عادة الغزاة المنتصرين والفاتحين ،

أن يفسدوا كل مايعترض طريقهم ، وأن يذلوا كل من يقاومهم ؟ والجواب بلى ، فهذا حكم لاينازع فيه التاريخ ، والواقع أن لفظ الملوك هنا لايلزم أن تفهمه على حرفيته ، فليس الملوك وحدهم الذين يفعلون ذلك وإنما كل المنتصرين الفاتحين ، بل واضح أن الملوك لفظ مجازى ، كقولهم : بنى الأمير مسجدًا ، بمعنى أمر ببنائه ولم يبنه بنفسه وإذا تأملنا التعبير ، نجد أن الإفساد ليس مقترناً بالملوك ، وإنما بدخول الملوك ، والدخول كناية عن النصر والفتح، (إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا) بمعنى عند دخولهم فاتحين منتصرين ، ومفهوم ذلك أنهم إذا لم يدخلوها بهذه الصورة لم يفسدوها ، حتى ولو كانوا قادرين على إفسادها ، كأن تعلن القرية الخضوع دون حرب ، أو تكون خاضعة أصلا لهم ، أو نحو ذلك ، فإنهم فى كل هذه الأحوال لن يفسدوها ، كما يقتضى مفهوم التعبير ، لأن الإفساد مقيد بحالة دخولهم ، يعنى فاتحين منتصرين ، فالإفساد ليس مرتبطاً بالملوك لكونهم ملوكا ، وإنما هو مرتبط بصورة الغزو والفتح ، وهذا حكم لاينازع فيه التاريخ كما سبق ، لاقديمه ولاحديثه ، فنظرة على التاريخ كله ، فى طوله وعرضه ، تؤكد أنه مامن فاتح إلا وعاث فى الأرض المغلوبة فسادا ، وأشبع أهلها إذلالا وهوانا ، وهذا مفهوم من تعبير (وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ) وإذن فكون الغزو المنتصر لابد أن يكون فسادا وإذلالا غير منازع فيه وماداموا قد اتفقوا على أن سليمان أقوى منهم وأن انتصاره عليهم بالتالى متوقع ، فلابد إذن أن تتحقق القاعدة المتبعة فى انتصار الغزاة ، وهى حلول الفساد فى سبأ ، والذل بسادة سبأ ، وهم الذين تخاطبهم الملكة الآن ، وكأنها تقول لهم أليس

كذلك ياسادة سبأ ؟ ومعنى قولها (وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ) أنه حكم عام وثابت .

ومن الواضح أن جوابهم حينئذ سيكون الموافقة ، ولكنها الآن موافقة عن اقتناع ، وليست موافقة المغلوب على أمره .

٤ – والذى يهدم شيئا ينبغى أن يبنى بديلا له ، حتى لايكون هداما بغير هدف ، والملكة هدمت رأيهم واتجاههم إلى الحرب ، وكأنهم يقولون لها : فماذا تقدمين بدل الحرب ؟ ، ومثل هذه الملكة فيما رأينا لديها من قوة الشخصية ، وعمق الفكر ، واتساع الخبرة والتجربة ، وقوة الأتباع ، وتمكن السلطان ، لاتلجأ إلى الحل المهين وهو إسلام القياد ، والخضوع بادئ ذى بدء ، ولكنها فى غير شك ، أعملت فكرها كأحسن مايكون الإعمال ، وقدرت فى نفسها كأعمق مايكون التقدير ، حتى اهتدت إلى الأمر الوسط ، الذى لايعرضها وقومها لخطر سليمان ، ومع ذلك يحفظ عليها وعلى قومها بعض العزة والإباء ، فكان جوابها الذى يتطلبه الموقف ، والذى ينتظره قومها بعد أن قالوا (وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ) كان جوابها أنها قررت أن تراسل سليمان ، بادئة بإرسال هدية إليه ، وهى تحدد أن الهدية ليست مقصودة لذاتها ، بمعنى أنها لم تكن من السذاجة بحيث تحسب أن سليمان سيفرح ويكتفى بالهدية ، مع مقدرته عليهم ، ومع مالديه من ملك واسع عريض ، ولكنها أرادت أن تهدف إلى أمرين ، أحدهما فتح باب المحاورة مع سليمان لعلها أن تنجو من خطره ، فى أى صورة أو أى فرصة تسنح خلال الحوار والتراسل ، والأمر الآخر أن تخبر شخصية سليمان ، وأهدافه

هل هو ملك طاغية يريد مجرد التوسع في ملكه ؟ هل هو داعية إلى الله والدين كما يتحدث في كتابه ؟ هل وراءه شيء آخر غير ذلك ؟ فهي لاتريد الإهداء لذاته ، وإنما تريد أن تتخذ من الإهداء وسيلة لزيادة التعرف على شخصية سليمان وأهدافه ، ولذلك تقول (وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ) ، والذى ينتظر أن يرجع به المرسلون أمران ، أحدهما جواب سليمان ، وهذا يكشف الكثير عن شخصيته وعن أغراضه ، والثاني مايقدمه هؤلاء المرسلون إلى الملكة من معلومات وأخبار عن سليمان وأحوال مملكته ، وعن قوة جيشه ، وعن نظام حكمه ، وغير ذلك مما يعنى المعرضين للحروب أشد العناية .

وبهذا تكون الملكة قد وصلت بفكرها وسداد رأيها إلى أفضل ماممكن التوصل إليه في مثل هذا الظرف العصيب .

العبرة :

وقد يقال : إن اهتمام سليمان برد المشركين إلى الدين الصحيح أمر واضح ، وكذلك دخول الملكة ومن معها في دين الله بعد وصول الهداية إليهم أيضا لايحتاج إلى كثير إعمال في الفكر ، ولكن سرد القرآن لتفاصيل المحاورة التي دارت بين الملكة وقومها ماحكمته ، أوماعلاقته بالدين ؟ .

ويجاب عن ذلك بأمرين ، أحدهما أن هذه المحاورة كانت سبيلا ووسيلة إلى الدين ، والوسيلة لاتنفصل عن الغاية ، من حيث إنهما يكملان أمراً واحداً ، أو ينتهيان إلى النتيجة المستهدفة ، والأمر الثاني أن القرآن لايفصل بين الدين والدنيا في التطبيق

العمل ، بمعنى أنه عند تكليف الإنسان ، لايكلف أموراً دنيوية منفصلة عن الدين ، بل يكلف أن تكون كل أموره دينية ودنيوية مطابقة لشريعة الله ، وسائرة على نهجها ، وبناء على ذلك فالقرآن يعنى بكل شئون الدنيا ، مطالبا أن تكون خاضعة للتشريع والتوجيه الديني .

وقد يقال : فما علاقة هذا التعميم ، بهذه المحاورة التي نحن معها ؟

والجواب أن هذه المحاورة ترسم صورة لأسلوب من أساليب الحكم ، يبدو بوضوح أن القرآن ارتضاها مثالا للحكم الصحيح وللأسلوب المرضى عنه في السياسة والحكم ، ويفهم ذلك من أن القرآن ذكر تفاصيل المحاورة ، دون تصريح أو إشارة إلى إنكار شيء من مضمونها ، ولو كان فيها موضع إنكار لذكره القرآن كعادته في أن يقرن كل فعل منكر أو مكروه بالنهي عنه والتنفير منه ، كما أنكر على هذه الملكة وقومها أنهم يعبدون الشمس ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾ ، ولكنه لم ينكر شيئاً من محاورتهم تصريحا أوتلميحا ، ومفهوم عناية القرآن بذكر شيء كهذا ، أنه موضع الرضا والإقرار .

وقد يقال بعد ذلك : فما المواضع التي نحس أن القرآن يجعل المحاورة من أجلها موضع الرضا والإقرار ، أو مثالا مرضيا عنه للسياسة وأسلوب الحكم ؟ .

والجواب أن هذه المواضع كثيرة ، يمكن أن نقتطف منها :

١ ــ الشورى : فالجانب الذى يبعث على الرضا في سياسة

الملكة ، التزامها الشورى ، وجعلها ذلك سياسة ثابتة لها ، وليس لمجرد الانفعال بأمر خطير ، أو موقف معين ، وشعار ذلك (ماكُنْتُ قَاطِعَةً أمراً حتّى تَشْهدونِ) والقرآن لايرى الشورى منّة من الحاكم أوتفضلا ، وإنما هو واجب أساسي في الحكم ، وجزء أصيل في السياسة ، ولذلك يجعلها طلباً واضحاً لالبس ولاتأول فيه (وشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ)[1] ، ويجعل القرآن الشورى صفة من صفات المؤمنين يختل جانب من إيمانهم باختلالها ، حيث يعد من صفات المؤمنين (وأمْرُهُمْ شُورى بيْنَهُمْ)[2] بل من إظهار أهمية الشورى أن تصبح اسما لسورة من سور القرآن الكريم .

ومن مثل هذا نفهم وجه الارتباط بين مبادىء القرآن ، وما يرتضيه من أخبار السالفين .

٢ ــ أمانة الملكة في عرض الموضوع ، حيث يبدو واضحاً أن موقف سليمان وكتابه كانا ضد المصلحة الشخصية الدنيوية للملكة ؛ فهو تهديد صريح وخطير لملكها وحياتها إن أبت ، ولملكها وعزتها إن خضعت ، وتحت هذا الانفعال الذى يهز كيانها ، ويتهدد حياتها كان يمكن أن تزيف كتاب سليمان ، أو شيئا منه ، أوتخفيه عن قومها ، أو أن تصوغه لهم بما يوافق رأيها الذى رأته مهما يكن هذا الرأى .

ولكنها أبت إلاعرضه عليهم كاملا كما هو ، وهذا يمثل الأمانة التى يجب أن يلتزمها الحاكم في كل أمره ، بأن يجعل محكوميه

(١) من الآية ١٥٩ سورة آل عمران

(٢) من الآية ٣٨ سورة الشورى .

على بينة كاملة من كل أمورهم ، فهذا أدعى إلى أن يحيطوه بالثقة والعون مهما قست عليهم الأمور ، أما عدم الأمانة فى عرض الأمور ، فإنه بالإضافة إلى مجافاته للدين والخلق ، فإنه فساد فى الحكم ، ولكنه فساد من طراز خطير ، فإن زلة واحدة من زلاته قد تدمر أمة ، وتقضي على آمال شعب .

وكون الأمانة من صلب الدين والتشريع ، أمر لايحتاج إلى توضيح ، ومن هنا أيضاً نتبين سبباً من أسباب رضا القرآن الكريم عن هذه المحاورة .

٣ ـ الحزم ، وقد كانت الملكة حازمة عازمة ، بأن صممت على التنفيذ بعد أن استبان طريق الحق لها ولقومها ، ولانعنى بطريق الحق هنا طريق الدين ، وإنما نعنى طريق الصواب فيما انتهت إليه المحاورة ، من ترك التفكير فى الحرب ، أو تأجيله ، وسلوك طريق آخر اتفقوا على أنه أفضل الطرق فى هذا الظرف ، فإن المحاورة لم تكن فى الدين ، وإنما كانت فى التماس وسيلة لمواجهة هذا الموقف.

والملكة سلكت فى حزمها وحكمتها ثلاث مراحل ، أولاها دراسة الموضوع حتى يتكون لديها فهم وحكم تقتنع به ، وثانيتها عرض القضية على قومها ، ومراجعتهم ومحاورتهم ، لعلها أن تعثر فيهم على رأى خير من رأيها ، أوتقنعهم برأيها الذى تكون لديها إن لم تجد عندهم خيراً من رأيها ، ولكنها لم تجد خيراً من رأيها ، ومع ذلك التزمت أسلوب المنطق والحجة ، ليكون اتباعهم لها عن اقتناع وليس تحت عصا السلطان ورهبته ، وثالثة المراحل ، أنها حين أقنعتهم ، وأصبح طريق الصواب واضحاً لهم جميعاً ، لم تتردد ،

بل مضت فى حزم وعزم لتنفيذ ما ارتأته صوابا ، وشعار ذلك (وإنى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يرجع الْمُرْسَلُونَ) فهى تشاورهم فى التماس الطريق الأصوب ، وحينما يتفقون على وضوحه ، فقد انتهت المشورة ، وانتهى التردد ، والتشاور ليس حينئذ من المصلحة فى شىء .

وهذا المعنى أيضاً مما رسمه القرآن بوصفه تشريعا سياسيا ملزما وواجبا ، حيث يقول (وشاوِرهُم فى الأمرِ فَإِذَا عزَمْتَ فَتَوَكَّلْ علَىَ اللهِ ..)[1] فالمشورة واجبة فى الأمر حتى يتضح وجه الصواب للقائد والمقودين معا ، فإذا اتضح فالمسئولية هنا ينفرد بها القائد ، حيث يجب عليه أن يمضى ، وهم معه ، وقد حققت الملكة هذا فى سياستها حيث تقول (ماكنت قاطعة أمرًا حتى تشهدون) فهى التى تقطع الأمر ، ولكن بعد استشارة قومها .

وإذا تأملنا فى تردد ولى الأمر بعد وضوح الصواب ، نستطيع أن تدرك مدى الخطر ، أو الضرر الذى يلحق ليس بالولى وحده . بل بالأمة أو الجماعة كلها .

٤ — ومما يبعث على الرضا فى المحاورة موقف المحكومين ، حيث كانوا يمثلون خير ماينبغى أن يكون عليه الأتباع ، وذلك أنهم جمعوا فى موقفهم هذا بين ثلاث خصال ، أولاها الإخلاص ، ممثلا فى استعدادهم للتضحية بكل شىء ، وشعاره ، (نحن أولو قوة وأولو بأس شديد) فهم إذن مستعدون لبذل كل شىء ، وثانيتها

---

(١) من الآية ١٥٩ سورة آل عمران .

الطاعة وشعارها (والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين) فهم لاينازعونها سلطانها ، وهم مستعدون لتنفيذ أوامرها ، وثالثتها مراقبة الحاكم وشعارها (فانظرى) بمعنى فكرى وتدبرى ، فهم مع الإخلاص والطاعة لايغمضون أعينهم ، ولاينقادون عن جهل وعمى ، وإنما يطلبون منها أن تكون قيادتها لهم عن بصيرة وتعقل وتدبر .

وكل ذلك مما يجعله الإسلام تشريعا وتوجيها عاما ، فأما الطاعة لولى الأمر فهى صريحة فى أوامر القرآن الكريم دون شرط ، إلا شرطا واحدًا ، هو أن يلتزم ولى الأمر شريعة الله ورسوله فى حكمه وسياسته ، فإن حاد عنها ، فللأتباع والمحكومين أن ينازعوه حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) (١) ومعنى ذلك أن شريعة الله والرسول فوق طاعة الحاكم ، بحيث إذا اختلف الحاكم والشريعة ، فالطاعة والمرد إلى الشريعة ، وليس إلى الحاكم . وكذلك الإخلاص لولى الأمر ولغيره ، من صلب الدين ، ويعبر عنه بالنصيحة ، التى يعفى عن كثير ، ولايعفى عن شىء منها كقوله تعالى (ليس على الضعفاء ولاعلى المرضى ولا على الذين لايجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ... (٢)) وفى الحديث الشريف (الدين النصيحة ، قيل لمن ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لله ولرسوله وللمسلمين) . وكذلك مراقبة الحاكم من واجبات المسلمين ، ويكفى أن تتمثل هذه المراقبة فى إلزام الحاكم شريعة الله ، ثم إن الأمر بالتزام

(١) من الآية ٥٩ سورة النساء .
(٢) من الآية ٩١ سورة التوبة .

شريعة الله ، وحكم من لم يحكم بها ، كل ذلك فى القرآن شديد الوضوح ، وليس فى حاجة إلى تبيان .

٥ ــ ومما يبعث على الرضا عن المحاورة أنها كانت وسيلة أو بداية الطريق إلى الإيمان بالله ، ثم كانت الخطوات التالية كلها اتجاها إلى الله ، حتى انتهت بقرار الملكة (قالت رب إنى ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) .

٥ ـ فى طلب العلم

بسم الله الرحمن الرحيم

« فَوَجدا عبدًا مِنْ عِبادِنَا آتَيْنَاهُ رَحمةً مِنْ عِنْدِنا وعلّمْنَاهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً ، قَالَ لَهُ موسى هلْ أتّبِعُكَ علَى أنْ تُعلّمن مِمّا عُلّمتَ رُشداً ، قَالَ إنّكَ لَنْ تَستَطِيع معِى صبراً ، وكَيفَ تَصبر علَى مالَم تُحِط به خُبرا ، قَالَ ستَجدنى إنْ شَاء اللهُ صابراً ولا أَعصى لَكَ أمراً ، قَالَ فَإن اتّبعتنى فَلاَ تَسألْنى عنْ شَىء حتَى أحدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا »[1] ...

جوانب المحاورة

١ ـ السياق :

يتلخص سياق المحاورة فى أن موسى عليه السلام ، كان شديد الولع بالعلم ، وبأن يبلغ منه أقصى مايتاح لبشر أن يبلغه ، وكأنه أحس أنه لكونه نبى عصره لاينبغى أن يكون على وجه الأرض من هو أعلم منه ، فليس فوق النبوة منزلة ، ولكنه عرف أن هناك شخصا لديه من العلم مالم يبلغه هو ، وهو الخضر ، فطلب من ربه أن يدله على مكانه فدله ، فاصطحب خادمه وصمم على هذا السفر الطويل ، وعلى ألا يرجع حتى يلقى الخضر ، ولو قضى بقية حياته فى هذا السفر . ونفذ عزمه هذا ، حتى وصل إلى الخضر ، ومع

(١) الآيات ٦٥ ـ ٧٠ سورة الكهف .

موسى خادمه فى تفاصيل لا تعنينا هنا ، وإنما يعنينا هنا أنه ليس له إلا هدف واحد ، هو أن يتلقى العلم عن هذا العالم .

٢ ـ طرفا المحاورة :

فأما الطرف الأول فهو موسى عليه السلام ، ورغم أنه من أعظم أنبياء البشرية ، وأحد أولى العزم الخمسة من الرسل ، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، فإنه مع ذلك كان فى هذا الموقف الذى تمثله المحاورة مجرد طالب علم .

وأما الطرف الثانى الذى ذكره القرآن بلفظ (عبداً من عبادنا) فهو المشهور باسم الخضر ، وإن لم تكن هناك رواية صحيحة بهذا الاسم عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو وحده الذى يستطيع أن يبين شيئا لم يبينه القرآن كهذا ، والاسم لذاته غير ذى أهمية وإنما تنصب الأهمية على صفته ومايصدر عنه ، فالذى يعنينا أن القرآن حدد له صفتين ، إحداهما الرحمة ، وهى صفة تنبىء عن الخلق الذى يظهر أثره فى السلوك ، والمفسرون يرجحون أن المراد بها العصمة عن السوء ، وقد أخذوا هذا المعنى من القرآن نفسه ، فى قوله (وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى) [1] حيث كان السياق هنا يشير إلى أن المراد بالرحمة العصمة من السوء ومهما يكن من شىء ، فواضح أن الرحمة هنا وصف يتعلق بالخلق والسلوك .

والصفة الأخرى أنه عالم ، وهذه الصفة هى التى ارتبطت بها

---

(١) الآية ٥٣ سورة يوسف .

المحاورة ، ولكننا نلحظ فى تعبير القرآن عن الصفتين ، أنهما من طراز غير عادى ، وأنهما من نوع خاص ، وليس عاما ، فالرحمة موصوفة بأنها (رحمةمن عندنا) والعلم أيضا موصوف بأنه من قبل الله مباشرة (وعلمناه من لدنا علما) فإنه وان كان كل شيء من عند الله ، إلا أن هناك فرقا كبيرا بين ماهو من عند الله مباشرة ، أو بصفة خاصة ، وبين ماهو من عند الله مشاعا للناس ، أو مافيه واسطة بينه وبين الله ، فالرحمة من عند الله مباشرة ، كالعصمة التى يهبها الله لنفر معدود أو قليل من البشر ، وهم الأنبياء ، وكذلك هذا العلم الذى منحه الخضر ، ليس علما مشاعا كالعلم بمعناه العام ، وإنما هو علم خاص ، من الله مباشرة ، كرؤية بعض المغيبات ، مما اختص الله به نفسه ، لايمنحه إلا لأفراد معينين ، لايلزم أن يكون من بينهم الأنبياء ، ولذلك لم يكن منهم موسى عليه السلام .
وهنا ملحوظة استوقفت المفسرين ، وعنوا بمحاولة إذهاب ماقد يشوبها من لبس ، وهى أن المفروض أن يكون الأنبياء أعلم من غيرهم ، فكيف يكون موسى دون الخضر فى العلم ؟ ، ونراهم لذلك يقولون إن الخضر نبى ، ويرتبون على ذلك أنه لابأس بأن يأخذ النبى العلم من نبى آخر ، وإنما البأس أن يأخذ من غير النبى ، مع أن هذا التعليل لايكفى للاجابة والإقناع ، فحتى لو افترضنا أن الخضر نبى ، فإنه غير مرسل ، والنبى المرسل كموسى أفضل من النبى غير المرسل كالخضر ، ويظل الوضع حينئذ فى الفارق بينهما قائما .

والواقع أن الأمر ليس فى حاجة إلى التماس العلل ، ولا إلى إثارة

الملحوظة أصلا ، فالنبي لايفترض تفوقه إلا فيا يتعلق بصفته وهى النبوة ، فالنبوة أداة الهداية للناس ، والنبي ينبغى أن يكون أعلم الناس وأصلحهم فى هذا المعنى وحده ، وهو الهداية ومايتعلق بها ، كما أن العرف يحدد أن التفوق يكون فى الصفة التى هى موضوع التفوق والمفاضلة دون غيرها ، فتفوق الطبيب مثلا يكون فى الطب ، ولا يضيره أن يكون هناك من هو أعلم منه فى الهندسة أو الأدب أو فى غيرهما ، ولايقلل من قدر المهندس ألا يكون عالما فى التجارة أو الحدادة أو غيرهما ، فالشيء الوحيد الذى يمس منزلة النبى أن يكون هناك من هو أفضل منه فى صفته ذاتها ، وهى الهداية وما يتعلق بها ، ولايقلل قط من قدره أن يكون هناك من هو أعلم منه فى أى شىء آخر ، كالمهن والصناعات ، أو أى شىء لايرتبط بالهداية التى هى مهمة المرسل من عند الله ، ومن الواضح أن علم الغيب ليس مرتبطا بالهداية ، فلو افترضنا مثلا أن الملائكة يعلمون شيئا من الغيب ، فانه لايقلل من منزلة الأنبياء أنهم ليسوا ملائكة ، أوليست لهم صفات الملائكة ، وإذن فلايقلل من منزلة موسى قط أن يكون هناك من هو أعلم منه فى أى شىء خارج صفة النبوة والرسالة ، بل مما يزيده فضلا وشرفا أن يلتمس العلم ويستفيده ممن هو دونه ، كما حاول مع الخضر ، بل إن محمدا صلى الله عليه وسلم التمس العلم والفائدة ممن هم دون الخضر ، كالتماسه من الحباب بن المنذر فى بدر ، ومن سلمان الفارسى فى الخندق .

٢ ـ موقف الطالب :

وقد كان موسى فى موقفه من الأستاذ مثالا جمع أقصى مايمكن لطالب العلم أن يجمعه ، ليتوسل به إلى تحصيل العلم ، ولسيطرة الرغبة الشديدة الملحة على موسى فى أن يحصل من هذا العلم ولكونه يذل جهدا قاسيا مضنيا لايريد ولايرضى أن يذهب‌هبا . ، ولكونه غير واثق من موافقة الأستاذ على قبوله طالباً ، نجده يركز كل جهده فى تضمين كلماته أقصى مايتاح للألفاظ .أن تحمل ، عساها أن تقع من نفس هذا العالم موقع الرضا فلايرفض تعليمه (قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا) ؟ وإذا تأملنا هذه الكلمات التى توسل بها موسى إلى أستاذه نجد فيا تتضمنه من إشارات مايأتى .

لفظ (له) تلحظ أنه يفيد تخصيص الخطاب من موسى إلى الخضر مباشرة ، ولو كان التعبير قال موسى دون ذكر (له) لكان هناك احتمال ولو ضعيف أنه أرسل إليه خادمه مثلا ، ولكن التعبير يفيد أنه ذهب بنفسه ، وأنه طلب هذا المطلب بنفسه أيضا ، وهذا مما يقتضيه خلق طلب العلم ، أن تكون الصلة بين الطالب ومعلما مباشرة ، وأن يتواضع طالب العلم مهما تكن منزلته .

ولفظ (هل) استفهام فى أسلوب العرض والرجاء ، وكأنه لايطلب منه طلبا ، وإنما يسأله مجرد سؤال : هل يقبل ؟ .

ولفظ (أتبعك) يتضمن أقصى الخضوع النفسى ، وكأنه يهيء نفس العالم بأسلوب يخجل معه أى كريم أن يرد طلبا ، حيث

كأنه يقول له : قبل كل شيء، أريد أن أكون تابعا لك ، فهل تقبل ؟ والتبعية هنا إشارة إلى ثقة الطالب في معلمه ، حيث إذا انعدمت ثقته في علم أستاذه انعدمت استفادته .

ولفظ (على) يفيد الاستعلاء . وفي ظاهره التعارض مع ألفاظ الخضوع السابقة ، ولكنها حكمة الأسلوب ، أن يجمع بين الأمرين فكأنه بعد أن قدم أقصى الخضوع لأستاذه ، أولمن يريده أستاذا أراد أن يشعره بشيء من حقيقته هو ، وكأنه يقول له : إن ما أقدمه من خضوع ليس هواناً ، وإنما هو مقابل شيء أطالبك به ، هو العلم فكما أني أخضع في جانب ، أشترط عليك في جانب آخر .

ولفظ (تعلمنى) يفيد أنه لايطلب من أستاذه أكثر من بذله علمه ، سواء تعلم الطالب أولم يتعلم ، بخلاف مالو قال له : على أن أتعلم ، فهو حينئذ يشترط عليه أن يصبح متعلما أي أن يستفيد قدرا من العلم ، أما تعبير موسى الدقيق فهو (على أن تعلمن) أي أن تبذل علمك لى ، ولاعليك بعد ذلك إن استفدت من علمك أولم أستفد ، فالمعلم دائما يملك أن يقدم علمه ، ولكنه لايملك أن يغرس هذا العلم في نفس تلميذه .

ولفظ (مما) يتكون من كلمتين (من) وهي حرف جر يفيد التبعيض ،و (وما) اسم موصول بمعنى الذى ، والمعنى على أن تعلمنى بعض مالديك من العلم ، ولو قال له موسى على أن تعلمنى ولم يزد ، لاحتمل أنه يريد أن يعلمه كل علمه ، أو قدراً كبيراً من علمه كما هو مألوف في رغبة طالبي العلم ، ولكن موسى يتلطف ، ويهون

الأمر على الخضر ، وكأنه يقول : يكفيني منك بعضا من العلم ، وهذا البعض تحدد قدره وكميته أنت كما تريد .

وكلمة (علمت) يلفت النظر فيها البناء للمجهول ، فلماذا لم يقل مما تعلمت ؟ أو مما لديك ؟ والواقع أن البناء للمجهول يشير إلى معنى دقيق ، وهو أن علم الغيب الذى لدى الخضر لايكتسب اكتسابا كالعلم العادى ، ولذلك لايصلح أن يقول مما تعلمت ؛ فهو هبة محضة من الله ، لادخل للإنسان فى اكتسابه وتحصيله ، ويمكن أن نفهم إشارة أخرى من بناء الفعل للمجهول ، وهى كأن موسى يقول له : كما أن هناك من تفضل عليك بهذا العلم ، وهو الله سبحانه ، دون أن تبذل فيه جهدا أو أجرا ، فكذلك لاتبخل أنت بأن تمنح بعضا منه لغيرك .

وكلمة (رشدا) يبين بها موسى هدفه من الحرص على العلم ؛ وهو طلب الرشاد وأن يكون هذا العلم وسيلة إلى الخير والهدى ، وهكذا علم الأنبياء والمؤمنين عامة ، يكون وسيلة إلى الخير وليس إلى الشر ، ولكن تصريح موسى بهذا الهدف يتضمن حملا لهذا العالم على أن يعلمه ، فما دام هذا العلم يحقق خيراً ورشدا ، فكيف يحجبه صاحبه ويكون سبباً فى منع هذا الخير المرجو ؟ .

٤ ـ موقف العالم :

وأما العالم وهو الخضر ، فقد كان رده ينبىء عن منطق العلماء وأسلوبهم ، الذى يعتمد على تحديد الأحكام ، والتعليل لما يصدرونه من حكم ، أو يرونه من رأى ، مع دقة التعبير فى كلا الأمرين ، ويستوقفنا فى رد الخضر :

ـ أنه لم يرفض تعليم موسى ، وهكذا خلق العلماء فى عدم الضن بما لديهم من علم ، ولكنه يجد أن هناك سببا يجعل تعليمه غير مجد ، وكأنه يقول لموسى : لست آبى أن أعلمك ، ولكن هناك ما يمنع ، وسأخبرك به .

٢ ـ كان هذا المانع هو علم الخضر أن موسى لن يستطيع الصبر على آثار هذا العلم الغريب الذى يحمله الخضر ، ومثل الخضر الذى اختصه الله ببصيرة نافذة إلى الغيب ، من المتوقع أنه لاتخفى عليه نتيجة صلة موسى به ، ولذلك نجده يتحدث عن المستقبل ليس حديث الظن أو الترجيح كما ينبغى لأى إنسان ، وإنما يتحدث حديث التأكيد المنبيء عن العلم واليقين ، فيقول (إنك لن تستطيع معى صبرا) ، فهو يرد على موسى ، بأن علمه للنتيجة المستقبلة يجعله غير مستعد للتعليم .

٣ ـ تلحظ تعبيره المهذب الدقيق فى رده على موسى ، فحين نفى عنه القدرة على الصبر ، لم ينفها على الإطلاق ، وإنما نفاها فى حالة معينة ، هى صحبة موسى له وذلك فى لفظ (معى) الذى انصب النفى عليه ، فى قوله (إنك لن تستطيع معى صبراً) بمعنى أنى لاأنفى عنك صفة الصبر ، وإنما أنفى مقدرتك على الصبر فى حالة معينة ، هى صحبتك لى ، أما فى غير هذه الصحبة فلا أنفى عنك فيه شيئا ، وتلحظ أيضا التنكير فى (صبرا) بمعنى أنك مهما كنت صبورا فإنك فى حالة صحبتى لاتستطيع صبرا ولو يسيرا ، فالتنكير هنا يوحى بالإطلاق والتعميم على أن لفظ (تستطيع) يحمل أيضا إشارة بالتماس العذر لموسى فى عدم المقدرة على الصبر

فمعناه أن هناك مثيرا يدفعه إلى عدم الصبر ، وكأنه هو يقاوم ويحاول أن يصبر ولكنه لايستطيع .

٤ – بأسلوب العالم فى التعليل يحاول الخضر أن يقنعه ، بتوضيح العلة فى الحكم السابق ، وهى (وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) بمعنى أن الإنسان يصبر عادة وتطمئن نفسه حين يكون الأمر واضحا مفهوما لديه ، أما مايجهله فإنه يثير لديه الغرابة وحب الاستطلاع ، وهذه طبيعة فى الناس عامة ، ولكن موسى يتميز عن الناس بأنه نبى ، وهذا يقتضى على وجه اليقين والوجوب ، أنه لايعمل عملا ، ولايرضى عن عمل إلا إذا كان شديد الوضوح فى أنه خير ، أوبعيد عن الشر كالمباح ، ولذلك كان تعبيره (مالم تحط به خبرا) فالإحاطة تقتضى التمكن ، والخبر (بضم الخاء) بمعنى الاختبار ، وكأنه يقول : إنك لن تصبر على شيء إلا إذا أحاط به علمك وخبرتك .

والاستفهام المستفاد من (كيف) يحمل معنى التعجب ، بمعنى كيف تستطيع الصبر ، والسكوت على أمور غير مرضية ، وهى مجهولة الأسباب والدوافع ؟ .

٥ – يحاول الخضر أن يجعل رغبته فى الامتناع غير واضحة ، من جهتين ، إحداهما أنه لم يصرح بعدم رغبته فى تعليمه ، والأخرى أنه ختم رده عليه بسؤال (كيف تصبر ...) بمعنى إذا كانت لديك وسيلة للصبر أوكنت واثقا من مقدرتك عليه ، فأجبنى ، وعندئذ لامانع فى تعليمك إذا اقتنعت بقولك . وإذن فالنتيجة يحددها رد موسى على هذا السؤال ، وسنعرض له .

٦ ــ حين استمع الخضر إلى جواب موسى ، ووجده مصمما على التعلم ، ووجد جوابه فى المنطق العادى مقنعا للذين لايعلمون النتائج والمستقبل ، ولاعذر حينئذ للخضر فى الرفض ، وافق على قبوله طالبا يتعلم على يديه ، ولكنه اشترط عليه شرطا (قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) والتعبير بلفظ (إن) يوحى بالشك فى استمرار تبعيته له ، وهو عود إلى ماذكره أولا ، والتنكير فى (شىء) فيه الواقع القاسى على موسى ، وهو أنه لايستطيع الاستفسار عن شىء قط ، فالتنكير للتعميم .

ولفظ (أحدث) يوحى بأن أى توضيح من جانب الخضر لابد أن يكون نابعا من رغبته ، وأن يكون هو البادىء به ، فلا يستدرجه أحد إلى الحديث ، ولايجره أحد إلى بيان مالايريد بيانه .

جواب الطالب :

وحين وجه الخضر سؤاله إلى موسى عن كيفية صبره على مايجهل السبب فيه أو المبيح له ، لجأ موسى إلى مايعرف بأسلوب الحكيم ، وهو تجاهل السؤال ، والإجابة بما يتطلبه الموقف ، فلم يجب الخضر على سؤاله ، وكأنه يقول له : لايعنيك كيف أصبر ، وإنما يعنيك ماتريده وهو أن تجدنى صابرا أثناء صحبتى لك .

وبالإضافة إلى هذه البراعة السابقة فى جواب موسى ، نجد فى مضمون جوابه :

١ ــ وعداً بتحقيق مايطلبه أستاذه وهو الصبر ، وقد كان دقيقا فى هذا الوعد ، فلم يؤكد له مقدرته على الصبر ، وإنما ساقه مساق التوقع بلفظ (ستجدنى) .

٢ — بلغة المؤمنين يقرن موسى فعل المستقبل بمشيئة الله ، فيقول (ستجدنى إن شاء الله صابرا) كما يقول تبارك وتعالى (ولاتقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) فإن المستقبل لايملك مخلوق قط منه شيئاً ، لأنه لايدرى ماذا سيكون فيه ، بل لايدرى أيظل هو حيا لهذا المستقبل أم لا ، فالذى يملك المستقبل هو الله سبحانه ، ولذلك يجب أن يقرن كل فعل للمستقبل بمشيئته سبحانه .

٣ — ونجد أيضا وعدا بتحقيق ماعرضه موسى على الخضر منذ بدء لقائه وهو أن يكون تابعا له ، فالتبعية تقتضى الطاعة الكاملة ، ولذلك ينفى أن يصدر منه عصيان قط للخضر (قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولاأعصى لك أمرًا) .

وحينئذ يكون قد قدم إلى الخضر مايريده وهو الصبر وقت صحبته ، ويزيد على ذلك تقديم ماألزم نفسه إياه ، وهو التبعية التى تترتب عليها الطاعة الكاملة . قارنا كل ذلك بمشيئة الله .

وقد سبق القول بأن هذا الجواب من موسى ، اقتضى قطع حجة الخضر ، فلم يعد له عذر لرفض التعليم ، حيث إن حجته أن موسى لن يستطيع الصبر ، فما دام موسى يثق فى مقدرته على الصبر ، بل على درجة فوق الصبر العادى ، وهى التبعية المتضمنة للثقة المطلقة ، فلا حجة بعد ذلك للخضر ، وكونه يعلم النتيجة المستقبلة فى الغيب ، فهذا غير مقنع لمن لايعلم الغيب ، لأن العقل لايستطيع أن يبنى أحكاما تخرج عن حدود المدركات العامة للبشر ، فضلا عن أن يجعلها موضع الإقناع [١]

(١) من أراد المزيد فى متابعة المحاورة ينظر كتاب نصوص أدبية من العصر الاسلامى للمؤلف .

العبرة :

والمحاورة حافلة بالتوجيه والعبرة فى جوانب عديدة ، ولكننا إذا نظرنا إليها من الجانب التعليمى وحده ، الذى هو موضوع الاستشهاد بالمحاورة ، نلمح فيها .

١ - تبرز المحاورة فى سياقها مثالا لما ينبغى أن يتنبه إليه الناس من اهتمام بالعلم ، والسعى إليه ، وبذل أقصى مايتاح من جهد لالتماسه وتحصيله ، فإن سياق المحاورة ، فى الآيات السابقة لها ، يرفع لنا مثالا رائعاً مثيراً ، فيما بذله موسى وصمم عليه حتى وصل إلى العالم الذى يريد أن يلتمس العلم عنده ، ويدل عليه (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حُقباً) والحقب فى اللغة ثمانون سنة ، يقول لخادمه : لابد من الوصول إلى هذا العالم عند مجمع البحرين ، ولو كلفنى هذا سفرى ثمانين سنة ، وقد لقى فى سفره هذا من العناء المضنى ماكان كفيلا أن يزهده فى أى هدف آخر ، إلا العلم ، فإنه يحتمل فى سبيله أقصى مايحتمل ، ومثال هذا (قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نَصباً) والنصب التعب الشديد ، وطلبه الغداء يدل على أنه اجتمع عليه التعب والجوع .

وكل ذلك يحتمله لالشىء ، إلا للتصميم على تحصيل العلم .

٢ - تتضمن المحاورة مثالا لخلق طالب العلم فى عدة نواح ، منها تواضعه وتناسيه لكل ميزة أو صفة ترفعه أو تميزه عن غيره ، كما تناسى موسى أنه نبى ، فى توسله إلى هذا العالم أن يقبله طالبا ، وكما تناسى أنه يملك بعض التميز الاجتماعى ، ودليله أن لديه خادما ،

فهو ليس من الطبقة الدنيا فى المجتمع ، ومع ذلك يتناسى كل ذلك فى حضرة معلمه ، فلايستخدم خادمه فى المراسلة مع معلمه ، ولا يخاطبه من موضع التعالى أو التوسط ، بل من الموضع الأدنى حيث يطلب منه قبوله تابعا مطيعا لايعصى له أى أمر ، ومن نواحى هذا الخلق اختيار الطالب لأحسن الأساليب والألفاظ فى مخاطبة معلمه ، دون أن يرى غضاضة فى الخضوع له .

وكل هذه المعانى إن دلت فى المجتمع على تفرقة بين الناس ، حين تجعل من بعضهم أحياناً سادة أعزة ، ومن بعضهم أتباعاً مهينين ، فإنها فى دور العلم لاعلاقة لها بشىء من ذلك ، وإنما تدل على شىء واحد ، وتحققه أيضاً ، وهو الثقة الكاملة للطالب فى معلمه هذه الثقة التى إن فقدت فلن يستفيد الطالب من معلمه ، وبمقدار نقصان الثقة ، تنقص الفائدة . فإذا اكتملت الثقة تحولت إلى تبعية روحية من الطالب لمعلمه ، كهذه التى تعرضها المحاورة .

٣ — تتضمن المحاورة بيان أهم مايلزم طالب العلم فى تحصيله للعلم نفسه ، وهو الصبر على مايقتضيه تحصيل العلم من جهد نفسى وعقلى وبدنى ، ولذلك نجد الخضر لايريد من طالب علمه إلا شيئاً واحدًا ، هو الصبر ، وقد يقال إن الموقف هنامنصب على نوع معين من العلم الغيبى لايستطاع السكوت والصبر على آثاره ، والجواب أن هذا حق ، ولكنه لاينفى أن هذا العلم الغيبى أيضاً نوع من العلم ، ولئن كان العلم العادى يحتاج إلى الصبر فى التحصيل ، فإن العلم الغيبى أحوج إليه فى التطبيق ، فالعلم عامة يحتاج أول مايحتاج إلى الصبر والتحمل فى تحصيله . وكل شىء يمكن تصور

الحصول عليه دون جهد وعناء إلا العلم . فيمكن تصور الحصول على المال أو المنصب أونحوهما دون عناء . ولكن الشيء الوحيد الذى لايتصور اكتساب شيء منه دون جهد هو العلم . ومما يلفت النظر فى المحاورة . أن الخلاف كله بين الخضر وموسى كان يدور حول الصبر على تحصيل العلم .

٤ – أن يكون للطالب ، وللتعليم نفسه هدف محدد ، وينبغى أن يكون هذا الهدف واضحا فى خبريته ونفعه ، كما حدده موسى فى الرشد ، بمعنى الاسترشاد به إلى الخير (على أن تعلمنى مما علمت رشدا) ومن أشد العقبات التى تعترض العلم فى كل العصور فتحول دون تقدمه أو عموم نفعه ، انحصاره فى أغلب الأحيان فى إحدى رغبتين ، رغبة الطالب فى مجرد أن يتخذه سلما يرتقى به إلى تحقيق هدف شخصى ، فإذا حققه فلابأس بأن يلقى بهذا العلم فيما يلقى من المهملات ، ورغبة المجتمع فى أن يتخذ من العلم مجرد أداة للهدم والتحطيم ، فإذا حقق ذلك ، أوفرغ من شأنه ، لم تعد للعلم عنده أهمية ، كما نرى فى تسخير الأمم علومها لصناعة السلاح ، وفى أغلب أحوالها ليس للدفاع ، وانما للبغى والعدوان أحيانا ، وللتجارة أحيانا أخرى ، بينما لايحظى بذلك الطب الذى تتلهف البشرية على كل خطوة يخطوها ، ولكنه لايكاد يخطو ، لأنه لايحظى إلا بأيسر الاهتمام ، وحتى الخطوات المشلولة التى يخطوها إنما تتم بجهود فردية نابعة من نفوس خيرة ، وليس من جهود أمة .

٥ – تبين المحاورة مثالا لما ينبغى أن يكون عليه العالم من خلق ، ومن جوانب هذا الخلق :

١ ــ ألا يبخل العالم بعلمه ، فلاينبغى قط أن يضن بعلمه على طالب ، مادام هذا الطالب صالحا لتلقى العلم بمعنى أن يكون هناك أى أمل فى استفادته ، ولذلك نجد الخضر لايبدى أى ممانعة فى بذل علمه ، وإنما المحاورة مبنية على أنه يعلم أو يرجح أن هذا الطالب لن يستفيد من علمه .

٢ ــ أن يكون المعلم رفيقا بطالب علمه ، رحيما به ، مستعدا للتجاوز عما قد يصدر منه من هفوات مادام حسن النية ، وفى المحاورة وخاصة فى الآيات التالية ، عدة أمثلة لهذا ، ومن ذلك أنه بعد أن اتهم موسى أستاذه بالإجرام حين قتل الغلام قائلا (لقد جئت شيئا نكرا) كان كل رد معلمه عليه (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا) .

٣ ــ أن يعتمد المعلم على الإقناع ، فانه إذا فقد الإقناع خسر أهم مايميز المعلم ، وكيف يستفيد الطالب من شىء لايقتنع به ، ولذلك نجد الخضر يعتمد على أسلوب الإقناع ، كقوله معللا لحكمه على موسى بعدم الصبر (وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) ؟ ثم كانت محاورته بعد ذلك كلها تتضمن نوعا من التعليل .

٦ - فى صراع النفس

بسم الله الرحمن الرحيم

« ربِّ هبْ لى مِنَ الصالحِينَ ، فَبشرْنَاهُ بغلامٍ حليمٍ ، فَلَمَّا بلَغَ معهُ السَّعي قالَ يابُنَيَّ إِنِّي أَرى فى المنَام أنِّي أَذْبحُكَ فَانظُرْ ماذَا تَرى قالَ ياأَبت افعلْ ماتُؤْمرُ ستَجدُنى إِنْ شَاء الله مِنَ الصَّابرينَ ، فَلَمَّا أَسْلَما وتَلَّهُ للْجبِين ، ونَاديْنَاهُ أَنْ ياإِبْراهِيمُ قَدْ صدَّقْتَ الرؤيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزى المحسِنِينَ ؛ إِنَّ هذَا لَهُو الْبلاءُ المُبِينُ ، وفَديناهُ بِذِبْحٍ عظِيمٍ » (1) .

عناصر المحاورة

١ - الموضوع :

ومن الواضح أن موضوع المحاورة هو رغبة إبراهيم عليه السلام فى أن يذبح ابنه ، بناء على رؤيا فى المنام ، ورؤيا الانبياء نوع من الوحى إليهم ، بمعنى أن النبي حين يرى فى المنام رؤيا ، فكأنما أوحى إليه فى اليقظة ، فإذا تضمنت الرؤيا تكليفا أو توجيها فهو إلزام للنبى كالوحى فى اليقظة ، وقد هيأ إبراهيم نفسه ليذبح ابنه منفذا ما رآه فى منامه ، ولم يطل الحوار بينهما ، فقد استسلم الابن راضيا مطمئن النفس إلى أمر الله

---

(١) الآيات ١٠٠ - ١٠٧ سورة الصافات .

٢ ـ السياق :

كان ابن إبراهيم ، وهو ـ على أرجح الأقوال ـ إسماعيل ، وحيد أبويه ، وقد جاء إلى الدنيا ، ثم وصل إلى قصة الذبح تحيط به الملابسات الآتية :

(ا) قضى إبراهيم وزوجه ما شاء الله أن يقضيا دون ولد ، وألحت على إبراهيم أمنية أن يكون له ولد صالح ، فدعا ربه (رب هب لى من الصالحين) فاستجاب له ربه ، ومعنى ذلك أن إسماعيل كان وحيد والديه ، وأنه جاء بعد شوق وتمن وضراعة إلى الله ، وهذا كله مما يزيد فى حب والديه ، وتشبثهما به ، وحرصهما على إبعاد كل أذى عنه .

(ب) كان إسماعيل بادى النجابة والنبوغ ، حتى ظهرت عليه بوضوح وهو مازال فى صباه ، صفات لاتتوافر عادة إلا للكبار ، بل للافذاذ من الكبار (فبشرناه بغلام حليم) ومع أن الحلم يطلق غالبا على كظم الغيظ وقوة التحمل ، إلا أنه يطلق كثيرًا على رجاحة العقل ، وبخاصة حينما يجمع ، فيقال هؤلاء ذوو أحلام أى عقول راجحة ، ومن ثم فإن وصفه بأنه حليم يحتمل أن يكون بمعنى هدوء الطبع فى الشدائد ، وكظم الغيظ عند الغضب ، وهو مايجنح إليه المفسرون ، ولكن هذا لايمنع احتمال إرادة رجحان العقل كما يدل عليه الاستعمال اللغوى الشائع ؛ بل ليس هناك مايمنع من دلالة اللفظ على اجتماع الوصفين فيه ، وهناك أوصاف أخرى له ، منها فى القرآن (إنه كان صادق الوعد) ومنها (وإسماعيل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين) ومهما يكن من شىء ، فإن ذلك يدل

على أن اسماعيل رغم صباه كان بادى النجابة والتفوق . وهذا مما يزيد والديه حباً له ، وسعادة به .

(ج) كان إسماعيل حينئذ قد بلغ حد التكليف ، الذى يدخل معه في عداد الشباب والرجولة ، ونستنبط من هذا أمرين ، أحدهما أنه لم يعد طفلا ، وهذا مما يزيد والديه تعلقاً به ، وحاجة إليه ، ويجعل فقده أقسى عليهما ، وأشد ضرراً ، والأمر الآخر أنه ببلوغه التكليف المشار إليه في الآية (فلما بلغ معه السعى) يكون قد خرج من وصاية أبيه عليه ، ويكون عرض أبيه عليه قبول الذبح تخييرا وليس إلزاما كما سيأتى .

٣ ـ موقف الأب الذابح :

« فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى في المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى » .

وقد كان من المواقف النادرة الرهيبة فى التاريخ ، ومجمل هذا الموقف أنه أب يطلب إليه أن يذبح ابنه الوحيد الحبيب بيده ، دون ذنب أو انفعال صدر من الابن ، وما كان لأب أن يفعل ذلك بابنه مهما كان الأمر ، لولا أن الآمر هو الله سبحانه ، ولذلك استجاب إبراهيم ، وأعد أداة الذبح ، وانتحى بابنه مكانا قصيا منعزلا ، هو على أرجح الاقوال مكان النحر في مناسك الحج الآن ، وعرض على ابنه الموقف منتظراً جوابه .

ولكن اليسير من التأمل يوحى بالمعانى الآتية :

١ ـ تكرار القصة ، وذهاب معنى المفاجأة في استماعها ومتابعة

أحداثها ، لاينبغى أن ينسينا تأمل نفسية إبراهيم بوصفه أبا كريما رحيما ، ومشاعره حين يتصور أنه سيذبح ابنه الوحيد بيده ، وما يثيره مرأى ابنه الوادع المستسلم ، ومشاعر أخرى كثيرة يفيض بها هذا الموقف الرهيب ، ولاينبغى أن ينسينا مايحتاجه هذا الموقف من قوة هائلة لمغالبة النفس ، وما يصطرع فيها من غريزة الأبوة ، وعاطفة الرحمة بالولد ، وسائر ماتزخر به النفس البشرية الرحيمة فى مثل هذا الموقف .

٢ - تعبير (فلما بلغ معه السعى) يحتمل معنيين ، أحدهما لبيان عمر إسماعيل حينئذ ، وأنه لم يكن فى سن الطفولة ، ولاق سن الرجولة الكاملة ، وإنما كان في سن البلوغ ، والآخر احتمال افتراضى ، لادليل عليه إلامايحتمله لفظ (فلما) وهو احتمال أن تكون هذه الرؤيا قديمة ، بمعنى أن يكون إبراهيم قد رأى فى المنام أن هذا الطفل حينما يبلغ سن السعى يريد الله منه أن يذبحه ، وانتظر إبراهيم حتى بلغ ابنه معه السعى ، فعرض عليه الامر ، وفي كلا الحالين هناك دلالة على أن الذبح كان توقيته في السن التى يكون فيها الولد فى قمة الحب عند والديه ، ولفظ (معه) يضيف إلى الحب والعطف شيئاً آخر ، وهو انتفاع أبيه به فيالمعيشة والسعى ، وإذن ففقده يجمع على أبيه أمرين بالغى الإيلام ، هما فجيعة فقده ، ثم انقطاع نفعه وعونه .

٣ - تعبير (يابنى) جامعا بين البنوة وتصغيرها وندائها ، يجعل لهذه المعانى وبخاصة فى هذ الموقف وقعا بالغ التأثير . وكأن إبراهيم أراد قبل أن يعرض عليه هذا الامر الفظيع أن ينبهه إلى أنه

ليس قاسيا ولامجردا من الرحمة ، وإنما ملء ثيابه الرحمة والعطف والحب ، ولكن شيئا أقوى من هذا كله هو الذى جعله يعزم على مايعزم عليه الآن ، هذا الشيء هو استجابته لإرادة ربه .

٤ - التعبير بلفظ (أرى) دون رأيت ، يوحى بتمثل إبراهيم لأمر الله إياه ، وكأنه يراه حينئذ ، ومن المعروف أن الفعل المضارع يدل على الحال المستمر ، فكأن إبراهيم يقول لابنه إنه يابنى أمر لازم واضح ، ماثل فى نفسى كأنى أراه الآن ، وفى هذا شيء كأنه الاعتذار من إبراهيم لابنه ، بأنه إنما يقدم على مايقدم عليه ، لأنه أمام أمر قوى غالب مسيطر .

٥ - تعبير (فانظر ماذا ترى) ، يدعو إلى التفكير والوقوف عنده بشيء من التأمل ، فإن سياق القصة يوحى بأن الله أمره بذبح ابنه ، وهذا التعبير صريح فى أنه يخير ابنه ، حيث يدعوه إلى التفكير فى الأمر بقوله (انظر) ثم ينتظر رأيه (ماذا ترى) ، فكيف يتفق الأمر من الله ، وهو لازم لايقبل الخيار عند المؤمنين ، مع هذا التخيير الصريح الذى يعرضه إبراهيم على ابنه . وبمعنى أوضح فإن هذه النقطة تتضمن سؤالين ، أحدهما : هل يملك إبراهيم ذبح ابنه دون رضاه ، بناء على رؤيا المنام ؟ والآخر : هل يملك إسماعيل أن يرفض هذا الأمر ؟ .

ومع حساسية الكلام عن الأنبياء ، وحاجته إلى الدقة الشديدة يمكن أن نقول : إن تعبير القرآن نفسه يتضمن الإجابة ، وبخاصة فى قوله تعالى (فلما بلغ معه السعى) فمهما استنبطنا من هذا التعبير من معان ، ففيه معنى واضح لايمكن إغفاله ، وهو أن اسماعيل قد

بلغ سن الرشد والتكليف ، ومعنى ذلك أنه خرج من وصاية أبيه عليه ، وأنه أصبح من الناحية الشرعية هو المسئول عن أعماله ، ولذلك لم يقل له أبوه إنى مأمور بذبحك فتعال أذبحك ، وإنما يستشيره ، ويخيره تخييراً صريحا ، بل يدعوه إلى التروى والتفكير لتكون استجابته عن إيمان واقتناع ، وليست مجرد طاعة عمياء فيقول له (فانظر) ، ومما يدل على هذا التخيير ، التصريح بأن هذا الموقف كان اختبارا وابتلاء من الله (إن هذا لهو البلاء المبين) وهو وإن كان فى السياق ابتلاء لإبراهيم ، إلا أنه فى المضمون ابتلاء عظيم أيضا لابنه إسماعيل ، ولايتحقق الابتلاء والاختبار إلا إذا كان المبتلى مخيرا .

وإذن فالإجابة المحددة عن السؤال الأول من السؤالين الأخيرين ، أن إبراهيم لايملك ذبح ابنه دون رضاه ، لأن ابنه مكلف مسئول عما يفعل ، كما لم يملك نوح لابنه شيئا ، سواء فى هدايته للإيمان أوفى حمايته من عقاب الله ، ولذلك خير إبراهيم ابنه ، والإجابة عن الثانى أن إسماعيل إنما استجاب بدافع الطاعة لله ، والبر بوالده ، ولو تجرد منهما لكان يملك رفض هذا الأمر ، والامتناع على الذبح .

٤ ـ موقف الابن الذبيح :

« قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين»

بهذه الإجابة الحازمة الرائعة ، يرد إسماعيل على سؤال أبيه (ماذا ترى ؟) ، وإذا لجأنا إلى شىء من تأمل ، نجد فيا يتضمنه هذا الجواب مايأتى

١ - تعبير (ياأبت) يوحي بأن المعنى المسيطر على إسماعيل هو طاعة أبيه ، مهما كان الفعل ، ومهما كان مصدر الأمر بالفعل ، وكأنه يشير إلى مبادلته العاطفة السامية النبيلة ، بين رحمة الآباء وطاعة الأبناء ، فكما قال إبراهيم بكل عطفه ورحمته (يابنى) يرد إسماعيل بكل بره وطاعته (ياأبت)

٢ - تعبير (افعل ماتؤمر) يتضمن جانبين واضحين ، أحدهما الحزم فى الاستجابة ، بمعنى أن إسماعيل يستجيب لرغبة أبيه على بشاعة مظهرها ، دون تردد أو إبطاء أو مراوغة ، وإنما بكل الحزم ووضوح الطاعة والاستجابة يقول له (افعل) ، ولو كان فى نفسه شىء من تردد ، أو خوف لأمكن أن يبطئ فى الإجابة حتى بالمحاورة ، أو إلقاء بعض الأسئلة والاستفسارات ، ولو فعل لم يكن عليه بأس ، مادام سيستجيب ولكنه لم يلجأ إلى شىء من ذلك ، والجانب الثانى ، أنه كما سبق يبين لأبيه أن المعنى المسيطر عليه هو طاعة أبيه فى كل مايطلب أو يرغب فيه ، فهو منفذ إرادته ، مع صرف النظر عن أن الله سبحانه هو الآمر أو غيره ، ونلمح هذا المعنى فى بناء الفعل للمجهول (ماتؤمر) فقد كان يمكن أن يقول له افعل ما أمرك الله به ، ولكنه يتجاوز هذا . وكأنه يقول له : أنا مطيع لك ولو لم أعرف من الذى أمرك بهذا ، وليس فى هذا تهوينا من طاعة إسماعيل لله ، بل بالعكس ، نجد رده هذا يتضمن طاعته لله من باب أولى ، فالمؤمن الذى يبلغ أن يقدم حياته طاعة لوالده ، أولى أن يقدمها طاعة لربه .

كما أن إطلاقه لنوع الفعل ، يتضمن . زيادة في الطاعة و الاستجابة ، فقد كان يمكن أن يقول افعل الذبح ، أو نحو ذلك ، ولكنه يقول :

الفعل أى شيء دون تحديد أو تقييد ، وكأنه يقول : لو كان هناك ماهو أشد من الذبح وأمرت به ، فافعله (افعل ماتؤمر) فلم يخصص الذبح ، وإنما أطلق الأمر مهما كان نوعه .

٣ ــ يوضح إسماعيل لأبيه موقفه عند التنفيذ ، وهو الصبر والاستسلام ، وهناك فارق ذو أهمية كبيرة ، بين من يستجيب وهو جزع ، ومن يستجيب صابراً مطمئنا ، فكلتاهما استجابة ، وفى كلتيهما خير ، ولكن شتان بين الخير فى هذه وتلك . وإسماعيل يأبى إلا أن يبلغ قمة الفضل فى الأمرين ، الاستجابة المطلقة لأبيه مهما كان نوع الفعل ومصدره ، وفى الصبر والاطمئنان عند تنفيذ هذا الفعل .

وكأسلوب المؤمنين دائما فى الحديث عن الفعل المستقبل ، يقرنه إسماعيل بمشيئة الله .فلاينبغى للمؤمن أن يتحدث عن عمل قط فى المستقبل إلا إذا قرنه بمشيئة ربه ، فيقول لأبيه (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) .

٥ ــ النتيجة :

« فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم » .

وأسلما بمعنى استسلم كلاهما إبراهيم وابنه لأمر الله وإرادته ، وتله للجبين بمعنى جذب إبراهيم ابنه ، وألقاه إلى الارض ، بحيث يكون جبينه إلى الأرض ثم نادى الله إبراهيم أنه قد حقق الرؤيا

ونفذها ، وجواب لما محذوف تقديره (فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا) حدث المتوقع حينئذ من السرور العظيم الذى يغمر الوالد والولد بما من الله به عليهما من نجاة إسماعيل ، ثم يأتى تعبير (إنا كذلك نجزى المحسنين) ومعناه أن إكرام الله للطائع المستجيب فى مثل هذه الحال ليس قصراً على إبراهيم وابنه ،وإنما هى سنة الله فى المؤمنين المستعدين للتضحية فى سبيل الله والاستجابة لأمره . والبلاء الاختبار والامتحان ، والذبح بكسر الذال المشددة هو مايذبح ، فداه الله بذبيحة ، اختلفت فيها الاقوال ، ومن هذه الأقوال أنها وعل من وعول الصحراء ، ساقه الله حينئذ إلى إبراهيم ليذبحه مكان اسماعيل فداء له .

وقد يقال : كيف قيل لإبراهيم : قد صدقت الرؤيا مع أن الرؤيا تتضمن الأمر بذبح ابنه ، وهو حين قيل له : قد صدقت الرؤيا ، لم يكن ذبح ابنه ؟ والواقع أن تعبير القرآن يتضمن الإجابة ، فالرؤيا فى حقيقتها لم تكن إرادة الذبح . وإن كان ظاهرها ذلك ، وانما كانت امتحانا واختباراً لمدى استعدادهما للتضحية فى تنفيذ أمر الله ، فحين نجحا فى تقبل أمر الله على إيلامه الشديد ، واستعدا بل بدآ فى التنفيذ ، كانا قد حققا كل المراد من الرؤيا وهو الاختبار (إن هذا لهو البلاء المبين) ومن المعروف أن النية هى مدار الثواب والعقاب كالحديث الشريف ، (إنما الأعمال بالنيات) فتحقق النية والعزم من إبراهيم وابنه كأنه تحقيق للفعل نفسه وهو الذبح ، وكون القرآن يصرح أن هذا ابتلاء ، إشارة إلى أن الذبح لم

يكن مقصوداً ، وإنما القصد هو الاختبار ، ولذلك قيل له : قد صدقت الرؤيا .

ولكن رؤيا الأنبياء حق ووحى ، سواء فى هدفها ، أو فى ظاهرها فإذا كان إبراهيم قد حقق الهدف ، وهو الابتلاء ، فقد بقى عليه أن يحقق ظاهر الرؤيا وهو الذبح الحقيقى ، ولذلك ساق الله إليه الكبش أو الوعل ، ليذبحه بيده ، فداء لابنه ، وتحقيقا لظاهر الرؤيا .

٦ ــ العبرة :

وكشأن القرآن الكريم فى سوقه كل مايسوق من أخبار الماضين للعبرة ، تجده يشير إلى مواضع العبرة في هذه المحاورة ، ومن أوضح هذه المواضع :

١ ــ أن أوامر الله لاتراجع ، فضلا عن أن ترفض أوتعارض وقد رأينا موقف إبراهيم وابنه كليهما من أمر الله : فأما إبراهيم فمع أن الأمر صدر إليه عن طريق الرؤيا ، وهى أقل درجة من الوحى المباشر للأنبياء ، إلا أنه لم يتردد ، ولم يراجع ربه مستفسراً أو متضرعا أو غير ذلك ، مع أنه أمر يتضمن أفدح مايبتلى به إنسان ، حين يطلب منه أن يذبح ابنه الوحيد ، وأن يكون الذبح بيده هو ، وإنما مضى مصمماً على التنفيذ ، مالم يعصه ابنه ، وأما إسماعيل فمع أن الأمر عنده يتضمن أقسى وأعظم تضحية يقدمها الإنسان ، وهى حياته نفسها ، ومن أقسى ما فى هذه التضحية الاستسلام للموت ، فإنه أشد على النفس من مقاومته ، كما يحدث فى الحرب مثلا ، فحينئذ يكون الموت أخف قسوة ، لأنه

جاء عن مقاومة ، لاعن استسلام .

وإذا كانت أوامر البشر مهما كان مصدرها تراجع وتحاور ، فإن أوامر الله لاينبغي فيها ذلك مهما خفيت الحكمة فيها ، وإنما يجب تنفيذها كما هي .

٢ ــ إن طاعة الوالدين لاحدود لها ، وهي من أبرز علامات الإيمان ، ولذلك يجعل القرآن في كثير من الآيات الإحسان بالوالدين تالياً لعبادة الله ، وقد رأينا كيف أن إسماعيل يسلم قياده لأبيه في أغلى مايملك الحي ، وهو الحياة ، فإن إسماعيل لم يصدر إليه أمر من الله مباشرة لأنه لم يكن بعد نبياً ، ومع أن الدافع الحقيقي لاستجابته وخضوعه هو الإيمان ، إلا أنه يضع هذه الاستجابة في يد والده ، وكأنه يجعل أبوة أبيه ، وثقته في الأبوة ، وطاعته إياه ، كافية لخضوعه وطاعته (ياأبت افعل) فكأنه لايحتاج إلى صفة النبوة حينئذ في أبيه ليستجيب له ، وإنما يكفي لطاعته أنه أبوه .

٣ ــ أن الابتلاء والاختبار سنة الله في المؤمنين ، حتى الانبياء لايخرجون ولايستثنون من هذه السنة ، وإنما يبلوهم الله ويختبرهم كسائر المؤمنين ، بل نصيبهم من البلاء أشد ، كما في الحديث الشريف (أشد الناس ابتلاء الأنبياء فالأمثل فالأمثل) وهكذا رأينا كيف يعرض الله نبيه إبراهيم مع أنه خليله ، ومن أعظم عباده منزلة عنده ، وكذلك إسماعيل الذى سيصبح نبياً ، يعرضهما لأقسى مايتعرض له بشر من البلاء . فالابتلاء والاختبار سنة ثابتة عامة إذن في المؤمنين ، ولذلك نجده سبحانه يتحدث في أسلوب التعجب والإنكار على الذين يظنون

أن الإيمان يغني صاحبه عن الابتلاء ، ويعصمه من اختبار الله (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (١)) فالآيتان تتضمنان ثلاثة معان أساسية أولها الإنكار على الذين يظنون أن الإيمان لايحتاج إلى اختبار ، وثانيها أن الاختبار ملازم للمؤمنين فى كل العصور ، وثالثها بيان الحكمة من الفتنة والاختبار ، وهو تمييز الصادقين عن الكاذبين فى إيمانهم .

فما تضمنته المحاورة من اختبار ، ليس خاصاً بإبراهيم وابنه ، وإنما هو سنة الله مع كل المؤمنين على درجاتهم ، فى كل العصور .

٤ ـ أن الله لايتخلى فى الشدائد عن عباده المؤمنين ، وقد رأينا كيف أن إبراهيم وابنه حين ضاقت عليهما الأمور ، واستحكم الموقف ، حتى بلغ أقصى شدته ، بأن أمسك إبراهيم بالمدية ، بعد أن أضجع ابنه وهيأه للذبح ، ثم أجرى المدية فعلا على عنق ابنه ؛ وكلاهما لايشك قط فى حلول الموت المحتوم ، وإذا هما فجأة أمام فيض غير متوقع من رحمة الله ، وإذا إبراهيم يناديه المنادى ، بأن يكف عن الذبح ، لأنه بهذا القدر صدق الرؤيا فى حقيقتها وهدفها ، وهو الابتلاء ، وأما عن الشكل الظاهرى للرؤيا وهو الذبح المادى : فسيتولاه الله عنهما ، بفدية عظيمة ، يوقن إبراهيم أنها من عند الله ، فيذبحها ، ليزداد يقينا بأنه صدق الرؤيا كل التصديق .

وآيات المحاورة تصرح بأن هذا الإكرام الكبير من الله ليس خاصاً بإبراهيم وابنه ، وإنما هو جزاء كل من بلغ فى إيمانه درجة

(١) الآيتان ٢ ، ٣ سورة العنكبوت .

الإحسان ، وتكرر هذا التصريح ، فاولا نجد (إنا كذلك نجزى المحسنين) وقد كان هذا الجزاء هو نداء إبراهيم أن يكف عن الذبح لانه حقق الرؤيا ، ثم (كذلك نجزى المحسنين) وكان هذا الجزاء الثانى هو فداء إسماعيل بذبح عظيم ، ولكن الذى يلفت النظر هو التعليل فى الآية التالية ، وهو (إنه من عبادنا المؤمنين) فإن هذا التعليل يجيء بعد سوق الإكرام كله بنوعيه ، بل بأنواعه ، لأن هناك ما أكرم به إبراهيم غير ذلك فى التعقيب على هذا البلاء ومنه (وتركنا عليه في الآخرين) فمما أكرمه الله به أن جعل له ذكراً طيباً باقيا خالدا على الزمان ، ثم يعلل هذا كله بالإيمان ، وكأن سائلا يسأل : ولم استحق إبراهيم هذه الانواع كلها من الإكرام ، فكان الجواب (إنه من عبادنا المؤمنين) فالإيمان إذن يحوطه الله بوعد منه ، أن يتدارك صاحبه بالفضل والإكرام حيثما تتأزم به الأمور ، كما تدارك إبراهيم ، حيث إن قوله (إنه من عبادنا المؤمنين) يتضمن أن كل عباده المؤمنين يستحقون مااستحقه إبراهيم .

وهذا المعنى ليس فريدا فى هذه الآيات ، ولاهو قليل فى القرآن الكريم ، بل هو كثير شائع فى مواضع عديدة ، يكفى أن يكون منها هذا المعنى الرائع المؤثر (إن الله يدافع عن الذين آمنوا [1]) ، وكأن الله سبحانه ، ينصب نفسه مدافعاً ومحامياً عن المؤمنين به ، دفاعاً مطلقاً ضد كل مايكرهون ، وليس المهم فى نتيجة الدفاع ، وإنما المهم هو المعنى البالغ التأثير ، وهو شعور المؤمن بأن الله يدافع عنه .

---

(١) من الآية ٣٨ سورة الحج .

٧ ــ فى مقاومة الطغيان

بسم الله الرحمن الرحيم

« قَالُوا يامُوسى إمَّا أنْ تُلقِيَ وَإما أنْ نَكُونَ أوَّل منْ ألقَى . قال بل ألقُوا فَإذَا حِبالُهمْ وعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إليه مِن سِحْرِهمْ أنها تَسْعى ، فَأوْجس فى نَفْسِهِ خِيفَةً موسى ، قُلنَا لا تَخفْ إنَّكَ أنْتَ الأعْلى ، وألقِ ما في يمينكَ تَلْقفْ ما صَنَعُوا إنَّما صنَعوا كَيْد ساحِرٍ ولايفلح الساحِر حيْثُ أتَى ، فأُلقِيَ السَّحرةُ سُجَداً قَالُوا آمنَّا برب هارُونَ وموسى ، قَالَ آمنتُمْ لَه قَبْلَ أنْ آذَنَ لَكمْ إنه لَكَبِيرُكُمُ الذِى علَّمكُم السِّحْرَ فَلأُقطِّعنَّ أيْدِيكُمْ وأرْجلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ولأُصلِّبنَّكُمْ فى جُذُوع النخل ولَتَعْلَمُنَّ أيُّنَا أشَدُّ عذَاباً وأبقَى ، قَالُوا لَن نُؤثِرَكَ علَى ما جاءنَا مِنَ البيِّنَاتِ والذى فَطَرنَا فَاقضِ ما أنت قاضٍ إنما تَقضِى هذِهِ الحَيَاةَ الدنيا ، إنَّا آمنا بربنا لِيغْفِر لَنَا خَطَايانَا وما أكرهْتَنَا عليهِ مِنَ السِّحْرِ واللهُ خَيْرٌ وأبقَى » [1]

عناصر المحاورة

١ ــ الملابسات :

هذه المحاورة بين السحرة وفرعون ، جزء من قصة موسى وفرعون ، وحيث إن موضوع الكتاب لاتندرج فيه القصة ، وإنما

---

(١) الآيات ٦٥ ــ ٧٣ سورة طه واقرا الآيات ١٠٣ــ١٢٦ سورة الأعراف

يقتصر على المحاورة ، لذلك تجتزى محاورة السحرة مع فرعون لتكون موضوع الحديث .

وأما ملخص ملابسات المحاورة ، فهو أن الله سبحانه أعطى موسى معجزتين ، تشبهان مابرع فيه قوم فرعون ، وهو السحر ، ليكون هذا إلزاما لهم ، وحجة عليهم ، وهما العصا التى يلقيها موسى فتتحول إلى حية ، ثم يمسكها فتعود عصا ، والأخرى يده ، التى يدخلها فى جيب صدره تحت إبطه ، ثم يخرجها فإذا هى بيضاء ساطعة ، ليس فى بياضها مايشبه المرض أو السوء ، ثم كلف الله موسى أن يذهب إلى فرعون وقومه بهاتين المعجزتين ، فطلب موسى من ربه أن يعينه بصحبة أخيه هارون الذى كان أفصح منه لسانا ، فاستجاب له ، وذهب إلى فرعون ، فدعاه إلى الله مستعينا بالمعجزتين ، ولكن فرعون المغلق القلب من جهة الله ، لم يستطع أن يتصور أنها معجزات الله ، وإنما تصور أنه سحر كالشائع المألوف فى ملكه ، وقد كان فرعون يستطيع أن يرفض دعوة موسى إلى الدين ، بمجرد قوته ، أو بمجرد عناده كما يفعل الرافضون للدين ، ولكنه أراد أن تكون هزيمة موسى مخزية مهينة فى تصوره ، حين ينهزم ويخزى أمام السحرة الذين جمعهم فرعون من سائر أنحاء البلاد وأمام هذه الجموع ، فلا يفكر أحد فى الاستماع إليه بعد ذلك .

ويبدو أن فرعون كان يعتقد حينئذ أن موسى ساحر حقيقة ، وإلا لما عرض نفسه وأتباعه لهذا الامتحان العلنى الذى تسامعت به كل البلاد ، والذى دعا فرعون إلى أن يحتشد له أكبر عدد ممكن من شعبه ، ليشهدوا هزيمة موسى ، فلاينقاد لدعوته أحد .

واجتمع السحرة بعد احتشاد الناس في يوم عيدهم الأكبر ، وكان السحرة واثقين من نصرهم على موسى ، بدليل أنهم تمنوا على فرعون الأماني بلهجة الواثق من نصره وأنهم خيروا موسى بين أن يبدأ هو أو يبدأوا هم .

ولكن موسى الواثق من معجزته ، يطلب إليهم أن يبدأوا هم ، وأن يفعلوا مايشاءون من سحر ، فألقوا حبالهم وعصيهم تشبها بعصا موسى ، فإذا هي حيات تسعى .

ويفاجأ موسى بما لم يكن في حسبانه من بلوغ هؤلاء السحرة هذا المبلغ من السحر ، فماذا يصنع بهذه الحيات الكثيرة أمامه وأمام الجمع الحاشد المهول ، وماذا تصنع عصاه بين هذه الحيات الكثيرة العديدة ، وهل يحقق له النصر أن يزيد بعصاه عدد الحيات الكثيرة أمامه حية ؟ ، أوأن يزيد بشخصه عدد السحرة الكثيرين ساحرا ، حين يظنونه مجرد ساحر استطاع أن يحول عصاه ثعبانا كما فعل غيره من السحرة ؟ ، وامتلأت نفس موسى بالوساوس والمخاوف (فأوجس في نفسه خيفة موسى) ولم يكن خوفه من جهة عصاه ، فقد كان واثقا أنها ستتحول إلى ثعبان ، ولكن خوفه كان من النتيجة في الموازنة بينه وبين السحرة ، أى أنه كان يخاف أن يوازنه الناس بالسحرة ، بينما هو يريد أن يثبت لهم أنه مرسل لهم من الله بدعوة ، فكيف يتحقق هذا ، بينما هم على أحسن الفروض سيظنونه ساحرا ناجحا ؟ ولكن الوحي ينزل عليه بأن يطمئن ، فإن الله لايخذل عبده حينما يحتاج إلى عونه ونصره .
وألقى موسى العصا فإذا هي تلقف ما يأفكون .

وهنا تبدو المعجزة واضحة ، وبخاصة للسحرة الذين هم أخبر الناس بالسحر فإن الأشياء المسحورة لاحياة قط فيها ، وبالتالى يستحيل أن تتحرك أو تسعى ، لأن السحر فى حقيقته ليس فى الأشياء المسحورة ، وإنما في نفس الرائى لها وبصره ، وهو معنى فى غاية الأهمية ، حيث يشير إليه القرآن فى وضوح (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) فهى لاتسعى ولاتتحرك ، وإنما هو تخييل يلقى في نفوس الرائين ومنهم موسى ، وهكذا السحر ، لايملك أن يغير فى خلق الله شيئا ، وماهو إلا قوى شريرة تتسلط على نفوس بعض الناس وخيالاتهم ، فتخيل إليهم أنهم يرون أو يحسون أشياء أو مظاهر فى غير حقيقتها . والسحرة هم أعلم الناس بهذه الحقيقة ، ولذلك حينما رأوا عصا موسى تتحرك حقيقة وليس تخييلا ثم تبلغ من وضوح الحركة والحياة فيها أن تلتهم الحبال والعصى التى ألقوها ، حينئذ سطع الحق أمامهم ، وهو أن موسى صادق فى رسالته من عند الله ، وفي أنها معجزة له من عند ربه وليست سحرا ، فلم يترددوا لحظة ، وإنما خروا ساجدين لله إكبارا وإيمانا

٢ ــ طرفا المحاورة :

وطرفا المحاورة التى نحن بصددها ، هما السحرة وفرعون .

فأما السحرة فهم جماعة من قوم فرعون ، لم تجمعهم صلة نسب أو صداقة أو حتى معرفة ، وإنما جمعتهم المهنة ، وهى السحر ، فقد طلب فرعون جمع كل السحرة الماهرين فى طول البلاد وعرضها دون سابق صلة أوتعارف بينهم ، وقد كانوا واثقين من سحرهم .

ومن نصرهم على موسى كما يدل عليه كلامهم مع فرعون ، ومع موسى .

وهؤلاء السحرة أيضا لم يجمعوا بأسمائهم وأشخاصهم ، وإنما بالصفة والمهنة التى يحملونها وهى السحر ، وفرعون عاملهم على هذا الأساس ، والقرآن يتحدث عنهم أيضا كذلك .

وأما فرعون فهو لقب لكل ملك فى مصر ، ولكنه فى القرآن الكريم يراد به ملك مصر المعاصر لموسى عليه السلام .

ويبدو من حديث القرآن عنه ، أنه قد تهيأ له من أسباب الملك والقوة والمدنية بكل ماتستتبعه أقصى مايتاح للملك ، فقد بلغ من التفرد بالملك والسلطان مايدل عليه قوله : (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى) ؟ وبلغ من القوة والنفوذ مايدل عليه مثل قوله لشعبه فى غير إنكار منهم (أنا ربكم الأعلى) وبلغ من أسباب المدنية ومايترتب عليها من الصناعة ووسائل الحضارة مايدل عليه مثل قوله (... ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات ...) فكونه يطلب هذا معناه أنه ممكن لديه . وأنه يستطيع أن يبنى صرحا إذا لم يبلغ السموات ، فعلى الأقل يناطحها ، أو يظنه من يراه أنه يبلغ السموات ، والذى يستطيع أن يبنى صرحا كهذا لابد أن يكون لديه بناءون وصناع ليفعلوا هذا ، وهؤلاء بالضرورة تعلم كل منهم مهنته ، ثم تدرب عليها فى أعمال كثيرة أداها ، وسبقه أيضا بناءون وصناع تعلم هو على أيديهم . وكل هذا يدل على وجود المبانى الكثيرة ، والمصانع العديدة لدى

هذا الملك ، وهذا الذي حدده القرآن يؤكده التاريخ ، وتنطق به آثار الفراعنة .

وقد كان نتيجة تجمع هذه الأسباب كلها لدى فرعون أن تحول إلى طاغية وكان من أهداف رسالة موسى ومعه أخوه هارون إرجاع فرعون عن طغيانه (اذهبا إلى فرعون إنه طغى) وهما يعرفانه ، ويعلمان طغيانه (قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أوأن يطغى) . خاصة وأن موسى تربى فى كنفه ، بل فى بيته .

٣ ـ موضوع المحاورة :

والموضوع الأساسى الذى دارت حوله المحاورة هو طغيان فرعون ، الذى يريد أن يمنع السحرة من اعتقاد ماظهر لهم من الحق . ولو لم يحاول منعهم لما كانت المحاورة .

ومع ذلك فالسبب المباشر الذى بدأت به المحاورة كان إيمان السحرة بالله ، وبرسوله موسى . فحين أعلنوا إيمانهم أمام هذا الجمع الحاشد من كل أرجاء البلاد ، ثارت ثائرة فرعون ، وأراد أن يمنعهم من الإيمان ، ولكنهم تشبثوا بإيمانهم مستهينين بكل شىء ، فبدأ الحوار الرهيب معهم .

وكون إيمان السحرة سبباً مباشرا لاينفى أن السبب الأساسى هو طغيان فرعون ولايتعارض معه ، فإن الإيمان كان هو الوضع الأصلى المنتظر عقلا ، نتيجة لظهور الحق ، والحق وما يترتب عليه كإيمان السحرة لاينبغى أن يراجع أو يكون موضع محاورة ، ولكن

طغيان فرعون ، كان هو الأمر الذى لايتلاءم مع المنطق وتسلسل الأمور ، فترتب عليه هذا الحوار .

٤ ـ موقف السحرة :

فأما السحرة فقد كانوا لعلمهم بالسحر أسرع الناس استجابة وإيمانا ، كقوله تعالى (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ) ، وليس المراد وصفهم بالعلم لذاته ، وإنما المراد أن كونهم عالمين بالسحر جعلهم أعرف الناس بأن ما فعله موسى يستحيل أن يكون سحرا ، ولايستطيع بشر قط أن يفعله ، وإنما يفعله واحد فقط هو الله سبحانه ، فلا أحد يستطيع إطلاقا أن يخلق حياة إلا هو ، ولذلك انقلبوا فجأة إلى ماوصفهم به القرآن (فأُلقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى) وهناك ملحوظات فى تعبير هذه الآية ، تنبغى الإشارة إليها :

منها الفاء فى (فأُلقى) حيث تشير إلى الفورية وعدم التردد ، فما إن سطع الحق لهم حتى استجابوا له ، معلنين إيمانهم فى هذا المظهر الرائع المثير .

ومنها البناء للمجهول فى لفظ (أُلقى) ، حيث نلحظ أن القرآن يبرز هذا البناء للمجهول فى هذه القصة ، وفى قصص أخرى ، وكأن وراءه سرا ، فالآية هنا (فأُلقى السحرة سجدا) وفى سورة الاعراف (وأُلقى السحرة ساجدين) وفى سورة الشعراء (فأُلقى السحرة ساجدين) والفعل فى كل ذلك مبنى للمجهول ، وفى محاولة الإجابة عن هذه الملحوظة يمكن أن يقال إن البناء للمجهول غير غريب

لأن الفاعل فى الحقيقة هو الله ، فهو الذى شرح صدورهم للإيمان ، والقرآن يوضح كثيراً أن الإيمان إنما يأتى بتوفيق من الله ، حين يشرح قلب صاحبه للهداية ، وإذن فالسحرة لم يهتدوا من محض أنفسهم ، وإنما حين فتح الله قلوبهم للإيمان كما يفتح قلب كل مهتد ، ومع ذلك فقد يقال ولكن تكرار الصيغة بالبناء للمجهول يوحى بأن فى موقف السحرة شيئاً خاصاً ، ثم قد يقال : والأوضح من ذلك فيما يشيره البناء للمجهول من تأمل ، أن البناء للمجهول لم يتجه إلى الإيمان نفسه بمعنى الهداية ، ولا إلى السجود ، وإنما اتجه إلى إلقائهم إلى الأرض ساجدين ، وكأن هناك من ألقاهم إلقاء ليسجدوا ، وحينئذ يمكن أن يجاب بأنه لامانع من أن نفهم أن موقف السحرة كان فيه جانبان كما ينبىء تعبير القرآن نفسه ، جانب الإيمان ، وقد نبع من اقتناعهم بالحق حين ظهر لهم ، وكانوا فيه متصرفين من تلقاء أنفسهم ، دالا على اقتناعهم ، وجانب دفعهم الله إليه دفعاً ، وكأنهم لاحيلة لهم فيه ، وهو مظهر إيمانهم ، أعنى الصورة الشكلية التى عبروا بها عن الإيمان ، فقد كان يكفيهم للايمان عند الله أن يعتقدوا أن هذا حق ، وأن يطبقوه فى أنفسهم ، ويكفيهم للإيمان عند الناس أن يعلنوا عن إيمانهم بأى تعبير يدل على الإيمان ، ولكن هذا الموقف الخطير ، يضم موسى الموعود بنصر الله ، وهو فى حاجة الآن إلى ظهور هذا النصر لأن هذه الجموع الحاشدة تنتظر النتيجة ، وكذلك يضم فرعون الذى يمتلىء ثقة بنفسه وقوته ، ويفيض طغيانا وتجبرا ، وينتظر أن يتشفى فى هزيمة موسى ، وأن يزداد تيها وعتوا أمام شعبه ، كل ذلك يحتاج إلى ظهور نصر

الله بصورة بينة مؤثرة ، ولو آمن السحرة فى أنفسهم ، أومعبرين بكلام عادى ، أو نحو ذلك ، لما تحقق نصرالله بالصورة الملائمة للموقف ، ولذلك دفع الله السحرة حين آمنوا إلى السجود بهذه الصورة المفاجئة دفعا ، لتكون هذهالصورة أمام هذه الجموع المحتشدة هى النصر المبين لموسى ، والخزى المهين لفرعون .

فالإيمان إذن كان نابعاً من داخل نفوس السحرة حين بهرهم الحق ، أما دفعهم إلى السجود بهذا المظهر المفاجىء ، فقد كان من قبل الله ، ليكون إكراما لموسى وإهانة لفرعون .

ومن الملحوظات فى تعبير الآية ، تقديم هارون على موسى (آمنا برب هارون وموسى) ومع أن الواو لاتقتضى ترتيبا ولاتعقيبا كما يقول النحاة إلا أنه يمكن القول بأن هذا الترتيب يحتمل أحد أمرين ، أويحتملهما معا ، وهما :

(ا) مع أن موسى هو المرسل أساساً ، وهارون مرسل تبعاً وعوناً ، إلا أن هارون كان هو المتحدث أمام فرعون والجماهير ، بحكم فصاحة لسانه التى اختاره موسى من أجلها ، فالسامعون قد يعتقدون أن هارون هو الرسول الأصلى ، ولذلك قدمه السحرة فى تعبيرهم .

(ب) أن السحرة حين امتلأت نفوسهم بالإيمان ، كان همهم الاتجاه إلى الله ، وجلال الله وعظمته حينئذ يطغى على كل منزلة ، فلايهمهم حينها منزلة هذا أو ذاك بجوار الله سبحانه ، فحتى مع علمهم بأن موسى هو الرسول الأصلى ، لايعنون بتحديد درجة هذه المنزلة فى الترتيب حين تكون نفوسهم مغمورة بجلال الله

وعظمته ، فلاضير أن يعبروا عن بعض المرسلين بما لايسيء إليهم من مثل ماعبروا به من الترتيب بين موسى وهارون .

ومن الملحوظات أن السحرة صاغوا كل ماسيطر عليهم حينئذ فى قولهم (آمنا برب هارون وموسى) فالايمان بالله هو كل مافى نفوسهم ، وهو المحرك لهم فى كل مايقولون الآن وما يفعلون .

٥ ـ موقف فرعون :

« قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى » .

وفى هذا الرد من فرعون نتبين النقاط الآتية :

١ ـ أهم ماعنى فرعون هو الدفاع عن سلطانه . فليس يهمه الإيمان أوعدمه فى مثل هذا الموقف الذى يمس سلطانه ونفوذه ، ولذلك لم يقل لهم : كيف تؤمنون ، أوكيف تتركون دينى ، أونحو ذلك ، وإنما ينكر عليهم قبل كل شيء خروجهم عن سلطانه . فيقول هنا (آمنتم له قبل أن آذن لكم؟) ، وكذلك فى سورة الشعراء وأيضا هذا المعنى فى سورة الأعراف (قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ؟) ومعنى ذلك أن عدم طلبهم الإذن منه هو الجريمة التى يوجهها إليهم فرعون وليس الإيمان ذاته ، ولايفهم من ذلك استعداده للإيمان ، أوعدم اهتمامه بمحاربة المؤمنين ، وإنما يفهم منه أن الدفاع عن السلطان مقدم على الدفاع عن كل شيء ، وذلك بطبيعة الحال عند من يقوم سلطانهم على السلطان وحده ، دون سند من المبادئ والعقيدة .

٢ - من حيث الذين نلحظ أن فرعون تهرب من الحديث عن الله من حيث الإيمان به أوعدمه : مع أن الموقف فى الحقيقة كله يدور حول هذا الموضوع ، لأن موسى يدعى أنه مرسل من عند الله. وفرعون يتهمه بأن مجرد ساحر . وقد جمع السحرة ليثبت له أنه مجرد ساحر . فكان الوضع يقتضى ، أن يبين فرعون موقفه من موضوع الخصومة الذى يدور حوله الموقف كله . ولكنه تجاهل الموضوع ، وعمد إلى شىء ثانوى . أومترتب على الموضوع . وهو إيمان السحرة . وهذا الهروب من فرعون يدل على أحد أمرين : إما أنه حين ظهر الحق عرفه واقتنع به . أوعلى الأقل رجع فى نفسه ولكنه تجاهله عنادا وكبرا حتى لايهوى سلطانه فى تصوره ، وهذا المعنى يشير إليه التعبير بوضوح ، ويعضده كلامه المنبث فى مواضع أخرى من القرآن الكريم . ومن ذلك طلبه من وزيره هامان (ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ..) فطلبه بناء الصرح يؤكد أن فرعون يشعر فى أعماقه بوجود الله وإلا فليس من المعقول أن يبنى صرحا لشىء يوقن بعدم وجوده . وحتى فى نفيه الظاهرى لم يجزم بعدم وجود الإله . وإنما جعله شكا وظنا (وإنى لأظنه كاذبا) والاحتمال الثانى الذى يشير إليه هروب فرعون من حديث الإيمان ، أن يكون فرعون كشأن الملوك وأصحاب السلطان : حينما وجد أن سلطانه ونفوذه يوشك أن يهتز أمام الجموع الغفيرة من شعبه ، نسى الله والإيمان وكل شىء إلا الدفاع عن سلطانه ونفوذه ، ولذلك لم يحاسب السحرة حينئذ على أنهم آمنوا . وإنما على أنهم خرجوا عن طاعته

وسلطانه عليهم ، فآمنوا دون إذن منه . فالتعبير إذن لايحمل دلالة على شعور فرعون بالله ، بمعنى أن التعبير لم يقصد منه ذلك ، وإنما قصد به الدلالة على حرصه على سلطانه .

٣ ـ العقاب الذى حدده فرعون للسحرة (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل) يتضمن أمرين :

(ا) أحدهما الرغبة فى أقصى التعذيب للسحرة ، ويتمثل هذا فى ثلاثة ، أحدها إيلامهم بالتعذيب الجسدى ، وهو قطع الأيدى والأرجل ، وثانيها التشويه للسحرة ، فليس القطع للأطراف عاديا أو مستويا ، وإنما فى صورة التشويه والتمثيل بأن يقطع من كل منهم يده اليمنى ورجله اليسرى أويده اليسرى ورجله اليمنى (من خلاف) ، ولو كان فرعون يريد لهم الحياة بعد ذلك لكان لهذا العمل شيء من حكمة أوهدف ، ولكنهم سيموتون فى كل الأحوال ، فليس له من هدف إذن إلا زيادة تعذيبهم بالتشويه ثم اتخاذهم عبرة . وثالثها الحكم عليهم بالموت البطىء ، حين يصلبون فى جذوع النخل ، ويتركون هكذا حتى الموت .

(ب) والأمر الثانى رغبة فرعون فى أن يجعل السحرة عبرة وتخويفا للناس ، حتى لايفكر أحد فى أن يصنع ماصنعوا من الإيمان بالله والخروج من سلطان فرعون ، ويدل على هذا أمران ، أحدهما تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف ، أعنى التشويه ، فإن التشويه إنما يعنى من سيعيش بين الناس ، فلايحب أن تنفر منه العيون ، والسحرة يعلمون أنهم ميتون ، والأمر الآخر صلبهم فى جذوع

النخل ، فمن الواضح أن المقصود به إرهاب غيرهم وصده عن أن يقتدى بهم .

وإذا كان كل عمل يقدم عليه الإنسان إنما ينبع من شعور معين فى نفسه ، فيمكن أن نتساءل عن المشاعر أو الدوافع النفسية ، وراء هذا الصنيع من فرعون ؟ ، وحينئذ نستطيع أن نقول : أما شدة الرغبة فى تعذيب السحرة ، فإنه يدل على شدة الغيظ منهم ، وهذا بالتالى يدل على شدة شعوره بالهزيمة فى هذا الموقف الشديد الأهمية ، فلولا شعوره بالهزيمة شعوراً هز كيانه وأفقده الثبات والثقة فى النفس ، لكان يكفيه أن يأمر بعقاب عادى كالسجن أو القتل العادى ، وأما شدة رغبته فى جعل السحرة عبرة لغيرهم ، فإنه يدل بوضوح على شدة خوفه من زعزعة سلطانه وملكه ، فلو كان حينئذ واثقا من نفوذه وسلطانه لكان يكفى أن يأمر بألا يتبع السحرة أو موسى أحد ، وهو واثق من تنفيذ أمره ، ولكن مافعله فرعون يدل نفسيا على عدم ثقته بثبات سلطانه فى نفوس شعبه ، وليس المهم واقع الشعب ، هل هو طائع أو مزعزع الطاعة ؟ وإنما المهم شعور فرعون فى أعماق نفسه ، فقد يسيطر على الإنسان وهم : لاوجود له فى الواقع ، ولكن صاحبه يتوهم وجوده ، فيتصرف بناء على هذا الوهم ، وأغلب الظن أن سلطان فرعون كان ثابتا متينا فى نفوس شعبه ، ولكن خروج السحرة عن طاعته بهذه الصورة أمام هذه الجموع الغفيرة ، بالإضافة إلى شعوره بظهور الحق ، وشعوره بضعف مركزه بانتصار موسى فى هذا الموقف ، كل ذلك جعل فرعون يتوهم أن سلطانه قد يكون فى خطر ، وأن هناك من المشاهدين

أوغيرهم من يمكن أن يفعلوا مافعله السحرة ، فصب نقمته وما أملته عليه هذه المشاعر على السحرة ، متخذا من تعذيبهم وتشويههم دعامة تعيد إلى سلطانه الاعتدال ، وإلى كيانه ونفسيته الثبات .

٤ ـ ثم لجأ فرعون إلى السخرية (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) موازنا فى زعمه بينه وبين الذى آمن به السحرة ، سواء أكان موسى كما يفهم من ظاهر كلامه ، أم الله سبحانه ، قائلا للسحرة : سأفعل بكم هذا العذاب لتعلموا من منا أقوى وأقدر على التعذيب من جهة ، وأبقى وأدوم نفعا من جهة أخرى ، أى أنه أقوى فى حالى الضر والنفع من موسى الذى خرجوا من طاعة فرعون ليؤمنوا له . ومن الواضح أن فرعون أقوى سلطانا من موسى ، وأنه يعلم ذلك ، ولكنه يسخر من موسى ليصرف الناس عن التفكير فى اتباعه ، ويسخر من السحرة الذين تركوا مصدر الضر والنفع ليؤمنوا بمن لايملك لهم ضرا ولانفعا فى زعم فرعون .

وكأن فرعون حين أصدر قراره بتعذيب السحرة ثم قتلهم بهذه الصورة ، شعر براحة نفسية لإحساسه بأنه فعل شيئا يعيد إلى نفسه الاطمئنان على ملكه ونفوذه وهيبته ، فبدأ يسخر ، وهذا لأن أسلوب السخرية إنما ينبع غالبا من شعور بالقوة ، ولو من الناحية النفسية .

٦ ـ جواب السحرة :

ولكن السحرة أو المتحدثين بلسان السحرة ، ويروى أنهم كانوا اثنين وسبعين ، بالإضافة إلى بسالة موقفهم البطولى أمام

جبروت فرعون ، كانوا من الذكاء فى درجة عالية ، حيث لم تغب عنهم كل أهداف فرعون من كلامه وسلوكه ، فردوا عليه وكأنهم يخاطبون أعماق نفسه ، ليردوا عليه كيدا بكيدا ، وعمق تفكير بعمق إجابة .

ويمكن تلخيص النقاط التى بدت مقصودة خلال إجابة السحرة فيما يأتى :

١ – أدرك السحرة أن فرعون لم يكن يعنيه فى هذا الموقف بالذات إلا سلطانه والحفاظ على هيبته أمام شعبه ، فكانت إجابتهم أولا من هذه الزاوية ، حيث تركوا حديث الدين والإيمان حينئذ ولجأوا إلى إيلام فرعون وتحديه فى الجانب الذى صب حرصه عليه وهو السلطان والهيبة (قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا ...) وكأنهم يقولون له : بعد ظهور الحق لنا لم تعد لك هيبة فى نفوسنا ، ولم يعد لك سلطان على عقولنا ، وكما أن فرعون بدأ حديثه بتجريم خروجهم عن طاعته ، فكذلك هم بدءوا حديثهم بالإصرار على الاستهانة بطاعته وسلطانه ، وكونهم يصرحون لفرعون ، مدعى الألوهية ، بأنهم يؤثرون عليه أحدا – أيا كان هذا الأحد – هى استهانة بالغة به ، بل هدم لألوهيته التى يعاملهم على أسلسها ، فإن الإله بداهة يجب أن يكون فوق الجميع .

٢ – يلتزم السحرة المنهج العقلى القويم فى قولهم (لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا) وتركيز الطريق العقلى فى جعلهم ظهور الحق (البينات) فوق كل شىء ، ومحورا لكل شىء . ولذلك يقولون لفرعون : لن نؤثرك على الحق ، لان الحق يجب أن يكون

مقدماً على كل شيء ، وعلى كل أحد ، ولذلك نجد هنا دقة شديدة فيما يوحيه التعبير من تقديمهم ظهور الحق على ذات الله سبحانه (والذي فطرنا) ، حيث يقولون لفرعون : لن نؤثرك على الحق وعلى الله الذى خلقنا ، فقد يقال بمنطق التدين : كيف يقدم السحرة ظهور الحق أو أى شيء على الله ، ويجاب عن ذلك بان المفسرين يرون أن التعبير يحتمل اليمين ، أي أنهم يحلفون بالله الذى خلقهم ولكن الواقع أن هذا المحمل يجعله أسلوبا ضعيفا ، أو لايناسب سمو أسلوب القرآن ، وكذلك كل احتمال ينزل بأسلوب القرآن عن قمته التي لاينازع فيها يجب أن يستبعد ، مهما كان صحيحا فى المنطق العربى ، فإن المحافظة على ملاءمة المعانى لنظم القرآن وإعجازه أهم مايجب التزامه نحو القرآن ، كما يقول الزمخشرى (النظم هو أمّ الإعجاز ، والقانون الذى وقع عليه التحدى ، ومراعاته أهم مايجب على المفسر [1]) وإذن فاحتمال الحلف بتعبير (والذى فطرنا) من حيث وضعه فى نسق النظم مستبعد ، لأنه لا يلائم جلال أسلوب القرآن ، أما ما يناسب أسلوب القرآن ، فهو أنهم قدموا ظهور الحق على ذات الله سبحانه قصداً ، لأن المحاورة كما سبق تقتضى منهجا عقليا من أهم مايلزمه التجرد أثناء التحاور من التعصب للعقيدة ، أو الانتماء إلى أى شيء سوى تحكيم العقل الذى يسلم به الطرفان [2] ، فكأن السحرة يقولون لفرعون : إن ظهور الحق هو الذى جعلنا نرفض طاعتك ، فالحق أولى بالاتباع منك ، ولولاه

---

(١) أنظر الكشاف تفسير الآية ٣٩ سورة طه .
(٢) أنظر نقد النثر لقدامة بن جعفر في أدب المجادلة .

ماعرفنا طريقنا إلى الله ، فظهور الحق سابق فى الترتيب الزمنى والعقلى على معرفة الله والإيمان به ، فتقديم السحرة لظهور الحق على ذات الله يتلاءم إذن مع الترتيب الزمنى والعقلى لمعرفة الله والإيمان به ، لان المؤمن إذا لم يميز له عقله الحق من الباطل أولا ، فلن يهتدى إلى طريق الله ، وهذا المعنى هو الذى يبدو بوضوح أن السحرة يريدون إبرازه ، فى صورة أن التماس الحق عن طريق البينات وفى مقدمتها العقل أول مايجب على العاقل التزامه وتقديمه على كل شىء

٣ ـ بعد إظهار الحق ، يعلن السحرة وقفة التحدى لفرعون ، وتجاهل كل مايصيبه من وعيد ، فلم يخافوا ، ولم يطلبوا منع العذاب عنهم ، بل طلبوا تنفيذ ماقضى به فرعون (فاقض ماأنت قاض) وهذا الموقف يمثل عزة الإيمان ، وصلابة التحدى ، وعمق التضحية وليس من المتصور أنهم يريدون الموت فيطلبوه من فرعون ولكنه أسلوب السخرية والتحدى .

٤ ـ كما لجأ فرعون إلى السخرية بادله السحرة السخرية أيضا ، ولكن الفارق الواضح بين السخريتين كبير وعميق ، فإن سخرية فرعون تعتمد على التجاهل والتضليل ، حيث يتجاهل ذات الله سبحانه ، موازنا بين نفسه وموسى ، ولم يجعل الموازنة ، موضوعية شاملة ، وإنما قصرها على المقدرة على التعذيب وتقديم النفع . أما سخرية السحرة ، فإنها تعتمد على العقل ، وعلى الأحكام المنطقية التى لايختلف عليها العقلاء (فاقض ماأنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا

غليه من السحر والله خير وأبقى) وحين نتامل سخرية السحرة نلحظ أن أبرز نقاطها :

١ – السخرية من قوة فرعون وجبروته المتمثل فى قضائه عليهم بما قضى ، وهم فى الواقع لايطلبون منه هذا القضاء ولايرضونه ، ولكنهم من باب السخرية والاستخفاف كأنهم يطالبونه بأن يقضى وينفذ مايريد (فاقض) .

وتكتمل سخريتهم من فرعون وقضائه حينما يسوقون إليه تعليل استخفافهم بقضائه فيهم ، وهو أنه بحكمه عليهم بالموت لم يفعل سوى أن عجل شيئا مقضيا ، فالموت قادم عليهم مهما طال بهم الأجل ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه يحقق لهم أمنية ، هى لقاء ربهم ، وينقلهم من حياة دنيا إلى حياة عليا (إنما تقضى هذه الحياة الدنيا)وفى سورة الأعراف(إنا إلى ربنا منقلبون) فهم إذاً ميتون، سواء بقضائه أم بدون قضائه ، وفى كل حال يكفيهم أن الموت سيدنيهم من ربهم ، ويرجعهم إليه، وينقلهم من هذه الحياة التافهة الدنيا إلى حياة أسمى .

وكل هذا التهوين من قرار فرعون ، والاستخفاف بجبروته . سخرية بالغة موجعة لفرعون ، فإنه إنما يريد بتعذيبهم وقتلهم أن يملأهم ألما وأسفا ، فإذا هم عكس مايتوقع ، وإذا هو المتألم لفشله فى أن يبلغ من نفوسهم مايريد .

٢ – من أعمق ماتتضمنه سخريتهم الموجعة من فرعون ، أن يقولوا له : إن السبب فى إيماننا بالله أننا نريد أن نغسل عن أنفسنا جريمتك التى أجرمتها فينا ، وهى إكراهك إيانا على السحر . وكأنهم

بهذا يزيدون فرعون غيظا وإيلاما ، فقد غاظوه بخروجهم عن طاعته ، وزادوه غيظاً بسخريتهم وقولهم إنهم يؤمنون ليمسحوا عن أنفسهم جرائمه بعد التماسهم عفو الله عن خطاياهم (إنّا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر) فالحقيقة أن المؤمن إنما يؤمن حين يظهر له الحق فيعرف الله ، ولكن السحرة يلتمسون هذا السبب إهانةً لفرعون وسخرية منه .

٣ ـ قولهم (والله خير وأبقى) تعبير حقيقي لاسخرية فيه ، فالله خير حقيقة وأبقى من كل أحد وكل شيء ، ولكن جانب السخرية أن التعبير يتضمن رد السحرة على قول فرعون لهم (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) وكأنهم يقولون له : بل الله أبقى منك ، وهو سبحانه خير منك ، لانك تباهي بشدة عذابك للأبرياء والله سبحانه منزه عن ذلك ، وهذه المفاضلة وإن كانت عند المؤمنين بسيطة عادية ، إلا أنها عند فرعون سخرية بالغة بملكه وجبروته .

٧ ـ العبرة :

هذه المحاورة تبرز لنا موضوعا يحرص القرآن الكريم على إظهار أهميته ، وهو التشبث بالحق ، وعدم التخلي عنه إرضاء لأي قوة ، أوهروبا من أي ضغط ويتمثل هذا في الصراع من أجل الحق بصفة عامة ، فمن أسس الإيمان الواضحة في القرآن الحض على التشبث بالحق ، مهما كلف صاحبه ذلك من مصارعة الباطل ومقاومته ، ولايعفى الإسلام مسلما من مقاومة الباطل ومصارعته إلا إذا نفدت كل وسائل مقاومته وتحقق فيه العجز الواضح

وهذا المعنى شديد الوضوح فى القرآن ، وتتعرض له آيات ومواضع عديدة بأساليب مختلفة ، ومن أوضح هذه الأساليب وأعمقها وأشدها تأثيرا فى النفوس ، هذا المعنى الذى سيق فى أسلوب محاورة بين الملائكة والذين أدركهم الموت وهم مقيمون على الباطل خوفا من جبروت الأقوياء والطغاة (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفوراً [1]) فظلم الناس نوع من الباطل مهما كان نوعه ، وإن كان السياق هنا يرجح إرادة الكفر ، والعذر الذى اعتذر به ظالمو أنفسهم من أنهم كانوا يخشون ظلم الأقوياء وطغيانهم ، هذا العذر يسلم الملائكة بوجوده ، ولكنهم يرفضون رفضاً شديداً الاستسلام له ، مقررين وجوب مقاومة الطغاة والظالمين ، وأدنى صور المقاومة الرحيل إلى مكان آخر من أرض الله الواسعة ، فالمقاومة للطغيان فى الإسلام ليست مجرد فضيلة أوحسنة ، وإنما هى واجب أساسى يقوم عليه الدين ، ولا يعفى منه إلا العاجزون ، بل نلحظ فى دقة تعبير القرآن ، أنه حتى مع عجزهم ، لم يقل إنهم غير مكلفين أو مطالبين بالمقاومة ، بل هم مطالبون أساسا ولكن عذرهم الواضح ينتظر معه عفو الله ومغفرته ، ليس بالحتم ، ولكن مجرد رجاء للعفو (فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم) . فأمثال هؤلاء . حينئذ يكونون فى دائرة

---

(١) من الآيات ٩٧ ـ ٩٩ سورة النساء .

الإكراه المشار إليها بقوله تعالى (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) ولكنها فى كل حال استثناء وليست قاعدة ، فالقاعدة وجوب المقاومة فى كل الأحوال ، والاستثناء هو بعض الأحوال القاهرة التى يفقد فيها المرء كل وسائل المقاومة ، وتستغلق عليه كل المسالك والطرق ، كما وصف الله (لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا) .

وإذن فهذه المحاورة تتضمن فى عبرتها موضوعا من أسس الإسلام الواضحة فى التشريع ، وإن تجاهل المسلمون وضوحه فى التطبيق .

ومعنى ذلك أن موقف السحرة فى مقاومتهم لطغيان فرعون لاينبغى أن ينظر إليه على أنه بطولة فردية ، أو أنه مثال يرتفع عن مقدرة عامة الناس ، بل يجب أن ينظر إليه على أنه أداء لواجب ، غاية الأمر أن السحرة أدوه فى أكمل صور الأداء ، والقرآن من منهجه أن يعرض المثل فى صورتها الكاملة ، لتكون قدوة للمؤمنين وللمتجهين إلى الإيمان .

وإذا أردنا إيجاز نقاط نخرج بها من هذه العبرة نقول :

١ ــ موقف السحرة من طغيان فرعون ليس فضلا زائداً عن الواجب ، وإنما هو واجب ، وفضل السحرة فيه أنهم أدوه فى أكمل صور الأداء .

٢ ــ مافعله السحرة من مقاومة الطغيان ليس مثالا نادراً فى القرآن ، وإنما هو تطبيق عملى لدعوة القرآن إلى مقاومة كل طغيان ، وكل ظلم ، وكل باطل ، ويكفى وضوحاً فى ذلك أن النهى عن المنكر واجب أساسى على كل مسلم ، كما هو معروف .

٣ – قد يقال : فما جدوى مقاومة الضعيف مادامت لاتحقق لصاحبها نصرا ، ولاللمقاومة نفسها كيانا ؟ ، وقد يقال أيضا : فماذا فعل السحرة بمقاومتهم غير أن عرضوا أنفسهم للموت ؟

والجواب أن أصحاب العقيدة الدينية فى أى دين ، بل وأصحاب دعوات الإصلاح عامة ولو كانوا من غير المؤمنين ، لاينظرون إلى الحياة هذه النظرة السطحية القصيرة ، فحب الحياة ، وولع النفوس بحب النفع العاجل يجعلها ترى كثيرا من أمور الحياة أكبر من حقيقتها ، لشدة رغبتها فى هذه الأمور وحرصها عليها ، أما المؤمنون وأصحاب الدعوات فهمهم الأول ، بل همهم كله فى المبادىء وهم يرون النصر كله فى انتصار المبادىء ، وليس فى النصر المادى أو العسكرى ، وانتصار المبادىء ، ليس فى أن تكون لها السيادة ، فهذا كمال النصر وغايته ، أما بداية الانتصار فهو الإصرار على المبادىء ، والا ستعداد للتضحية فى سبيلها كما فعل السحرة ، فإن صمودهم وإصرارهم كان نصرا أدبيا عاليا لهم ، كما كان هزيمة نفسية وأدبية بالغة لفرعون ، بدليل أنهم أفقدوه ثباته واتزانه ، فمرة يأمر بتقطيع أطرافهم من خلاف ، ثم صلبهم فى جذوع النخل ، ومرة يأمر وزيره بأنْ يوقد على الطين فيبنى له صرحا يبلغ به أسباب السموات ، ومرة يصرخ من موسى متهما إياه بالتجبر حينا ويتهم أخرى أحيانا .

٤ – صدق الإيمان يتمثل فى النظرة الصحيحية إلى الحياة الدنيا وما فيها ، وهى أنها مجرد معبر إلى حياة الخير والبقاء فى

الآخرة ، كما نظر السحرة هذه النظرة الصحيحة إلى الحياتين .

٥ - لايتخلى الله قط عن عباده المؤمنين ، بل يجعل لهم آيات تدل على إكرامه ، وعلى أن تضحياتهم لاتذهب هباء ، كما أكرم السحرة بأن جعل لهم ذكرا خالدا فى الدنيا قبل جزاء الآخرة وكما أكرم موسى بتحقيق مطلبه وهو النجاة بقومه من استعباد فرعون كما فى القصة ، ثم بإهلاك فرعون ومن معه غارقين فى اليم .

٦ - التمسك بالحق وإعلانه فى مواجهة الطغيان يكفى من مزاياه المحافظة على كيان الحق وإبرازه لينضم إليه الراغبون فيه ويهتدوا به ، بخلاف ما لو سكت أصحاب الحق حينئذ ، فإن الحق سيختفى ولا يبقى إلا كيان الباطل متمثلا فى الطغيان .

٨ – فى جناية الغرور

بسم الله الرحمن الرحيم

« إن قارُونَ كَانَ من قَوْم مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ منَ الْكُنُوز مَا إنَّ مفَاتحهُ لَتَنُوء بالْعُصْبة أولى الْقُوة إذْ قال لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرحْ إنَّ الله لا يُحِبُّ الْفَرحِينَ وابتَغ فِيما آتَاكَ الله الدار الاخِرةَ ولاتَنْس نَصِيبكَ مِنَ الدنْيا وأحْسِن كَما أحْسنَ الله إلَيْكَ ولا تبْغ الْفَساد فى الأرْض إن الله لايحِبُّ الْمفْسِدينَ ، قَالَ إنَّما أوتِيتُه علَى عِلْمٍ عِندِى أو لَمْ يعلَمْ أن الله قَدْ أهلَكَ مِنْ قَبلِهِ مِنَ الْقرون منْ هو أشَد مِنْه قوةً وأكْثَرُ جمْعاً ولايُسْألُ عنْ ذُنُوبِهم الْمجرِمونَ ، فَخَرج علَى قَوْمِهِ فى زِينَتِهِ قَالَ الذينَ يرِيدونَ الحياة الدُّنْيا يالَيْتَ لَنَا مِثْلَ ماأوتِى قَارونُ إنه لَذُو حظٍّ عظِيمٍ ، وقَالَ الذينَ أوتُوا الْعِلْم ويلَكُمْ ثَوابُ اللهِ خيْرٌ لِمنْ آمنَ وعمِلَ صالِحاً ولا يُلَقَّاها إلاَّ الصَّابِرونَ ، فَخَسفْنَا بِهِ وبِدارِهِ الأرْض فما كَانَ لَه مِن فئَةٍ ينْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ الله وما كَانَ من الْمُنْتَصرينَ ، وأصبح الذينَ تَمَنَّوْا مكَانَهُ بالأمس يقُولُونَ ويْكَأنَّ الله يبْسُطُ الرِّزْقَ لِمنْ يشَاء مِنْ عِبادِهِ ويقْدِرُ لَوْلا أن منَّ اللهُ علَيْنَا لَخَسفَ بنَا ويْكَأنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ، تِلْكَ الدَّارُ الآخِرةُ نَجْعلُها لِلذينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فى الأرْض ولا فساداً والْعاقِبةُ لِلْمُتَّقِينَ » [1]

---

(١) الآيات ٧٦ – ٨٣ سورة القصص .

عناصر المحاورة

ـ الموضوع :

وموضوع المحاورة يتعلق بشخصية قارون فيما اعتراه من غرور بالمال والجاه اللذين أنعم الله عليه بهما ، والقرآن الكريم فى دقته البالغة يعرض علينا ـ رغم الإيجاز ـ شخصية قارون بتاريخها كله منذ البداية ، وذلك فى نقاط :

(١) « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم » فهو أصلا من قوم موسى ، قيل كان ابن عم موسى ، وقيل بل كان عمًّا لموسى ، وكان حسن الصورة ، كما كان من أعلم بنى إسرائيل ، وتعبير القرآن بأنه من قوم موسى يحتمل مجرد القرابة ، أى أنه كان قريبه نسبا ولم يكن مؤمنا ، ويحتمل أنه كان من أتباع موسى المؤمنين ، ثم أفسدته النعمة فخرج من رحاب الإيمان ، مؤثراً الدنيا على الآخرة ، ويرجح هذا الرأى أن الآية نفسها تتحدث عن القوم بالإيمان ضمنا ، حيث ينصحونه بخلق المؤمنين ، فإذا كان القوم مؤمنين ، ثم وصف بأنه منهم ، كان معناه أنه مؤمن مثلهم ويرجحه أيضا تعبير (فبغى عليهم) حيث إن هذا التعبير يفهم منه أنه تحول بعد النعمة إلى حال مخالفة لحاله الأولى ، وحيث كانت حاله الثانية بعيدة عن الإيمان ، كان معناه أن حاله الأولى كانت فى الإيمان .

ولكن المؤكد أنه انتهى به الحال إلى الغرور والبغى ، وتناسى فضل الله عليه ، بل تناسى الدين نفسه .

٢ ـ أطراف المحاورة ومواقفهم :

وقد اشترك فى هذه المحاورة أكثر من طرفين ، ورغم أن مواقف بعض الاطراف متقاربة ، كموقف المؤمنين ثم موقف العلماء من قوم موسى ، إلا أن هذا التقارب لايلغى بعض الفوارق الهامة بين الموقفين ، ولذلك تعرض كلا منهما منفصلا ، وأما الأطراف بصفة عامة فنعرضها بالترتيب الذى ساقته الآيات ، مع اقتران كل طرف بموقفه ، كما يأتى :

(أ) موقف قارون :

ويبدأ موقف قارون فيا يتعلق بالمحاورة من بداية إفساد النعمة إياه ، فلو ظل قارون كما هو ، على حاله الأولى لم يتغير ، سوا أكانت حال إيمان أم حال كفر ، لم يكن يعنى القرآن بشأنه فيتخذه مثلا ، فما أكثر الكافرين من الناس ، وما أكثر المؤمنين منهم ، ولكن القرآن لايعنى بحديث الأفراد منهم ، لأن كلا الحالين غير غريب ، أما الغريب الذى يستحق أن يتخذ عبرة ومثلا ، فهو تحول الإنسان من حالة إلى حالة ، مستغلا نعمة الله فيا هو شر .

وكأن الآيات تسوق تغير حالة قارون فى الاسئلة المفترضة ، والإجابة المصرح بها كما يلى :

ـ السؤال المفترض : ماذا حدث فى حالة قارون؟ ، والجواب : أفسدته النعمة ، فبغى على قومه . ثم سؤال آخر هو : وما النعمة التى أفسدته؟ والجواب (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) أى أن الله أعطاه كنوزا تبلغ من كثرتها وضخامتها حدا

لاتصل العقول عادة إلى تصوره ، ولذلك لاينبغى الحديث عن الكنوز نفسها ، وإنما عن مفاتيحها التى بلغت حد أن الجماعة القوية من الناس تعيى بحملها . ثم سؤال آخر هو : وما مظهر إفساد النعمة إياه ، والجواب أن هناك عدة مظاهر بدت منه ، وهى التى كانت السبب المباشر للمحاورة .

وأولها البغى (فبغى عليهم) وثانيها ضعفه أمام المال والجاه حتى سيطر عليه الغرور متمثلا فى الخيلاء والتباهى الذى عبر عنه قومه فى قولهم له ناصحين (لا تفرح إن الله لايحب الفرحين) وثالثها استغلاله ماأنعم الله به عليه من المال والجاه فى الإفساد فى الارض (ولا تبغ الفساد فى الارض) .

(ب) موقف المؤمنين :

والذى بدا من قارون كان منكرا واضحا يجب على المؤمنين أن ينهوا عنه ، وقد نهوا قارون عن المنكر ، ولكنهم حتى لايشعر أنهم يلتمسون أخطاءه وحدها ، أرادوا أن يكونوا ناصحين له ، فنصحوه فى صورة الأمر بالمعروف ، وقد جمعوا حينئذ بين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى النقاط الآتية :

١ — ينهون قارون عن الخيلاء النابعة من ضعف النفس أمام النعمة ، فمن صفات النضج والاكتمال فى المرء أن يستطيع الثبات أمام المثيرات ، فلاتضعف نفسه فى أى من الحالين ، حال الخير وحال الضر ، وضعف النفس فى حال الخير والنعمة يتمثل فى شدة الفرح الذى يسيطر على النفس فيخرجها عن اتزانها واعتدالها ،

وضعفها في حال الضر يتمثل في شدة الحزن الذي يخرجها أيضا عن حالة الاعتدال والوقار ، ويوجه القرآن الكريم إلى هذا الاعتدال في قوله تعالى (لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم) فالمراد بالأسى هنا ، سيطرة الشعور بالخيبة أوالحسرة حتى تصل النفس إلى حد فقدان الثبات ، وكذلك الفرح ، المراد به مايصل إلى حد الزهو وفقدان الاعتدال ، وهو مايريده قوم قارون ، الذين يلطفون القول له ، بأن هذا تشريع الله ، وكأنهم يقولون له . لسنا نحن الذين نضيق بزهوك وخيلائك ، بل الله سبحانه يكره هذا الخلق .

٢ - يحاولون الرفق بنفسية قارون ، من باب الدعوة إلى الله بالحكمة ، فيطلبون منه أن يؤدي حق الله في ماله ، ولكنهم يصوغون هذا الطلب في ثلاثة معان أساسية ، أحدها تذكيره بأن كل مايملك إنما هو من عند الله (آتاك الله) وثانيها أن يراقب الله في ماله مراقبة عامة ، سواء في مباشرته إياه ، أوفي أداء حقه ، ولكنهم يذكرونه بأن مايؤديه في كل الأحوال مدخر له ، وسيجده في (الدار الآخرة) وثالثها ألا يظن أنهم يريدون له الانصراف عن الدنيا ، بل يطلبون منه في صورة الأمر ألا ينسى نصيبه من الدنيا ، لأن ترك الدنيا كلية ليس من متطلبات الإيمان .

٣ - يتدرجون بقارون في رفق إلى درجة أسمى مطالبين إياه أن يراعيها حتى يبلغها ، وهي تذكيره بأن الله جعله في وضع أحسن من غيره ، وهذا إحسان من الله إليه ، حيث إن الإحسان معناه الأمر الاحسن والأفضل ، والخلق يقتضي من الإنسان أن يجزي

الخير بمثله ، فكما جعلك الله فى المكانة الفضلى والحسنى ، كذلك ينبغى أن تتخلق أنت بالخلق الأحسن والأفضل من خلق غيرك ، سواء فى نفسك أومالك أو فى تعاملك مع الناس ، أو غير ذلك مما يفهم من إطلاق الإحسان (وأَحْسِنْ)

٤ ـ يعودون إلى أسلوب النهى ، فيطلبون منه ألا يطلب الفساد فى الأرض ، فى أى صورة من صور الفساد (ولاتبغ الفساد فى الأرض) وكأنهم يقولون له : لسنا نحن الذين نضيق بفسادك أوننهاك عنه من تلقاء أنفسنا ، وإنما هو شىء يجب أن تخشى الله فيه قبل غيره (إن الله لايحب المفسدين) .

(جـ) جواب قارون النظرى :

وتتركز المحاورة فى هذة الإجابة التى رد بها قارون على المؤمنين لقد حاول أن يلغى كل ماطلبوه منه ، بمحاولة هدم الأساس الذى بنى عليه المؤمنون كلامهم ومطالبهم ، فالمؤمنون يبنون كلامهم على أن هذا المال من عند الله (آتاك الله) وبناء عليه تجب مراقبة الله فيه وأداء حقه ، والإحسان كما أحسن الله ، فهو يقول لهم : هذا المال ليس من عند الله ، وإنما من علمى وجهدى وكفايتى (قال إنما أوتيته على علم عندى) ومادام المال من عنده ومن علمه ، فلايترتب عليه شىء مما طلبه منه المؤمنون ، وفى هذا مغالطة وتمويه من قارون ، فإن العلم أوالجهد أوالكفاية أوغيرهن ، لايحققن لصاحبهن شيئا قط لم يرده الله ، فكم من عالم أوخبير ذكى ماهر ، ولايكاد يجد قوت يومه ، وكم من جاهل غبى تنهال عليه الأموال من كل وجه ، كما يقول الشاعر .

لو كانت الأرزاق تجرى على الحجا (١)

هلكن إذن من جهلهن البهائم

وحتى لو افترضنا أن المال كان نتيجة مباشرة أو غير مباشرة للعلم ، فإن العلم نفسه ، والصفات التى تؤهل الإنسان لتحصيل العلم أو التفوق فيه ، كل ذلك هبة من الله ، ولكن قارون يريد أن يهدم الأساس الذى بنى عليه المؤمنون كلامهم ، بهذه المغالطة أوالتجاهل أويبتر أهم أجزاء التسلسل المنطقى فى الكلام ، ولذلك تجد القرآن الكريم يرد عليه بالتجاهل أيضا ، مما يسميه علماء البلاغة أسلوب الحكيم ، فيتجاهل ادعاءه أن المال من علمه هو وليس من عند الله لأن هذا التمويه قد يخدع به بعض بسطاء العقول ، وكأن القرآن بدل أن يحاوره فى مصدر المال يريد أن يحاوره فى مصير هذا المال ، كأنه يسأله : إذا كان علمك هو الذى أكسبك هذا المال ، فهل يستطيع هذا العلم أن يمنعك أويمنع مالك من إهلاك الله ؟ وكأن القرآن أيضا يقول له : إذا خفيت عليك الإجابة ، فإن أخبار السابقين الذين أهلكهم الله ، مع كونهم أقوى منك فيا تدعيه ، وأكثر جمعا من مالك الذى غرك وأفسدك ، هذه الأخبار فيها الجواب

وليس الأمر فى حاجة إلى عرض ماأفاض فيه المفسرون دون دليل من تفسير نوع العلم الذى كان لدى قارون ، فليس المهم نوع العلم ، ولكن المهم هو ادعاؤه أن هذا المال جاء نتيجة لمواهبه وليس من عند الله .

---

(١) الحجا العقل .

ووصف هذا الجواب من قارون بأنه جواب نظرى ، لأنه يتمثل فى الكلام الذى رد به على المؤمنين وهذا بخلاف جوابه العملى .

(٥) الجواب العملى :

كأن قارون لم يكتف بالجواب الكلامى السابق ، وإنما أراد أن يبين لهؤلاء المؤمنين أنه يتكلم عن واقع ، وأن هذا الواقع فى رأيه أبلغ من الكلام ، فأراد أن يبين لهم مدى تمكنه من ماله وجاهه ، وكيف أنه لاسلطان لأحد عليه فيما يملك ، بالإضافة إلى إظهار مايتحدى به المؤمنين من مظاهر الغنى والجاه والنفوذ ، وكأنه بهذا المظهر العملى يسخر من كل كلامهم السابق ، فحشد كل مالديه من أسباب الثراء والجاه والنفوذ فى موكب مهيب حافل لم يشهده الناس من قبل (فخرج على قومه فى زينته)

(هـ) موقف العامة :

وعامة الناس هم الذين يمثلون سطحية التفكير ، وتناول الأمور من جانبها الأقرب والأيسر ، ويحكمون على الأشياء من سطحها الظاهر ، وليست لديهم المقدرة على الغوص فيما وراء هذا الظاهر ، وهم عادة يمثلون الغالبية العظمى فى كل مجتمع ، وقد أشارت إليهم الآية بتعبير (الذين يريدون الحياة الدنيا) لان تفكيرهم حينما رأوا قارون فى زينته وثروته انصب على حب الدنيا ومتاعها ، حيث سيطرت على كل منهم أمنية تمثل خيالا متسلطا ، هو أن يصبح مثل قارون ، فقد بهرهم حظ قارون من الدنيا ، فتمنوا أن يكونوا مثله (قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون

إنه لذو حظ عظيم) ولم يكن لديهم من إيمان المؤمنين ، ولا من تفكير العلماء مايجعلهم ينظرون قليلا وراء هذه السطحية التى سيطرت على نفوسهم وأمانيهم .

(و) موقف العلماء :

وأهم مايميز العالم أن يكون لديه فكر مستقل ولو نسبيا ، يستطيع أن يزن به الأمور ، وأن يتعمق به فيما وراء السطح الظاهر للأشياء ، فهو يملك القدرة على بحث الأمور فى ذاتها ، ثم يستطيع أن يوازن بينها ، ثم يستطيع أن يستخلص منها الحقيقة ، أونتيجة يمكن أن توصل إلى الحقيقة ، وعلماء قوم قارون كانت الحقيقة واضحة فى عقولهم ، ولذلك فزعوا فزعا واضحا حينما رأوا عامة المجتمع متهافتين على مظهر قارون ، معجبين به ، بل جعلوه أمنية وغاية يتمنون بلوغها ، وقد عبر العلماء عن فزعهم وإنكارهم بقولهم للعامة (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولايُلَقَّاهَا إلا الصابرون) وكلمة (ويلكم) أصلها الدعاء بالهلاك لأن الويل هو الهلاك ، ثم غلب استعمالها فى الزجر والإنكار ، وهى هنا تفيد هذا المعنى بالإضافة إلى أنها توحى بفزع العلماء وقلقهم مما يرون ؛ وكلمة (ولايلقاها) أى لايعقلها أويحملها إلا الصابرون ، والضمير فى (يلقاها) لم يذكر مرجعه فى الكلام ، لتكون هناك سعة فى فهمه على أى معنى يلائم السياق ، أى لايتلقى هذه الموعظة من العلماء إلا الصابرون الأقوياء على كبح شهواتهم وأماق نفوسهم ، أو لايتلقى هذه المنزلة التى تنتظر المؤمنين مما تحدث به العلماء إلا الصابرون ، أو نحو ذلك

ولم يكن فزع العلماء لمجرد تمنى العامة أن يكون لهم مثل ما لقارون فيما يوحيه المعنى القريب لهذا التعبير ، فالممنوع هو تمنى ذات مايملكه الغير ، لأن هذا التمنى إذا كان فى النفس يكون حسدا ، فإذا نفذه صاحبه أصبح عدوانا على ملك الغير ، وكلا الأمرين الحسد والعدوان إثم ومنكر ، ولكن تمنى مثل ماللغير كما تمنى قوم قارون ليس من الإثم والمنكر فى شىء ، وقد يقال حينئذ : فكيف ينكر العلماء شيئا غير منكر ؟

والجواب أن العلماء كانوا فى غاية الدقة ، فهم وإن أظهروا فزعاً واضحا فى قولهم (ويلكم) إلا أنهم لم يصفوا قوم قارون بالمنكر أوالجرم فى تمنيهم ماتمنوا ، وإنما جعلوها مفاضلة بين أمانى القوم وثواب الله ، قائلين (ثواب الله خير) وهذا حكم مسلم به ، وقد يقال عندئذ : ففيم كان فزع العلماء إذن ؟ .

والجواب أن فزعهم كان لشىء أعمق من ذلك وأخطر ، فهؤلاء العامة هم الغالبية العظمى فى القوم ، وهذا التمنى بهذه الصورة يدل على سيطرة المظاهر على نفوسهم ، والمجتمع الذى تتحكم فيه المظاهر ، مجتمع أجوف لاخير فيه ولامستقبل له ، بل هناك جانب أخطر من ذلك أثار فزع العلماء ، وهو أن قارون لم يكن صالحا ، وإنما استغل ماأوتيه فى الشر والفساد ، وتمنى غالبية المجتمع أن يكونوا مثله معناه أنه مجتمع متجه إلى الشر ، ومشرف على الهاوية ، فأدنى صور التأمل تنبىء عن أن هذا المجتمع سيكون كله فاسداً لو أصبح مثل قارون ، وهذه الصورة لابد أن تفزع كل مصلح ، وكل حريص على مصلحة مجتمعه ، ولو لم يكن مؤمناً ، فكيف إذا كان مؤمنا ؟

وقد يقال : فلم لم يصدر هذا الفزع من المؤمنين الذين أنكروا على قارون بقولهم (لاتفرح) وقولهم (ولاتبغ الفساد) ؟ والجواب من ناحيتين ، إحداهما أن تمنى القوم مثل مالقارون ليس منكراً يتعارض مع الإيمان حتى يجابهه المؤمنون ، وإنما هي نزعة تنبىء عن اتجاه إلى المظاهر وإلى الفساد ، تحتاج إلى أولى الفكر والدعوة الى التقويم والإصلاح لعلاجها ، والعلماء هم عنوان هذه الطائفة ، والناحية الأخرى أن العلماء كانوا من المؤمنين ، ولكنهم يزيدون عن سائر المؤمنين عمق الفكر ، وبعد النظر ، بوصفهم علماء ، ولذلك استطاعوا أن يدركوا خطورة الأماني المسيطرة على القوم ، وأن يدركوا سوء المستقبل لدى قوم تتملكهم هذه النزعة .

٣ ـ النتيجة والأثر :

فأما النتيجة (فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) وفى هذه النتيجة نقاط محددة :

١ ـ حلول الهلاك الذى حذره الله منه فى قوله تعالى (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه ...) فخسف الله الأرض بقارون وبداره التى كانت مظهرجاهه ومخزن ثروته ، ليكون عقاباً له وعبرة لغيره .

٢ ـ فى هذه النتيجة إظهار لانفراد قوة الله ، وأنه ليس هناك قط من مجير حين يحل غضب الله (فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله)

٣ – فى هذه النتيجة إظهار لضعف كل قوة أمام قوة الله ، فلم يغن عن قارون شىء مما يملك فى ذاته أوفى ماله حين نزل به قضاء الله (وما كان من المنتصرين)

وأما الاثر الذى ترتب على هذه النتيجة ، من حيث الموقف الذى تمثله المحاورة ، فقد كان أوضح مايكون فى نفوس الذين خدعوا بمظاهر الحياة وسيطرت على مشاعرهم زينةقارون وأملاكه ، فهؤلاء كانوا أسرع الناس تأثراً بما حل بقارون ، ليس لأنهم كانوا أعمق إيمانا من غيرهم ، ولاأشد إدراكا للمضمون والعبرة ، بل لأنهم أحسوا بشىء من الذنب أوتأنيب النفس على ماخامر نفوسهم مما سبق الحديث عنه ، ومن ثم فإن هذا الإحساس بعث فى نفوسهم الخوف من أن يحل بهم ماحل بقارون ، لأنهم وإن لم يشاركوه واقعا ، فإنهم شاركوه نفسيا ، برضاهم عما يفعل ، وإعجابهم مع ذلك بما يملك (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون) وكلمة ويكأن تتكون من لفظين منفصلين أحدهما (وى) وهى تنبىء فى أغلب استعمالها عن الحسرة والألم ، وهم هنا نادمون ندما يبلغ درجة الألم ، ولفظ (كأن) وهو المألوف فى الاستعمال بمعنى التشبيه ، ومن كلامهم تبدو المعانى الآتية

١ – الندم على انخداعهم بالمظاهر ، وعلى تمنيهم مثل مالقارون (وى)

٢ – بدأوا يفهمون حكمة الله فى توزيع الرزق بين عباده بدرجات متفاوتة (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر)

٣ ـ أثر فى نفوسهم الخوف ، فدفعهم إلى الإيمان ، وقربهم من معرفة الله والإحساس بفضله فى عدم مؤاخذتهم حينئذ على خطئين ، أحدهما انصراف نفوسهم عن الإيمان إلى التهافت على المظاهر مع ماصاحب ذلك مما سبق حديثه ، والثانى عدم استجابتهم لنصح العلماء وتبصيرهم بالعاقبة.

٤ ـ من الواضح أنهم كانوا من النوع الذى لا يستجيب للحسنى ، وإنما يخضع للخوف والرهبة ، فقد أجهد العلماء أنفسهم لتبصيرهم بالتفكير الصحيح دون جدوى ، ولكنهم ما إن أحسوا بالخوف حتى أتوا إلى العقل والإيمان مسرعين .

٤ ـ العبرة :

والمحاورة بملابساتها حافلة بمواضع العبرة والموعظة ، ومن أبرز هذه المواضع :

١ ـ أن النفس الكريمة الخيرة لاتفسدها النعمة ، ولاتضعف أمام المغريات والمثيرات ، ولذلك يدعو الإسلام إلى ثبات النفس فلاتنساق فى غرور النعمة ، ولاتنهار تحت وطأة البلاء من مثل قوله تعالى (لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم) ولكن نفس قارون كانت أضعف من أن تحمل نعم الله

٢ ـ الغرور أسرع السبل إلى فقدان النعمة ، كما أودى بقارون غروره .

٣ ـ لاينبغى الاغترار بالمظاهر والأعراض الزائلة ، بل يجب التماس ما هو أبقى وهو طريق الله والعمل الصالح ، وقد رأينا كيف سيطر الندم على المغترين بالمظاهر

٤ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون بارزا فى مواجهة كل منكر أو جور عن الصواب ، كما فعل المؤمنون ثم العلماء ، ومن المعروف أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسس الإسلام ، حيث إنه واجب على كل مسلم

٥ - يجمل القرآن الكريم كل هذه العبر فى قوله تعالى تعقيبا على أحداث هذه المحاورة (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) وليس التنفير منصبا على العلو فى الارض لذاته ، وإنما على إرادته بمعنى التهافت عليه ، والانشغال به عن الآخرة ، لأن التعبير جعل إرادة العلو فى الارض مقابلة للدار الآخرة ، وكأن الانشغال بإحداهما لايتلاءم تلاؤما كاملا مع الأخرى ، أما إذا أتى العلو فى الأرض دون تهافت عليه ، أو انشغال به عن الآخرة ، فليس فى الآية مايفيد التنفير منه

٩ ـ فى حرية الرأى

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَإِذ قَالَ رَبُّكَ للمَلائكَة إِنِّ جَاعل فى الارض خَليفَةً قَالُوا اتجعَلُ فيهَا مَن يُفسد فيهَا وَيَسفكُ الدمَاء وَنحنُ نُسَبِّحُ بحمدكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّ أعلَم مالا تَعلَمُونَ وَعَلَّمَ آدمَ الأَسمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُم عَلَى المَلائكة فَقَالَ أنبِئُونى بِأَسمَاء هَؤُلَاء إن كُنتُم صَادقينَ قَالُوا سُبحَانَكَ لاَعلمَ لَنَا إلاَّ مَاعَلَّمتَنَا إِنَّكَ أَنتَ العَليمُ الحَكيمُ قالَ يَاآدَمُ أَنبِئهُم بِأَسمَائهم فَلَمَّا أَنبَأهُم بِاسمَائهِم قالَ أَلَم أَقُل لَكُم إِنِّ أَعلَمُ غَيبَ السَّموات وَالارض وَأَعلَمُ مَاتُبدُونَ وَمَا كُنتُم تَكتُمُونَ . وَإذ قُلنَا للمَلائكَة اسجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبليسَ أَبَى وَاستَكبَرَ وَكَانَ منَ الكَافرينَ »[1]

جوانب المحاورة

١ ـ الطرفان :

وطرفا المحاورة هما :

(أ) الله جلت ذاته وحكمته .

(ب) الملائكة

---

(١) الآيات ٣٠ ـ ٣٤ سورة البقرة .

٢ ـ طابع المحاورة :

وهذه المحاورة من طراز يختلف عن سائر المحاورات ، فهى نموذج أعلى للإرشاد والقدوة والتوجيه ، حيث يجعل الله سبحانه من ذاته فيها معلما ومثلا أعلى يقتدى به فى مثل موضوع المحاورة .

وهى بهذا المقياس أسلوب من أساليب التعليم المتعددة التى يسوقها القرآن الكريم التماسا لكل السبل فى إرشاد البشر وتوجيههم : وبيان ذلك أن موضوع المحاورة كما سنرى مراجعة بين الملائكة وربهم فى بعض ماخلق ، أوماقضى بخلقه ، ولايصلح قط أن نفهم هذا الامر على ظاهره البسيط القريب ، فالله سبحانه يستشير الملائكة فى خلق آدم ، والملائكة يظهرون فى وضوح عدم موافقتهم على خلق آدم أوجعله خليفة فى الارض ، وينكرون على الله سبحانه أن يفعل ذلك ، بل يسوقون إنكارهم على الله فى أسلوب يشبه التقريع أو وصف الله سبحانه بعدم الحكمة ، متسائلين : كيف يترك الله سبحانه الجنس المتسم بالخير وهم الملائكة ، ثم يستخلف الجنس المتسم بالشر وهم بنو آدم ؟ (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) ؟

ومن البدهى أن شيئا من هذا كله غير مقصود فى ظاهره ، فلاالله سبحانه فى حاجة إلى المشورة ، لأن المستشير إنما يلتمس خير الآراء ، وليس هناك رأى يعلو حكمة الله حتى يلتمسه الله سبحانه . ولا الملائكة بطبيعة تكوينهم يستطيعون مراجعة الله فى أمر قط ، لان الذى يراجع غيره ، إنما يكون غير مطمئن فى الأمر الذى يراجع فيه ، وهذا يجوز فى البشر إذا راجعوا الله لقصور عقولهم

حين لايفهمون حكمة الله ، أو لمخالفة بعضهم لله حين يفهمون أما الملائكة فهم جنس خالص لله : ليس فى طبيعته مايدعو إلى المراجعة أو إلى المخالفة ، وإذن فهناك هدف تحمله المحاورة أبعد من ظاهرها.

والذى لاشك فيه أن هذه المحاورة حقيقة ، ولكن موضع التأمل هو : لماذا أوجد الله سبحانه هذه المحاورة ، ولماذا ساقها ؟ ويمكن الإجابة عن ذلك بأن من أبرز الاهداف الواضحة التعليم ، أى أنها سيقت لتكون وسيلة من وسائل التعليم ، وأن الله سبحانه ييسر للناس أساليب التعلم والتوجيه ، حتى إنه يجعل من ذاته سبحانه قدوة يتعلم منه الناس ، فمع أنه فى غير حاجة إلى المشورة والرأى ، إلا أنه يلتمس المشورة والرأى من الملائكة ، ويجعلهم مستشارين له ، ليعلم أصحاب الأمر والسلطان ألايتخلوا عن الشورى مهما تكن الأحوال كما فعل الله سبحانه ، وليعلم المحكومين أن يبدو رأيهم صريحا واضحا مهما كان مخالفا للسلطان ، ومهما كانت سلطة هذا السلطان ، كما فعل الملائكة ، ولكنه يعلمهم أن يرجعوا إلى الحق إذا استطاع السلطان أن يقنعهم بالمحاورة والمنطق ، كما رجع الملائكة ، وألا يتمادوا حينئذ فى الخلاف ، لان خلافهم إذن سيكون باطلا ، وليعلمهم سبحانه أشياء أخرى مما تضمنته المحاورة.

٣ ـ النتيجة والأثر :

والواقع أن الموضوع الاساسى للمحاورة هو تكريم آدم بوصفه جنسا وليس شخصا ، أعنى تكريم جنس بنى آدم الذين يعمرون الارض ، ويصبحون خلفاء لله فيها ولكن تكرار هذا المعنى فى القرآن الكريم بأكثر من أسلوب يجعله وإن كان واضحا بارزا إلا أن فى المحاورة ماهو أبرز منه لغرابته أوطرافته ، ومن ذلك حرية الرأى التى

أبداها الملائكة فيما يشبه الإنكار على الله سبحانه فى خلقه آدم واستخلافه إياه فى الارض ثم قبول الله ذلك منهم دون غضب ، بل فيما يشبه التشجيع لهم على إبداء الرأى الصحيح الواضح ، ليكون سبيلا إلى الحوار ثم الوصول إلى الحق المقنع الذى يبعث فى النفس اليقين والاطمئنان ، وهو غاية الإيمان وهدفه . .

٤ ـ مراحل المحاورة :

من حيث إن أظهر أغراض المحاورة الإرشاد والتعلم ، نلحظ أنها صيغت فى القالب العادى المألوف للبشر ، وكأنها محاورة بين طرفين من الناس ؛ حيث تعرض علينا المحاورة مايأتى :

١ ـ الله سبحانه يعرض على الملائكة الموضوع فيما يوحى بأنه يطلب رأيهم ، وقد عرض سبحانه الموضوع على الملائكة بصيغة تحمل فيما تحمل معنيين

(ا) أحدهما أنه قضى بجعل آدم خليفة فى الأرض ، أى مالكا لها ، ومسيطرًا عليها نيابة عن الله المالك الحقيقى ، وأن هذا القضاء لارجوع فيه ، وكل قضاء الله لارجعة فيه ، ولذلك كان التعبير (إنى جاعل فى الأرض خليفة) .

(ب) والمعنى الآخر أنه سبحانه لايطلب رأيهم فى خلق آدم ، وإنما فى جعله خليفة ، كما هو واضح من التعبير السابق .

ومفهوم الآية يتضمن أن الملائكة لديهم علم بطبيعة بنى آدم الذين سيجعلهم الله خلفاء فى الأرض ، وليس يعنينا كيف كان لديهم هذا العلم ، فهذا أمر قد يطول حديثه أو الاختلاف فيه ، وإنما يعنينا أن الوضع الطبيعى أن من يرشح شخصا لمنصب ، أو لتولى

أمر ذى أهمية ، يعرض عادة تعريفا بهذا المرشح ، وإذن فمن المتوقع أن الله حينما أخبرهم باستخلاف بنى آدم أخبرهم بطبيعة هؤلاء الآدميين ، أو أن الملائكة توقعوا ذلك من فهمهم لطبيعة آدم فى تكوينه ، ويكفى أن يكون من هذه الطبيعة أنه يأكل ويشرب . فإن كل ما فى حياة الناس من صراع : ومن مشاكل ، ومن فساد إنما يرجع فى أصله إلى الحاجة إلى الطعام . فليس غريبا أن يكون من فى مثل درجة الملائكة من الإدراك متوقعا لما سيصدر من بنى آدم ، ويحتمل أيضا أن تكون لهم تجارب مع مخلوقات أخرى سابقة لآدم ، فقاسوا طبيعة آدم عليها والهم أن الله أطلعهم بوسيلة ما على ما سيكون عليه بنو آدم

وأما عن كيفية استخلاف الله لآدم ، فمع مراعاة اختلاف المفسرين فيها ، يمكن القول بأن أقرب ما يناسب العقول من هذا المعنى أن الله جعل بنى آدم هم المالكين للأرض ، والمسيطرين عليها دون أن ينافسهم فى ذلك جنس آخر ، وكأنهم بذلك نائبون عن الله فى هذه الملكية والسيطرة ، وذلك أن الأرض تحوى مالا يعد ولا يحصى من أنواع المخلوقات الحية وغير الحية ، وهذه المخلوقات على كثرتها واختلافها ليس من بينها قط جنس له سيادة أو سيطرة إلا بنو آدم ويمكن أن نتصور كيف يكون حال الأرض لو خلت من بنى آدم ؟ والتملك فى حقيقته لله وحده ، ولكنه سبحانه كأنه أناب بنى آدم واستخلفهم عنه فى تملك الأرض وما فيها ، والتعبير يشير بوضوح إلى أن الأرض وما فيها سابقة لآدم وهذا مطابق للبحث العلمى

٢ – الملائكة يظهرون فزعهم من أن يكون بنو آدم خلفاء الله

فى هذا الكوكب ذى الأهمية ، أو فى أى مكان ، وذلك بعد أن علموا أن من طبيعة بنى آدم الإفساد وسفك الدماء ، والملائكة جنس لايحمل فى طبيعته وتكوينه إلا الخير ، فهم يستغربون الشر وينفرون منه ، ولايتصورون كيف يرضى الله بأن يستخلف مخلوقاً يحمل شيئاً من الشر ، مهما كان فيه من الخير ، وكأنهم يقترحون على الله أن يجعلهم هم خلفاء له فى الأرض ، ليس حباً فى الخلافة ، وإنما محافظة على طهر الأرض ، وجعلها كغيرها مكاناً خالصاً لتسبيح الله وتقديسه ، وليس مكاناً للإفساد وسفك الدماء ، وتوجهوا بكل ما فى نفوسهم إلى الله ، لأنهم لايخفون عنه شيئاً ، وما نفع الإخفاء عمن يعلم كل شىء ؟ ، (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟)

٣ — يرد الله سبحانه على الملائكة بما من أجله اختار آدم خليفة ولم يكن الله فى حاجة إلى تعليل شىء مما يفعل ، وما كان لأحد أن يكون له فى خلق الله رأى (لايسأل عما يفعل وهم يسألون ولكنه سبحانه يريد أن يعلم الناس ، ومما يعلمهم إياه ألا يستبد صاحب الأمر برأيه يفرضه فرضاً على الأتباع ، بل ينبغى أن يكون سبيله دائما الحوار والإقناع بالمنطق والحجة ، كما فعل الله سبحانه فى إقناعه الملائكة .

ونلحظ أن جواب الله سبحانه فى بيان استخلافه آدم يتضمن جانبين :

(١) أحدهما أن آدم استحق هذه المنزلة لأسباب خاصة يعلمها الله ، ولايريد أن يبسطها للملائكة أو أن بسطها للملائكة غير ذى نفع لأنهم لن يفهموها ، حيث إن طبيعة آدم فى تكوينه تختلف عن طبيعتهم

فلن يفهموا الحديث عن طبيعة لايعرفونها ، وإذا أراد امرؤ أن يتخيل شيئاً من هذه الأسباب التى حجب الله حديثها عن الملائكة ، فقد يلتمس أسباباً من أبرزها فى فضل آدم على الملائكة، أن عمل الخير لدى الملائكة يسير هين ، لأن طبيعتهم مهيأة للخير ، ولا تحمل إلا الخير أو الدافع إلى الخير ، أما الآدمى فإن عمل الخير لديه شاق عسير ، حيث إن نفسه تحمل الشر والدوافع إلى الشر ، وحين يريد عمل الخير . تثور فى نفسه نوازع شر لتثنيه عن هذا الخير ، فلايستطيع عمل الخير إلا بعد اجتياز صراع مع نفسه ، وحينئذ يكون الآدمى صاحب الخير أفضل من الملك ، لأن الملك يفعل الخير بسجيته دون عناء ، أما الآدمى فيفعله ضد سجيته وفى صراع وجهد ، كما أن الآدمى الشرير أخف شراً من الملك الشرير وهو إبليس – باعتباره أصلا من الملائكة [1] وبهذا المقياس يكون الآدميون فى كل أحوالهم خيراً من الملائكة ،فهم فى الخير أعظم منهم خيراً ، وفى الشر أيسر منهم شراً ، ولئن صلح هذا سببا من الاسباب التى لم يبسطها الله للملائكة فى تفضيل آدم عليهم ، فهناك سبب أو أسباب من أجلها استخلف الله آدم ، ومن أجلها فضله على الملائكة حتى أمرهم بالسجود له ، ليس سجود العبادة ، وإنما سجود التكريم والاعتراف بالأفضلية

(ب) والجانب الآخر فى فضل آدم على الملائكة ظاهر واضح ،وهو العلم المكتسب ، فالملك يعلم مايعلمه منذ خلقه الله ، وبطبيعة تكوينه ،

---

(١) بدليل قوله تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس) فدخوله مع الملائكة فى الأمر بالسجود ثم الاستثناء ، دليل على أنه منهم .

فهو لايبذل جهدا فى العلم ، ولاتزيد معلوماته بمرور الزمن ، وأما الآدمى فعكس ذلك ، لانه يخرج من بطن أمه جاهلا كل الجهل ، ثم يتدرج فى المعرفة والعلم فى بطء وعناء شديدين ، وكل مايحصله من المعرفة والعلم إنما يأتى بالجهد ، قل هذا الجهد أوعظم ، ولايتصور أن يعرف الإنسان شيئا دون أن يبذل فيه جهدا .

ويريد الله سبحانه أن يبرز هذا المعنى للملائكة بصورة واضحة لهم ، فيعقد امتحانا علميا ، يعرض عليه الملائكة أولا ، فإذا هم يفشلون فيه كل الفشل ، حيث لايجيبون عن شىء منه قط ، ثم يعرض عليه آدم بما علمه الله من علم مكتسب ، فإذا هو ناجح كل النجاح حيث يجيب عن كل ماطلب منه .

هنالك أيقن الملائكة بفضل آدم عليهم ، و استحقاقه الخلافة وقد عبروا عن ذلك بالسجود لآدم حين طلب الله منهم ذلك .

وفيما يتعلق بنوع العلم الذى اختص به آدم ، يمكن أن نقول إن التعبير فى الآيات يوحى بأنه ليس المراد تحديد نوع معين من العلم ، وإنما الواضح إبراز نقاط معينة تبدو عن خلال الالفاظ ، وأوضح هذه النقاط :

(ا) أن علم آدم مكتسب وليس نابعا من طبيعة تكوينه أونحو ذلك ، ويشير إلى هذا (وعلم آدم...) فهو صريح فى أن آدم تعلم أشياء لم تكن معلومة له .

(ب) أن علم آدم واسع ، يتسم بالشمول . ويدل على هذا التأكيد بلفظ (كل) فى قوله (وعلم آدم الاسماء كلها)

(حـ) أن آدم اختص بهذا العلم دون الملائكة ، كما هو واضح فى الآيات .

أما ذكر الاسماء فأغلب الظن أنها مجرد رمز لهذه النقاط التى سبقت ، حيث إن السياق لايركز على بيان نوع العلم ، وإنما على تميز آدم وانفراده بعلم لايعرفه الملائكة .

٤ — رجع الملائكة إلى الحق ، فاعترفوا بفضل آدم عليهم ، وهذا يمثل النتيجة للمحاورة ، فالموضوع الأساسى للمحاورة كما سبق ، هو تكريم آدم وبيان فضله ، وقد آثر الله سبحانه ألا يفرض هذا على الملائكة فرضا ، وإنما أراد أن يقنعهم به إقناعا بأسلوب المحاورة ، وقد أبدى الملائكة اعترافهم بفضل آدم من جانبين على سبيل التضمين .

(أ) أحدهما اعترافهم ضمنا بفضل آدم فى العلم ، حين أعلنوا عجزهم عن الإجابة ، بينما أجاب آدم ، ونتيجة الموقف حينئذ واضحة ، وهى تفوق آدم على الملائكة .

(ب) سجودهم لآدم حين أمرهم الله بذلك ، فإن السجود لايكون إلا للأفضل والأعظم ، ولذلك امتنع إبليس عن السجود لآدم حين لم يعترف بفضل آدم عليه

العبرة :

ومن الواضح كما سبق أن المحاورة مسبوقة للتعليم ، ومواطن العبرة التى ينبغى أن يتعلمها الناس فى هذه المحاورة كثيرة ، وأبرزها

١ — يجعل الله سبحانه من ذاته ، ومن الملائكة ، قدوة يتعلم

منها البشر ، وفى هذا أقصى مايمكن من حفز إلى التعليم والاقتداء .

٢ - الشورى يجعلها الله منهجا أساسيا فى كل أمور الناس وشئون حياتهم ، وخصوصا ولاة الأمر ، فلاينبغى لولى الأمر مهما بلغ من سداد الرأى أو النفوذ والسلطان أن يستبد برأيه وحكمه وحسبه أن يجد الله سبحانه يشاور بعض خلقه فى شئون ملكه ، بل نلمس من خلال التعبير كأن الله شاور الملائكة جميعا (وإذ قال ربك للملائكة ...) .

٢ - حرية الرأى يجب أن تكون مكفولة للجميع ، ولايشترط فى صاحب الرأى أن تكون له صفات معينة أومنزلة خاصة ، فإن الملائكة ليسوا جميعا فى منزلة واحدة ، بل فيهم أعلام متميزون ، ذكر القرآن بعضا منهم بأسمائهم كجبريل وميكائيل ، أو بصفاتهم كحملة العرش ، ولكن الله لم يخصهم وحدهم بالمشورة ، كما أنه لم يجعل لهم وحدهم حق التعبير عن رأيهم ، وإنما منح هذا للملائكة فى جملتهم ، ولذلك صدر الرأى عن الملائكة جميعا (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟...) فقد استطاع الملائكة أن يعبروا عن رأى يعد فى ظاهره غاية فى الجرأة على الله ، لأن الله يريد أن يعلم الناس أن يجهروا برأيهم مهما كان مخالفا لصاحب الأمر والسلطان .

وليس ذلك للشقاق أوالخلاف ، وإنما هو تتمة لمبدأ الشورى الحقيقية ، فالمستشار الصادق المخلص لابد أن يعبر عن رأيه كما يراه هو ، وليس كما يرضى ولى الأمر ، .

ولكن هذه الحرية التى يمنحها القرآن للتعبير عن الرأى مقيدة بقيدين :

(ا) أحدهما صدق التعبير عما فى النفس ، بمعنى أن يكون الرأى تابعا عن صدق وإخلاص . ولو كان فى حقيقته خطأ ، كما فعل الملائكة ، فإنهم بداهة لم يظهروا رأيهم هذا للمخالفة ، وإنما خوفا من الشر الذى سيغرسه آدم فى الأرض ، ورغبة فى الخير الذى تعودوه هم .

(ب) والآخر الرجوع إلى الحق فور ظهوره ، فلاضير فى خلاف الرأى مهما يبلغ ، إنما الشر فى التمادى فى الباطل ، أوعدم الرجوع إلى الحق حين يتضح ، وقد أسرع الملائكة إلى الحق حين ظهر .

٤ — العلم أعظم مايحمله الانسان ، بل أعظم مافى الكون على الإطلاق ، وذلك شديد الوضوح فى آيات هذه المحاورة ، فآدم إنما علا على الملائكة بشىء معين حددته الآيات هو العلم ، وشعاره (وَعَلَّمَ آدم ..) وحين أراد الله سبحانه أن يقنع الملائكة بفضل آدم عليهم أجرى لهم وله امتحانا فى العلم ، وحين تفوق عليهم بالعلم اعترفوا بعلو قدره عليهم ، ونلحظ أيضا أن الله سبحانه حينما وصف نفسه بأنه فوق الجميع ، جعل صفته فى هذا المقام العلم (ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون) مبينا أن العلم هو الذى يحدد المنازل ، فالله سبحانه فوق الجميع لأنه يعلم مالايعلمه أحد ، وآدم فوق الملائكة ، لأنه يعلم مالايعلمونه ، والملائكة دون آدم لأنهم لايعلمون مايعلمه آدم ، ويكفى تعظيما للعلم أن صفة العلم فى آدم كانت أهم دواعى سجود الملائكة له .

٥ ـ الأحكام يجب أن تكون مبنية على الإقناع مهما يكن مصدرها ، حيث نجد فى المحاورة أن الله سبحانه قضى بفضل آدم فجعله لخليفة عنه فى الأرض ، وبتفضيله على مخلوقات أخرى منها الملائكة ، حتى أمره بالسجود له ، وقد كان الله سبحانه يملك أن يقضى بما يشاء ، وأن يأمر بما يريد ، ويملك أن يفرض طاعته على كل مخلوق ، ولكنه جلت حكمته يريد أن يعلم الناس أن تكون أحكامهم مبنية على الإقناع ، فبين للملائكة مايقنعهم بفضل آدم . بل جعل هذا الإقناع عمليا فى صورة امتحان وصل فيه الملائكة فى اقتناعهم إلى حد إعلانهم العجز عن مجاراة آدم فى العلم ، وهذا يقتضى تسليمهم الكامل بتفوقه وفضله عليهم

٦ ـ من أبرز ماتضمنته المحاورة إظهارتكريم الجنس الآدمى ، ليتعلم الناس أن كل آدمى يكتسب كرامته من مجرد كونه آدميا وأن الآدميين جميعاً فى هذا سواء ، حيث إنهم لايتفاوتون فى صفة الآدمية ، وقد سبق القول بأن هذا هو الموضوع الأساسى للمحاورة ويؤكد ذلك أن هذا المعنى تردد كثيرًا فى القرآن الكريم ، سواء فى صورة محاورة كهذه المحاورة ، أوفى أسلوب آخر كقوله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) ويطبق الإسلام هذا المعنى فى كل تشريعه من جانبين ، أحدهما المحافظة على كرامة الآدمى وحقوقه لمجرد كونه آدمياً ، مهما صغرت منزلته فى أعين المجتمع ، والآخر المساواة بين الآدميين جميعاً فى كل الحقوق والواجبات

١٠ ـ بين السادة والاتباع

في الآخرة

بسم الله الرحمن الرحيم

« وقَالَ الّذِينَ كَفرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا القُرْآنِ ولاَ بِالّذِي بين يَدَيه .

ولوْ تَرَيَ إذ الظَّالِمُونَ موْقُوفُونَ عِنْد رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلَى بَعْض القَوْلَ يَقُولُ الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا للّذينَ اسْتَكْبَروا لَوْلاَ أنتُم لكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أنَحْنُ صَددنَاكم عنْ الهُدى بَعْدَ إذ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مجْرِمِينَ ، قالَ الّذِينَ اسْتُضْعِفوا للّذِينَ استكْبَرُوا بَلْ مكْرُ اللّيلِ والنّهَار إذ تأمرونَنا أنْ نكفر بِالله ونَجعَلَ لَهُ أنْدَادا ، وأَسَروا النَدَامةَ لَمّا رأوا العَذَابَ وجعلْنَا الأغْلاَلَ فى أعنَاقِ الّذِينَ كَفرُوا ، هَل يُجزَونَ إلاَّ ماكَانُوا يَعْمَلُونَ » (١)

جوانب المحاورة

١ ـ طبيعة المحاورة :

هذه المحاورة تمثل نوعا معينا من محاورات القرآن ، هو المحاورات فى الدار الآخرة سواء أكانت بين طبقات من الكافرين كهذه المحاورة أم بين خزنة الجنة ومن فيها وخزنة النار ومن فيها ، أم بين الشيطان وبعض أتباعه أم نحو ذلك .

(١) الآيات ٣١ ـ ٣٣ سورة سبأ .

ومن الواضح فى هذا النوع من المحاورات الرمز ، أعنى أن المحاورة بكل ماتشتمل عليه من أطراف وموضوع إنما يرمز بها إلى هدف يريد القرآن أن يبرزه ويوضحه فى النفوس عن طريق الرمز تمثل هذه المحاورات ، ويدل على ذلك أمران ، أحدهما أن هذه المحاورات لم تحدث حقيقة ، لأنها لم توجد بعد ، وإنما هى تصوير لما سيحدث فى الآخرة ، والأمر الآخر أنها غالبا لاتنتسب إلى أطراف محددة أى أنها لاتساق على ألسنة أشخاص أو جماعات محددة معروفة ، كالمحاورات التى ساقها القرآن عن أشخاص معينين فى الدنيا ، وإنما ترد هذه المحاورات غالبا رامزة إلى أنواع وليس إلى أشخاص ، كالكافرين ، أوالسادة ، أو الأتباع ، أو الأصدقاء ، أونحو ذلك ، دون القصد إلى أشخاص محددين من هذه الأنواع .

٢ ـ طرفا المحاورة :

(ا) فأما الطرف الأول فهم الذين استضعفوا وهم رمز لعامة الناس الذين يسهل التأثير عليهم ، ويمكن أن ينقادوا بسهولة لمن يؤثر فيهم

(ب) وأما الطرف الثانى فهم الذين استكبروا ، وهم رمز للسادة والزعماء الذين يستطيعون التأثير فى عامة الناس بأى نوع من المؤثرات ، كالقوة أوالمال أو الجاه أوالسلطان أوغير ذلك

٣ ـ الموضوع :

وموضوع المحاورة الأساسى هوندم الأتباع على انقيادهم الأعمى للسادة حتى انساقوا وراءهم فى الكفر والضلال ، وهذا الندم جعلهم

يصبون نقمتهم على سادتهم فى محاورة كانت خطواتها الأساسية كما يلى :

(ا) الأتباع يتهمون سادتهم بأنهم السبب فى ضلالهم ، ولولاهم لم يضلوا (لولا أنتم لكنا مؤمنين)

(ب) السادة يسفهون الأتباع ساخرين منهم ، منكرين أن يكونوا هم السبب فى ضلالهم ، متهمين إياهم بالإجرام (أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين)

(ج) الأتباع يذكرون السادة بما كانوا يدبرونه ويقدرونه من الكيد للدين والصد عنه ، وأنهم كانوا يأمرون الأتباع بالكفر والشرك بالله

٤ ــ العبرة :

هذا النوع من المحاورات يمس جانبا كبير الأهمية فى حياة المجتمعات وهو القيادات وما ينبغى أن تكون عليه ، فأما أهمية القيادات ، فلأنها فى حقيقتها أمر طبيعى فى حياة الناس ، أعنى أن وجود القيادة والزعامة أمر موجود بطبيعته فى كل مجتمع ، حيث يلحظ علماء الاجتماع أن كل مجتمع ، بل حتى جماعات اللعب لدى الأطفال تبرز فيها زعامة وقيادة بصورة تلقائية ، وإذن فالقيادة موجودة فى كل المجتمعات على اختلاف أنواعها ، ولذلك يوليها القرآن الكريم اهتماما واضحا ، ومن ذلك المحاورات العديدة التى تنصب على هذا الموضو

وأهمية القيادات فى نظر الدين ، أن السادة والقادة هم فى

كل العصور العقبة الأساسية فى وجه الأنبياء، وفى طريق انتشار الدين ، وذلك لأنهم يرون فى الدين هدما لسيادتهم ، وانتقاصا من نفوذهم وقيادتهم ، حيث إن من أبرز ماتدعو إليه الأديان المساواة بين الناس ، وهذه المساواة أبغض الأشياء إلى السادة ، لأنها تهدم سيادتهم وتهدم تسلطهم على الأتباع ، بالإضافة إلى اعتبارات أخرى من وجهة نظرهم يرون الدين فيها ماسا بسيادتهم وبإطلاق يدهم فى جمع الأموال واكتنازها ونحو ذلك ، ولهذا ينبرى هؤلاء السادة دائما للوقوف فى وجه الدين فى كل العصور ويؤكد القرآن هذا المعنى بقوله عقب هذه المحاورة (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) ٣٤ سبأ .

ولذلك يهتم القرآن فى مواضع عديدة ، منها محاورات متكررة ، تلفت نظر الأتباع إلى خطورة انقيادهم الأعمى وراء السادة ، موضحة أن هؤلاء السادة لن يغنوا عنهم عند الله شيئا . (١).

ومن أوضح الأدلة على ذلك فى هذه المحاورة ، أننا نجد الآيات تركز المعانى على إبراز موقف الأتباع فى الندم والعذاب فى الآخرة ، دون إبراز موقف السادة ، مع أنهم جميعا مشتركون فى ذلك ؛ ولكن الهدف هو مخاطبة الأتباع وتبصيرهم بسوء اتباعهم لهؤلاء السادة الذين يضلونهم عن سبيل الله . والمحاورة حافلة بمواضع التأمل ، ومن أبرز هذه المواضع :

---

(١) من أراد البسطة فى موضوع هذه المحاورة فليرجع الى كتاب أسلوب السخرية فى القرآن الكريم للمؤلف ، وبخاصة فى فصل السخرية والقيادات .

(أ) أن المحاورة كلها فى سياق الكفر (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ...) ومعنى ذلك لفت نظر هؤلاء الكافرين وبخاصة الأتباع – وهم أكثرية الناس – إلى خطورة ماهم فيه، وتبصيرهم بعاقبة اتباعهم الأعمى لسادتهم .

(ب) تعبير (ولو ترى) مع حذف الجواب ، يوحى بمعنى لاحدود لعمقه وتأثيره ، حيث إن التقدير : ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم لرأيت عجبا ، ومع ذلك فهذا العجب غير محدد ، بل متروك لتذهب النفوس فى تصوره وتخيله حسب السياق كيف تشاء، ومن الملاحظ أن تعبير (ولو ترى ..) بهذه الصورة يأتى به القرآن فى المواضع التى تحتاج إلى التضخيم وزيادة التأثير فى النفوس .

(ج) لفظ (وأسروا) يتجه المفسرون إلى ترجيح حمله على أنه من استعمال الأضداد ، بمعنى أظهروا الندامة ، ولكن الواقع أن التعبير بإسرار الندامة يمثل غاية الدقة ؛ لأن الشىء المكبوت فى النفوس أشد إيلاما لها وتأثيرا فيها ، وهكذا كل انفعالات الإنسان ومشاعره ، يخففها التنفيس عنها بإظهارها ، ويزيدها عمقا وتأثيرا كتمها وإخفاؤها ، كالغضب يخففه إظهاره ومزاولة التعبير عنه ، ويزيده عمقا وحدةً إخفاؤه دون محاولة التخلص منه ، وكذلك الحزن ، يخففه إظهاره والتعبير عنه ، بالحديث أو بالبكاء، ويزيد من ألمه كتمه وإخفاؤه ، كما تعبر عنه الآية ، فالندامة هى ألم الندم على التقصير فى شئ فائت ، وإسرارها إخفاؤها .

ولكن العبرة العامة فى المحاورة لفت الأنظار إلى خطورة الانقياد الأعمى للزعامات وذوى السيادة ، وتبصير الأتباع بسوء المصير

الذى ينتظرهم حين يسلمون قيادهم بدون بصر ، وبأن هؤلاء السادة الذين ينقادون لهم لن يغنوا عنهم عند الله شيئاً .

والواقع أن هذا المعنى جزء من قضية أساسية فى الإسلام ، وهى حرية الفرد ، ووجوب استقلال فكره وسلوكه ، بحيث لايسلم قياده إلاللحق ، فالحق وحده يجب أن يكون هو الوجهة وهو القائد معاً ، وهذه القيادة هى التىيجب أن تنطوى تحتها كل ألوية المؤمنين ، والإسلام لايحارب القيادة لذاتها ، بل يجعلها عنصرا أصليا فى تنظيمه الاجتماعى كما فى الحديث الشريف (إذا كنتم ثلاثة فأمروا عليكم واحداً منكم) ، وإنما يحارب انحرافها وضلالها ووقوفها عقبة فى سبيل الله ، ومن روائع النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه القضية ، قضية كيان الفرد واستقلال فكره ، قوله (لايكن أحدكم إِمَّعَةَ ، يقول أنا مع الناس ، إذا أحسن الناس أحسنت ، وإذا أساءوا أسأت ، بل وطّنوا أنفسكم إذا أحسن الناس أن تحسنوا وإذا أساءوا أن تتجنبوا إساءتهم »

تم بحمد الله



الفهرس



lisanarabs.blogspot.com